



# الإسلام في قفص الانتقام

رد موضوعي على الطعون والانتقادات

حسن اسماعيل

# الإسلام في قفص الاتهام

## دفاعا عن كتاب الله

### مُقَدِّمَةٌ وَمَدْخَلٌ

#### أَوَّلًا

لا يمكننا الا أن نقر ونعترف بالوضع الحرج الذي وصلنا اليه ديننا وأتباعا وكان من نعم الله وفضله علينا ان جعل هذا الدين وأكملة وأتمه لنا وأختار لنا الإسلام منهجا وطريقا ولقد تغيرت وانقلبت حياة العرب بهذه الرسالة بل وتغيرت خريطة العالم كلها بها فمن الذين أوصلنا الى حالة الحرج والله يقول ما جعله حرجا علينا :

﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : 78]

ان الإسلام والمسلمين اليوم في حالة ضعف وفي موقع الاتهام والتهم ولقد تكالبت علينا الأمم وتكاثرت التهم وخارت الهمم فهل من سبيل وطريقة للرد والدفاع عن ديننا واسلامنا والعودة به كما كان دين الأخوة والوحدة والسلام ورسالة سمحاء للناس كافة ؟

## ثانيا

دَعُونَا نَسْأَلُ أَنْفُسِنَا سُؤَالًا صَادِقًا وَوَاقِعِيًّا مِنْ نَفْسِ طَيِّبَةِ السُّؤَالِ السَّابِقِ هَلِ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ  
بِخَيْرٍ ؟ وَالْجَوَابُ وَاضِحٌ لَاحْتِيَاجِ إِلَى تَفْكِيرٍ أَوْ تَرَدُّدٍ هُوَ قُطْعًا لَا ؟

وَإِنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي دَفَعْنَا لِقَوْلِ كَلِمَةٍ لَا كَثِيرَةٍ جَدًّا ذَلِكَ أَنَّ نَظْرَهُ سَرِيعَةٌ وَسَطْحِيَّةٌ لَوَاقِعِنَا تَكْفِي لِقَوْلِ ذَلِكَ  
وَلَنْ نَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِيَّاتِ التَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ وَالاِسْتِخْصَاءِ فَالْوَاقِعِ الَّذِي يَعِيشُهُ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمِينَ مَعْقِدٌ  
وَصَعْبٌ لِلْغَايَةِ أَنْ كَانَ عَلَى مُسَوًى الدِّينِ نَفْسِهِ أَوْ عَلَى مُسَوًى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ .

فَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ مَقْسُومًا عَلَى نَفْسِهِ انْتِسَامًا أَقْفِيًّا وَعَامُودِيًّا فَعَلَى الْمُسَوًى الْأَقْفِيِّ سَنَجِدُ عِدَّةَ أَدْيَانٍ كُلُّهَا  
تُسَمَّى نَفْسِهَا بِاسْمِ الْإِسْلَامِ وَمَنْ قَبْلَ كَانَتْ مُجَرَّدَ مَذَاهِبٍ وَطَوَائِفٍ وَ الْيَوْمَ يُمَارِسُ اتِّبَاعَ هَذِهِ الدِّيَانَاتِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ عِبَادَاتِهِمْ بِطُرُقٍ مُخْتَلَفَةٍ وَمُتَضَارِبَةٍ مِنْ صَلَاةٍ وَحُجٍّ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَلِكُلِّ مِنْهَا لَهُ قَوَاعِدُهُ الشَّرْعِيَّةُ  
فِي الزَّوْجِ وَالطَّلَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَهْمٌ غَيْرُ مُتَقَبِّحٍ  
عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَيْسَ لَهُمْ هَدَفٌ وَاحِدٌ .

وَ صَارَ لِكُلِّ دِينٍ أَرْكَانُهُ الْإِيمَانِيَّةُ وَالَّتِي بِالطَّبَعِ سَتَخْتَلِفُ عَنْ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْأَدْيَانِ الْبَاقِيَةِ وَأَكْبَرُ مِثَالٍ  
عَلَى ذَلِكَ هُوَ هَذِهِ الْفَوَارِقُ الْكَثِيرَةُ وَالْكَبِيرَةُ مَا بَيْنَ الَّذِينَ أَطْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ السُّنَّةَ وَالشَّيْعَةَ وَهِيَ  
تَسْمِيَاتٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .

أَمَّا عَلَى الْمُسَوًى الْأَقْفِيِّ فَهَذَا انْتِسَامٌ وَاضِحٌ ضَمِنَ الطَّائِفَةُ الْوَاحِدَةُ فَالسُّنَّةُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى أَرْبَعَةِ مَذَاهِبٍ  
هُمُ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنْبَلِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَمَدَارِسُ فِكْرِيَّةٌ عَدِيدَةٌ كَالسُّلْفِيَّةِ وَالْأَصُولِيَّةِ وَالْحَدِيثِيَّةِ  
وَالْقُرْآنِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَالشَّيْعَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى الرَّيْدِيَّةِ وَالْإِمَامِيَّةِ وَتَفَرَّعَتْ إِلَى الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ وَهُوَ غَالِبِيَّةُ الشَّيْعَةَ

الموجودين في زماننا ، وبها ثلاث مدارس فكرية رئيسية الأصولية الإخبارية الشيعية العلوية هم طائفة  
 من المسلمين الشيعة الإمامية . عقيدتهم هي نفس العقيدة الإمامية الجعفرية ولهم نفس تسلسل الأئمة  
 الاثنا عشر وتقول مصادر أنهم قد افرقوا عن الاثنا عشرية ما بعد الإمام العاشر علي الهادي . ويقال  
 الإمام الحادي عشر الحسن العسكري ، ولكن العلويون أنفسهم يؤكدون أن لهم نفس تسلسل أئمة الاثنا  
 عشرية .

الإسماعيلية وانقسمت الإسماعيلية عبر تاريخها إلى الدروز النزارية وتسمى حديثاً بالأغاخانية  
 الحشاشون وكانوا بمثابة فرقة عسكرية تابعة للنزارية المستعيلة الطيبية وتسمى حديثاً بالبهرة بهره داودية  
 بهره سليمانية .

لقد وجه النص القرآني خطاباً قاسياً مبكراً للذين فرقوا دينهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا  
 لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : 159] ويلاحظ أن النص  
 المذكور يلقي المسؤولية عليهم أنفسهم الذين يتحملون وحدثهم أسباب هذا الانقسام والفرقة ويخاطب  
 الرسول الكريم بأنه ليس منهم في شيء وهذا يعني أنهم لا يُبعون منهجه ودعوته ورسالته فهي واحدة  
 وموحدة لكنهم هم من ابتعد عن المنهج والرسالة .

أن هذا الانقسام كانت وراءه دوافع سياسية وبنفعية خالصة لم يكن للدين فيها أي منافع أو فوائد بل على  
 العكس فلقد الحق هذا الانقسام مضرّة كبيرة بالدين .

وهناك مجابهة قوية بين اتباع هذه الطوائف والمذاهب والاتجاهات الفكرية والعقائدية والسياسية التي  
 تمثلها وما نشاهده على الانترنت اليوم وفي مختلف الوسائل والوسائط التي تعتمد عليه خير دليل فلقد

سَخِرَتْ هَذِهِ الْمِلَّةُ كَافَّةً الْوَسَائِلَ الْعَصْرِيَّةَ لِلْمُوَاجَهَةِ فِيمَا بَيْنَهَا وَهِيَ وَسَائِلَ سَرِيْعَةِ الْاِتِّشَارِ وَالتَّأْتِيْرِ وَبِذَلِكَ عَرَّتْ نَفْسَهَا وَفَضَحَتْ عَوْرَاتِهَا وَنَشَرَتْ غَسِيلَهَا وَلَآنَ هَذِهِ الْمِلَّةُ مَحْسُوبَةٌ عَلَيِ الْاِسْلَامِ اَوْ بِالْاَصْحَحِ هِيَ الَّتِي تُحْسَبُ نَفْسَهَا مِنْهُ وَتَكْتُمُ عَلَيْهِ فَلَقَدْ وَضَعَتْ نَفْسَهَا وَالْاِسْلَامَ مَعَهَا فِي قَفْصِ الْاِتِّهَامِ اِذْ اَنْ رَفَعَ الْغَطَاءَ عَنْ اَسْرَارِهَا وَبَلَاوِيهَا يُسَى بِشَكْلِ اَوْ اٰخَرَ لِلدِّينِ اِذْ لَا يُمْكِنُ لِمُسْلِمِيْنَ مُنْقَسِمِيْنَ عَلَيِ اَنْفُسِهِمْ وَمُتَعَادِيْنَ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَطَرَقِهِمْ حَمْلَ لُؤَاءِ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ الَّتِي كَلَّفُوا بِهَا .

### ثَلَاثَا

اَنَّ مِنْ التَّهْمِ الْخَطِيْرَةِ الَّتِي يُوَاجِهَهَا الدِّينُ الْيَوْمَ هُوَ تَبَاعُدُهُ مَعْرِفِيَا وَفَقْهِيَا بَيْنَ ثَلَاثِ تِيَارَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ وَفَقْهِيَّةٍ وَمُتَنَاقِضَةٍ مَعَ نَفْسِهَا وَالاٰخَرِ وَهِيَ :

التِّيَارُ السَّلَفِيّ : وَالمَعْرُوفُ بِاَنَّهُ اَحَدُ اَكْثَرِ الْفُرُقِ الْاِسْلَامِيَّةِ تَشَدُّدًا لِّلْعَالِمِ الْعَقَائِدِيَّةِ ، وَيَتَمَسَّكُ اَتْبَاعُهُ بِالْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ التَّبَوِيَّةِ الشَّرِيْفَةِ ، وَيَعْتَقِدُوْنَ اَنَّهَمْ يُمَثِّلُوْنَ صَحِيْحَ اَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ .

"فالسلفية" مُنْهَجٌ يُقْصَدُ مِنْهُ اِتِّبَاعُ الْمُنْهَجِ الْحَقِّ ، وَهُوَ مُنْهَجُ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَلَاهَمُ مِنْ الْقُرُونِ الْمُفْضَلَةِ ، وَهُمْ غَيْرُ مَحْضُورِيْنَ بِاَسْمَاءٍ اَوْ اَشْخَاصٍ اَوْ طَوَائِفٍ ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ اِتِّبَاعُ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ مَا دَامُوا مُلتَزِمِيْنَ بِمُنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الْعَمَلِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجْمَاعِ الصَّحَابَةِ .

والتِّيَارُ الْاٰخَرُ هُوَ التِّيَارُ الشَّيْعِيّ الَّذِي يُمَثِّلُ ثَانِي اَكْبَرَ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ . عُرِفُوا تَارِيْحِيًّا بِ « شَيْعَةِ عَلِيّ » اَوْ « اَتْبَاعِ عَلِيّ » . غَالِبًا مَا يُشِيرُ مُصْطَلِحُ الشَّيْعَةِ اِلَى الشَّيْعَةِ الْاِثْنَا عَشْرِيَّةِ لِاَنَّهَا الْفُرْقَةُ الْاَكْثَرُ عِدَدًا وَلكِنَّهَا تُتَلَقُّ كَذَلِكَ عَلَيِ فِرْقٍ شَيْعِيَّةٍ اٰخَرَى كَالْاِسْمَاعِيْلِيَّةِ وَالرَّيْدِيَّةِ . يَرَى الشَّيْعَةُ الْاِثْنَا عَشْرِيَّةُ اَنَّ عَلِيًّا بِنَ اَبِي طَالِبٍ هُوَ وَاَحَدَ عَشْرٍ اِمَامًا مِنْ وِلْدِهِ (مَنْ زَوْجَتِهِ فَاطِمَةُ بِنْتُ التَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

والسلام) هم أئمة مفترضو الطاعة بالنص السماوي وفي الحديث النبوي ، وأنهم المرجع الرئيس للمسلمين بعد وفاة النبي . ويتناقض هذا الرأي بشكل أساسي مع وجهه نظر الإسلام السنّي .

التيار العقليّ التحديثي أو القرآنيّ وفيه تيارين مُختلِفَين في التوجّه نحو قراءة النصّ القرآنيّ وبالأخذ بالحديث النبويّ فالتيار العقليّ الذي يُعبّرُ العقل هو الأساس لفهم القرآن الكريم بل هو فوقه بينما التيار القرآنيّ أو ما يعرفوا باسم القرآنيين فهو اسم يُطلق على تيار أو فئة من الناس يعتقدون بالقرآن الكريم وحده مصدراً للتشريعات والأحكام ، ويُنكرون السنّة مصدراً تشريعياً ثانياً في الإسلام .

والتيار العقليّ بدأ قديماً منذ المُعزلة ، حينما ردّوا بعض الأحكام الشرعيّة ، للعقل متذرعين بأنّها لم تردّ في كتاب الله تعالى ، وبعد حين من الزمن عاد التيار يظهر بين الفينة والأخرى ، إلى أن جاء عصرنا هذا ، والذي ظهر فيه هذا التيار من جديد بأسماء مختلفة منها التجديد ، والتحديث ، والتطوير ، والقرآنيين وغير ذلك .

#### رابعاً

ان ما لصق بنا من تهم تتعلق بالعنف والإرهاب والجهل والتخلف تعود مسؤوليته بشكل مباشر على العقل الديني الإسلامي الذي أنتج وصنع وأسس لهذه الملل والطوائف والفرق والتي أسست بدورها جملة من الاجتهادات والأفكار التي ما أنزل الله بها ولا شرع لها و بعض هذه الفتاوي والاجتهادات كانت وراء تأسيس عقيدة العنف والإرهاب في الإسلام بل مارسته قولاً وفكراً وعملاً .

وأن وسائل المعرفة والمناهج الحديثة وانتشار المعلومة وسهولة الحصول عليها كشف لأبسط الناس عن الكثير من التفسير والتأويلات التراثية التي تعارض وتخالف العلم والعقل وحتى النصّ القرآني نفسه

وَبَعْضُهَا قَرِيبٌ جِدًّا مِنْ التَّفْسِيرَاتِ الْأَسْطُورِيَّةِ أَوْ الْخَيَالِيَّةِ وَالْأَدْمِي مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ هُنَاكَ تِيَارًا كَبِيرًا مِنْ الْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدِّينِ يَأْخُذُونَ بِهَا عَلَى أَسَاسِ أَنَّهَا حَقَائِقٌ لَا يَشُقُّ لَهَا غُبَارٌ وَهَذَا أَيْضًا شَكْلٌ بَحْدَ ذَاتِهِ بُنْدًا هَامًا مِنْ بُنُودِ لَائِحَةِ الْإِتِّهَامِ الْمَوْجَّهَةِ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ كِتَابٍ وَتَفْسِيرِ التَّرَاثِ أَمْرًا لَا مَفْرَأَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْغَرَابَةِ اغْتِبَارُهَا حَيَّةً تَزْرُقُ وَهِيَ مَرْجَعًا رَيْسِيَا لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُتَفَقِّهِينَ .

## خامسا

أَنْ اِتِّشَارَ رُوحٍ وَمَعَايِرِ الْفَلَسَفَةِ الْمَادِيَّةِ الْاِسْتِهْلَاكِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةِ وَابْحَثِ وَالنِّضَالِ مِنْ أَجْلِ تَأْمِينِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ وَالْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ مِنْ جِهَةِ تَائِبَةٍ وَإِذِ اضْفِئْنَا إِلَى ذَلِكَ تَنَامِي الْفُرُوقَاتِ الطَّبَقِيَّةِ وَازْدِيَادِ إِعْدَادِ الْفُقَرَاءِ لِيَصْبَحُوا بِالْوَفِّ الْمَلَايِينِ أَدَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ وَغَيْرِ مُبَاشِرٍ إِلَى تَعْوِيمِ الدِّينِ ، وَخَوَاءِ النُّفُوسِ ، وَهَشَاشَةِ الْبُنْيَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْعَقْدِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ الْغَالِبِيَّةِ مِنَ النَّاسِ ، وَبِالتَّالِي لَمْ يَعْذِ الْاِرْتِبَاطُ بِالذِّينِ فِي أَذْهَانِ وَنُفُوسِ النَّاسِ قَائِمًا عَلَى أَسَسٍ مَتِينَةٍ وَمَوْضُوعِيَّةٍ ، بَلْ تَحَوَّلَ لِيَصِيرَ مَجْرَدَ تَقَالِيدِ وَطَقُوسِ وَأَعْرَافٍ لَا يَتَّجَذِبُ الْاِنْسَانُ إِلَيْهَا إِلَّا تَحْتَ سُلْطَانِ الْعَاطِفَةِ وَالْاِنْسِ أَوْ بِدَاعِي الْمَضْلَحَةِ .

وَهَذَا بِدَوْرِهِ مَا جَعَلَ دَيْنَ النَّاسِ هَشًّا قَابِلًا لِلتَّفْرِيعِ مِنْ مَضْمُونِهِ وَسَرِيعَ التَّأَثُّرِ بِالتَّقْدِ وَالشُّكَيْكِ تَهْمِيدًا لِاسْتِبْدَالِهِ بِالرُّؤْيِيَّةِ الْمَادِيَّةِ لِلْحَيَاةِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْعَمَلِيِّ وَالسَّلُوكِيِّ بِحَيْثُ لَا يَعُودُ اللَّهُ وَالْقِيَمِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ حَاضِرَةً فِي طَمُوحَاتِ وَهُمُومِ الْاِنْسَانِ إِلَّا نَزْرًا وَبِنَحْوِ خَجُولٍ وَمَقْصُورٍ عَلَى أَفْرَادِ مَحْدُودِينَ أَوْ جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةٍ قَلِيلَةٍ . وَهَذَا مَجْدَ ذَاتِهِ تَهْمِيدِ فَعَالٍ لِلْهَجُومِ التَّنْظِيرِيِّ عَلَى الدِّينِ وَالْاِرْتِبَاطِ بِاللَّاهِ وَتَعْيِيبِهِ مِنَ النُّفُوسِ وَالْعُقُولِ بَعْدَ أَنْ تَمَّ تَعْيِيبُهُ مِنَ الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ وَالْمَعِيشِيِّ إِلَّا لَأَغْرَاضِ نَفْعِيَّةٍ ضَيْقِهِ وَإِنْ

مُفَادِ التُّهْمَةِ الْمُوجَّهَةِ لِلدِّينِ هُنَا أَنَّهُ لَمْ يُعَدَّ يَسْتَطِيعُ وَيَلِيسُ بِمَقْدُورِهِ مِلْءُ الْفَرَاغِ الرُّوحِيِّ لَدَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا  
كَانَ عَلَيْهِ مُنْذُ عُقُودٍ وَالسَّبَبُ يُعُودُ إِلَى الطَّرِيقَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي الدَّعْوَى لِلدِّينِ وَالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ  
وَالَّتِي تَقُومُ عَلَى مَنْهَجِ تَارِيخِي هَسَّ لَمْ يُعَدَّ بِإِمْكَانِهِ فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ هَذَا الْمَنْهَجِ الَّذِي صَيَّرَنَا لِنَكُونَ كَائِنَاتٍ  
تَارِيخِيَّةً وَنَحْنُ فِي الْوَاقِعِ كَائِنَاتٌ عَصْرِيَّةٌ لَا يُمْكِنُ فَصْلُنَا عَنْ رُوحِ الْعَالَمِ الْمَعَاصِرِ وَثِقَاتِهِ وَأَدَوَاتِهِ .

## سادسا

هُنَاكَ دَوَافِعُ كَثِيرَةٌ لِلْهَجُومِ عَلَى الْقُرْآنِ ، مِنْ قِبَلِ الْغَرْبِ وَأَدَوَاتِهِ يُمَكِّنُ إِجْمَالَهَا فِي دَافِعِينَ :  
دَافِعٌ نَفْسِيٌّ : تَرْزِيفُ الْحَقَائِقِ وَتَحْرِيفُهَا تَعْبِيرًا عَنِ الْإِخْفَاقِ وَالْعَجْزِ عَنِ مُوَاجَهَتِهَا ؛ فَالْعَجْزُ عَنِ مُوَاجَهَةِ  
الْخُصْمِ يَتَحَوَّلُ . فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ . إِلَى الْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ .

كَمَا أَنَّ التَّلَبُّسَ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ دَافِعٌ لَوْصَفِ الْآخَرِينَ بِهَا دَرًّا لِلاتِّهَامِ ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ عِنْدَ عُلَمَاءِ  
النَّفْسِ بِالْإِسْقَاطِ ، حَيْثُ إِنَّ الْإِسْقَاطَ حِيلَةٌ مِنَ الْحِيلِ الدَّفَاعِيَّةِ الَّتِي يُلْجَأُ إِلَيْهَا الْفَرْدُ لِلتَّخْلُصِ مِنْ تَأْثِيرِ  
الْوُتْرِ التَّاشِئِ فِي دَاخِلِهِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْغُلْبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْفِكْرِ الْأَقْوَى ، وَالْإِسْلَامِ . كَمَا يَشْهَدُ الْوَاقِعُ . عَقِيدَةٌ  
وَأَخْلَاقًا هُوَ الْأَقْوَى ؛ فَقُوَّتُهُ لَيْسَتْ مِنْ قُوَّةِ اتِّبَاعِهِ كَمَا فِي الْعَقَائِدِ الْآخَرَى ، وَلَكِنْ قُوَّتُهُ ذَاتِيَّةٌ تَتَأْتَى مِنْ  
دَاخِلِهِ ؛ لِأَنَّهُ الْحَقُّ ، لِأَنَّهُ الْخَيْرُ ، لِأَنَّهُ السَّلَامُ وَالْأَمْنُ . . لِأَنَّهُ الصَّلَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي لَمْ تَعْرَضْ لِرِيفٍ أَوْ  
تَحْرِيفٍ أَوْ تَشْوِيهِ .



وَمِنْ هُنَا كَانَ إِخْفَاقُ الْغَرْبِ عَلَى الْمُسْتَوَى الْفِكْرِيِّ الْمَعْرِفِيِّ . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَفَوُّقِهِ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا وَعَسْكَرِيًّا . دَافِعًا إِلَى الْخُرُوجِ عَنِ الْعَقْلَانِيَّةِ وَالْحَوَارِ الْمُنْصِيفِ ، وَاللَّجُوءِ إِلَى الْقُوَّةِ وَإِلَى التَّشْوِيهِ وَالْإِفْسَادِ ظِلْمًا وَعَدْوَانًا .

دَافِعٌ مَعْرِفِيٌّ : وَهُوَ إِخْفَاقُ الْغَرْبِ فِي مُوَاجَهَةِ الْإِسْلَامِ فِكْرِيًّا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا وَعَسْكَرِيًّا فِي الْوَقْتِ الْمَعَاصِرِ ؛ فَالافتراء عَلَى الْقُرْآنِ وَالطَّغْنِ فِيهِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى جَاءَ نَتِيجَةً لِإخْفَاقِ الْكَنِيسَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْإِسْلَامِ عَقَائِدِيًّا ؛ حَيْثُ تَهَاوَى عَقِيدَةُ التَّثْلِيثِ إِمَامَ عَقِيدَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، يُضَافُ إِلَى هَذَا انْعِزَالُ الْكَنِيسَةِ عَنِ الْحَيَاةِ ، فِي مُقَابَلِ أَنْ الْإِسْلَامَ دِينٌ وَدُنْيَا ، فَلَمْ يَكُنْ إِمَامُ الْكَنِيسَةِ مِنْ سَبِيلٍ لَصَدِّ التَّصَارِي عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ سِوَى تَشْوِيهِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ .

وَلَا يَزَالُ الْغَرْبُ حَتَّى الْآنَ يُمَارِسُ فِكْرَهُ إِقْصَاءً وَبَدَأَ الْآخِرَ ، بِمَوَاصِلَةِ الطَّغْنِ فِي الْقُرْآنِ وَفِي بُؤَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُنْعَتُ الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمَارِسُ إِقْصَاءَ الْآخِرِ .

فَالْكَنِيسَةُ لَا تَعْرِفُ بِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَلَا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، وَلَا بِالْقُرْآنِ كِتَابًا مُقَدَّسًا ؛ فَالْقُرْآنَ عِنْدَهُمْ أَكْذُوبَةٌ وَأَحْتِرَاجٌ مُحَمَّدِيٌّ ، أَوْ هُوَ إِرْثٌ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ وَهُمْ تَارِيحِيٌّ ، وَالصَّحَابَةُ مُتَوَحِّشُونَ ، وَالْمُسْلِمُونَ بَرَابِرَةٌ وَمَصَاصُ دِمَاءٍ وَهَمَجٌ . . .

مَعْ عَلِمَهُمْ . بَلْ يَقِينُهُمْ . بِأَنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَوَى الْآخِرَ وَاعْتَرَفَ بِهِ ، بَلْ لَا يَمُّ الْإِيمَانَ لِلْمُسْلِمِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّاءِ وَالْكَتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

## سَابِعًا

تَحَدَّثْنَا عَنْ الضَّرَبَاتِ الَّتِي تَلَقَّاهَا الدِّينَ الإِسْلَامِيَّ مِنَ الدَّاحِلِ وَمِنَ الخَارِجِ وَلَازَالِ يَتَلَقَّاهَا وَالسُّؤَالَ هُنَا  
 مِنْ أَيْنَ يَأْخُذُ الدِّينَ وَاتَّبَاعُهُ المُسْلِمِينَ صمودهم وبقاؤهم هل هُوَ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَقُدْرَاتِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَفِرْقَتِهِمْ  
 فَطَعًا لَا فَإِنَّ قُوَّةَ الدِّينِ وَالمُسْلِمِينَ وَبَقَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا أَسَاسُهَا كِتَابُ اللَّهِ فَهُوَ مُصَدِّرُ قُوَّتِهِمْ كَمَا كَانَ  
 وَسَيَبْقَى حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا فَلَمَّاذَا بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الحَقِيقَةُ الإِلَهِيَّةُ وَالتَّارِيخِيَّةُ يَتَبَدُّونَ كِتَابُ اللَّهِ  
 وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَفِي الوَاقِعِ أَنْ بَقَاءَ القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى قُوَّتِهِ وَحِفْظِهِ وَصَوْنِهِ تَمَّ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ الَّتِي أَرَادَتْ أَنْ  
 يَبْقَى تَوْرَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ حَتَّى يَرِثَهَا اللَّهُ وَمَاعَلَيْهَا .

### ثامنا

أَتْنَا فِي هَذَا الكِتَابِ قُتْمًا بِوَضْعِ المِلْحِ عَلَى جروحنا وكشفنا عيوبنا وعوراتنا لِأَنَّ تَهْيِيجَ الجُرْحِ  
 سَيَسْرَعُنَا فِي طَلَبِ العِلَاجِ وَالدَّوَاءِ وَإِنْ كَشَفَ العُورَاتِ سَيُؤَدِّي إِلَى تَحْرِيكِ غَيْرَتِنَا لِسِتْرَتِهَا وَكَشَفَ  
 العُيُوبِ سَيُؤَدِّي إِلَى اسْتِحْيَاءِنَا وَخَجَلِنَا لِذَلِكَ يَجِبُ مُوَاجَهَةُ مَشَاكِلِنَا وَمَصَابِنَا بِجُرْأَةٍ وَصَدَقَ وَأَمَانَةٌ إِنْ  
 كُنَّا حَقًّا مُسْلِمِينَ وَإِنْ كُنَّا حَقًّا نُؤْمِنُ بِرَسُولٍ وَاحِدٍ هُوَ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنُؤْمِنُ بِقُرْآنٍ  
 وَاحِدٍ هُوَ مَا بَقِيَ لَنَا كَمصدرِ حَقٍّ وَمَنْهَجٍ وَدَلِيلٍ عَمَلٍ يَنْقِذُنَا فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ أَنَّهُ الصَّرَافَةُ المُسْتَقِيمَةُ صِرَافَةُ  
 الَّذِينَ اتَّعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ غَيْرُ طَرِيقِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ أَوْ الضَّالِّينَ .

### تاسعا

هَدَفِ هَذَا الكِتَابِ هُوَ الإِجَابَةُ عَلَى سؤَالٍ لِمَاذَا وَضَعَ الإِسْلَامُ فِي قَفْصِ الإِتِهَامِ وَأَنَّهُ إِذَا اسْتَطَعْنَا  
 الوُصُولَ لِمَعْرِفَةِ الأَسْبَابِ الحَقِيقَةِ وَالمَوْضُوعِيَّةِ لِلدَّلَائِلِ وَالقُرَائِنِ الَّتِي جَمَعَتْ فِي لَاحِظَةِ الإِتِهَامِ فَإِنَّ ذَلِكَ

سيسهل عَلَيْنَا كَثِيرًا فِي خَلْقِ مُذَكَّرَةٍ دِفَاعِ قَوِيَّةٍ تَبْرَأُ دِينَنَا وَإِسْلَامَنَا وَتُظْهِرُهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ السَّمْحَةِ السَّلْمِيَّةِ وَنَثْقِيَةً مِمَّا عَلِقَ بِهِ تَارِيخِيَا مِنْ شَوَائِبِ وَأَفْكَارٍ مُتَخَلِّفَةٍ أَتَجَهَّتْ عُقُولُ جَاهِلَةٍ .

## عاشرا

مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ الَّتِي سَتَسَهِّلُ عَلَيْنَا هَذَا الْبَحْثِ وَسَتُعْطِيهِ الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا مِنْ دَرَجَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ وَالصَّدْقِيَّةِ وَالْجُرْأَةِ هِيَ اسْتِقْلَالِيَّتُنَا الْفِكْرِيَّةَ وَالْعَقَائِدِيَّةَ فَتُخَنُّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ أَدِّ الْأَعْدَاءِ الطَّائِفِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ وَالْمَلَلِيَّةِ وَالْحَزْبِيَّةِ وَالْمَكَايِبِيَّةِ نُؤْمِنُ بِرَبِّ وَاحِدٍ وَمَلَائِكَةٍ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ سَأَلَنِي أَحَدُهُمْ عَلَى أَيِّ مَذْهَبٍ أَنْتَ قُلْتَ لَهُ صِدْقًا لَا أَعْرِفُ وَقُلْتَ لَهُ الْحَقِيقَةُ وَعَلَيْهِ فَإِنْ هَذِهِ الْاسْتِقْلَالِيَّةُ الْفِكْرِيَّةُ وَالْمَذْهَبِيَّةُ سَتُعْطِينِي اسْتِقْلَالِيَّةً مُرِيحَةً كَكَاتِبٍ وَبَاحِثٍ فَلَيْسَ لِي مَصْلَحَةٌ مَعَ أَحَدٍ وَلَسْتُ مُعْصَبًا لِفِكْرَةٍ أَوْ مَبْدَأٍ لِأَشْمَرِ سِوَا عِدِي لِلدِّفَاعِ عَنْهَا هَدَفِي وَمَقْصِدِي أَنْ نَصِلُ إِلَى الْعِلَلِ عَسَى ذَلِكَ أَنْ يُسَاعِدَنَا فِي مَعْرِفَةِ الْعِلَاجِ وَالذَّوَاءِ . .

## حادي عشر وأخيرًا

هَذِهِ مَحَاوِلِي الْفِكْرِيَّةِ الثَّانِيَّةُ فَالْأُولَى كَانَتْ بَحْثًا مُقَارِنًا وَمُحَاوَلَةً لِفَهْمِ التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ ضَمَمْتُهُ فِي كِتَابِ الْعُقْلِ الْبَشَرِيِّ وَفَلَسَفَةِ الْقُرْآنِ وَتَأْتِي مَحَاوِلِي هَذِهِ اسْتِكْمَالًا لِتِلْكَ مِنْ حَيْثُ التَّوَسُّعُ فِي مُنَاقَشَةِ مُحَاوِرٍ جَدِيدَةٍ وَالْإِجَابَةُ عَنْ أَسْئَلَةٍ وَتَسْأُولَاتٍ جَدِيدَةٍ وَالْهَدَفُ وَالْأَسْلُوبُ وَاحِدٌ فِي الْمَحَاوِلَتَيْنِ وَهُوَ اتِّهَاجُ الطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ النَّاقدَةِ وَالْجَرِيئَةِ وَلَمْ أَقِفْ عِنْدَ طُرْحِ وَبَيَانِ الْعِلَلِ وَالْعُيُوبِ بَلْ حَاوَلْتُ جَاهِدًا وَمَجْتَهِدًا تَصَوُّرَ حُلُولِ مَعْقُولَةٍ قَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ .

وَهَذَا الْكِتَابُ كَسَابِقَةٍ لَنْ أتمكن فِي الْوَقْتِ الْحَالِي مِنْ طباعته وَنشره وَرُقِيًا بل سأُنشره ككِتَابٍ إلكتروني  
عَلَى مَوَاقِعٍ وَدُورٍ وَمَكْتَبَاتِ النَّشْرِ الإِلِكْتِرُونِيَّةِ مَجَّانًا .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حَسَنُ إِسْمَاعِيلَ

تُرْكِيَا أَيْلُول 2023

أولا

## الهجوم على كتاب الله من الداخل

ما القصد بالهجوم من الداخل

نُقصد بالهجوم هنا ما فعله العقل الديني الإسلامي خلال المراحل التاريخية المختلفة من أفعال كان من شأنها المساس بجوهر ومفهوم الدين والمس بهيبته وتغيير معالمة وهو ليس كما أنزل على رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ومجس النظر ما إذا كانت تلك الأفعال بقصد أو بدون قصد وبعلم أو جهل وحاولنا حصر تلك التيارات الفكرية الدينية التي قامت بذلك وسنبدا بالحديث عنها واحدة تلو الأخرى .

### أولاً : جماعات التأويل والتفسير والمتكلمة وأهل الرأي

تشكل جماعات التأويل والتفسير أول أفعال العقل الديني في اقتحام جدار النص القرآني وتعد من أخطر الأطراف التي أثرت وزعت أركان العقيدة والدين .

أن ممارسة الإنسان للتأويل سبقت تنظيراته له ، حيث دأب على اقتفاء أثر المعاني وربطها بما يحول في خواطره وتشبيها مع منطقة ، طمعا في تحقيق الرضا المعرفي ، وحتى مع تطور الكتابة وبداية التظير والتعميد لقواعد وشروط الفهم ، ومع نضج المناهج وتملك آليات التفسير ، لم يتخلص الإنسان من نزعة الانطباعية وموقفه التأثري الذي يجيم على مراحل فهمه وتأويله للعبارة والجملة . وقد نجد ضالنا لفهم هذا النوع من التأويل الذي يخدم فكرا معيناً رغم تبنيه لمناهج وأصول موضوعية ، عند العرب الذين مارسوا التأويل الديني (كما الغرب) وأبدعوا في استنباط معاني القرآن وإرواء عطش عقولهم ، إلا أن التأويل العربي أبقى التطور والانفتاح على باقي أنواع النصوص ، وظل العرب يتمتعون بمواقف فلاسفتهم من النزاع والجدل تارة والتفلسف تارة أخرى ، حول قضايا الدين الكبرى .

وَاحْتَضَنَتِ الثَّقَافَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، التَّأْوِيلَ وَالتَّفْسِيرَ الدِّينِيِّينَ بِطَرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَقَدْ وَاجَهَ الْمَفْكَورُونَ الْمُسْلِمُونَ التَّأْوِيلَ فِي مُقَارَنَتِهِ وَمَعَادَلَتِهِ مَعَ التَّفْسِيرِ ، حَيْثُ سَاوَى الْبَعْضُ بَيْنَهُمَا وَجَعَلَ لِهَٰمَا نَفْسَ مَكَانِهِ التَّمْيِيزِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْفُلْسَفَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، كَأَبِي الْبَقَاءِ الْكُفَوِيِّ فِي كِتَابِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلًا : « وَالتَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ وَاحِدٌ ؛ وَهُوَ كَشْفُ الْمُرَادِ عَنِ الْمَشْكَلِ » . وَالعِلَّةُ فِي تَأْلِفِهِمَا رَغْمَ اخْتِلَافِ اللَّفْظِ وَأَصْلِهِ ( التَّفْسِيرُ مِنْ فَسَّرَ وَالتَّأْوِيلُ مِنْ الْأَوَّلِ أَيْ الرَّجُوعِ ) ، هِيَ ، الْعَايَةُ وَالْوَسِيلَةُ ، فَكِلَاهُمَا يَقْصِدَانِ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ وَيَتَّخِذَانِ مِنَ اللُّغَةِ وَالْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ آيَاتٍ وَوَسَائِلَ ، بُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إِلَى مَعَانِيهِ الْمُضْمَرَةِ .

يَرَى مَخَالَفُو هَذَا الطَّرْحِ أَنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي الْمَبْنَى اخْتِلَافٌ فِي الْمَعْنَى أَيْضًا ، وَأَنَّ أَصْلَ الْكَلِمَتَيْنِ الْمُتَفَرِّقَ ، جَعَلَهُمَا مُخْتَلِفَيْنِ مَقَامًا وَقَصْدِيَّةً ؛ فَجَنَدَ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِهِ « الْمَفْرَدَاتِ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ » يَجْعَلُ التَّفْسِيرَ أَعْمَ مِنَ التَّأْوِيلِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْأَوَّلَ يَخُصُّ الْأَلْفَاظَ وَمَفْرَدَاتِهَا ، بَيْنَمَا الْآخِرُ يَتَوَلَّى الْجَمْلَ وَالْعِبَارَاتَ . بِالتَّالِيِ فَإِنَّ التَّأْوِيلَ ارْتَفَعَ مَقَامًا مِنَ التَّفْسِيرِ ، لِأَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ مُرْتَبِطٌ بِالدَّرَايَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْمُؤَوَّلَ بِالضَّرُورَةِ عَارِفٌ وَعَالِمٌ ، بَيْنَمَا التَّفْسِيرُ يَرْتَبِطُ بِالْعَامَّةِ وَأَقْلَ مَقَامًا مِنَ التَّأْوِيلِ حَيْثُ إِنَّ الْمُفَسِّرَ شَارِحٌ لَا عَارِفٌ . فَلَوْ فَسَّرْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ لَقَلْنَا إِخْرَاجَ الطَّيْرِ مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَلَوْ أَوْلْنَا نَفْسَ آيَةِ لَوْجَدْنَا فِيهَا اخْتِلَافًا كَبِيرًا ، كَمَنْ يَقُولُ بِإِخْرَاجِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ أَوْ إِخْرَاجِ الْعَالَمِ مِنَ الْجَاهِلِ ... .

فَالتَّأْوِيلُ إِذْنٌ لَا يَسْتَهْدَفُ إِعَادَةَ الْمَعْنَى الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهِ ، بَلْ يَقْتَضِي خَلْقَ مَعَانِي جَدِيدَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ نَدُّ عَلَى تَعَالِي صَاحِبِهَا الْفِكْرِيِّ وَعُمُقُ تَحْلِيلِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ فَضْلًا عَنِ إِبْدَاعِهِ وَخِيَالِهِ . وَلِهَذَا السَّبَبُ تَضَارَبَتِ الْأَرَءُ وَالْمَوَاقِفُ حَوْلَ مَشْرُوعِيَّةِ وَصَلَاحِيَّةِ تَأْوِيلِ النَّصِّ الدِّينِيِّ ، وَقَدْ ذَهَبَ اتِّبَاعُ

أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، عَلَى رَأْسِهِمْ ابْنُ تَيْمِيَّةَ ، إِلَى تَكْفِيرِ الْمُؤَوَّلِينَ وَتَلْقِيهِمْ بِتِجَارِ الْمِلَالِ وَالتَّحْلِ ، مُعْبَرًا أَنَّ تَأْوِيلَاتِهِمْ ( الْمُتَكَلِّمُونَ وَالتَّصَوِّفُ ) تِجَارِيَّةٌ تَضِلُّ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ أَنَّ الظَّاهِرِيَّةَ وَالحَنْبَلِيَّةَ يَرِفُضَانِ كُلَّ مَا خَرَجَ عَنْ حَرْفِيَّةِ النَّصِّ الدِّينِيِّ تَحْتَ مُسَمِّيَاتِ التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ فَيَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : "ثَلَاثُ كُتُبٍ لَا أَصْلَ لَهَا : الْمُعَاذِي وَالمَلَا حِمَّ وَالتَّفْسِيرُ) ... . أَمَّا فَيَلْسُوفُ الْفُضْلُ ابْنُ رُشْدٍ فَقَدْ اتَّخَذَ بِدَوْرِهِ مَوْفِقًا حَاسِمًا مِنَ التَّأْوِيلِ عَتَبَ عَنْهُ فِي مَجْمُوعِهِ مِنْ كُتُبِهِ ( الْكَشْفُ عَنْ مَنَاهِجِ الْأَدِلَّةِ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ الْمِلَّةِ / فَضْلُ الْمَقَالِ / تَهَافُتُ التَّهَافَاتِ ) حَيْثُ يَرَى أَنَّ التَّأْوِيلَ صِيغَةً عَالِمَةً وَعَارِفَةٌ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِأَهْلِ الْفَلْسَفَةِ وَابْرَهَانَ وَأَصْحَابِ الْمَنْطِقِ وَمَا دُونَ ذَلِكَ فَهُوَ جَدَلٌ يَعِيقُ الطَّرِيقَ الْعَقَائِدِي الصَّحِيحَ لِلْجُمْهُورِ أَوْ لِلْعَامَّةِ ، وَيَقْصِدُ فِي هَذَا الصَّدَدِ تَأْوِيلَاتِ الْفُرُقِ الْكَلَامِيَّةِ وَنِزَاعَاتِهِمْ حَوْلَ الْمَسَائِلِ الْعَقَائِدِيَّةِ .

وَفِي مَوَاضِعٍ كَثِيرَةٍ فِي الْقُرْآنِ نَجِدُ أَنَّ التَّأْوِيلَ مُرْتَبِطٌ بِالشَّخْصِيَّةِ الْعَارِفَةِ وَالَّتِي تَفُوقُ بِعِلْمِهَا بَاقِي الْأَنَامِ ، فَقَدْ احْتَصَّ اللَّهُ لِنَفْسِهِ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

لَا يَقْتَصِرُ اخْتِلَافُ التَّأْوِيلِ عَنِ التَّفْسِيرِ فِي اللُّغَةِ وَالْمَقَامِ وَطَبِيعَةُ خَلْقِ الْمَعَانِي ، بَلْ يَسْلُكُ الْأَوَّلُ طَرِيقًا وَعَرًّا عَنِ الثَّانِي ، حَيْثُ الْقَصْدِيَّةُ وَالنِّيَّةُ تَحِيْمَانِ عَلَى مِنْهَجِيَّةِ إِنْتَاجِ الْمَعَانِي ، إِذْ يَعْمِدُ الْمُؤَوَّلُ إِلَى تَأْوِيلِ الْمَعَانِي بِصُورَةٍ تُنَاسِبُ نِيَّتَهُ وَتُوجِّهُهُ وَقَصْدِيَّتَهُ ، بُعِيَّةٌ خِدْمَةٌ طَائِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ أَوْ ارْتِيَاءٌ لِتَصَوُّرِ فِكْرِي أَرْضَى مِنْطَقَةً .

يُقُولُ د . عَبْدُ الْقَادِرِ بوعرفة فِي هَذَا الصَّدَدِ : ( يُعْتَبَرُ التَّفْسِيرُ مُحَاوَلَةً شَرْحِ الْقُرْآنِ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ مِنْ مَعْطِيَّاتِ تَارِيخِيَّةٍ وَلِغَوِيَّةٍ ، وَاجْتِهَادَاتِ سَابِقَةٍ ، وَلِذَلِكَ نَلَا حِظَّ أَنَّ الْمَفْسِّرَ تَضَاعَلَ نَسَبُهُ حُضُورًا

الإيديولوجية في طرُحُه ، بِنَمَّا التَّأْوِيلِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ يَرْتَبِطُ بِالْإِيدِيُولُوجِيَّةِ اِرْتِبَاطًا وَثِيْقًا وَتَارِيخِيَا .  
لَقَدْ أَصْبَحَ الْفِكْرُ الْمُوْدَجُّ يَكْسِرُ الْقَوَاعِدَ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهَا بِالتَّأْوِيلِ) .

### مَا هُوَ التَّأْوِيلُ الْإِيدِيُولُوجِي ؟

عَرَفَ مُحَمَّدُ الْحَنْفِيُّ الْإِيدِيُولُوجِيَّةَ بِاعْتِبَارِهَا ، التَّعْبِيرِ بِوَاسِطَةِ الْأَفْكَارِ عَنِ الْمَصَالِحِ الطَّبَقِيَّةِ ، وَتُعْبَرُ  
ضُرُورَةً طَبَقِيَّةً ، لِإِيجَادِ التَّنْظِيمِ الضَّرُورِيِّ ، لِقِيَادَةِ حَرَكَةِ طَبَقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَصَالِحِهَا  
الْاِقْتِصَادِيَّةِ ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالثَّقَافِيَّةِ ، وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَحِمَايَةِ تِلْكَ الْمَصَالِحِ ، وَالْعَمَلُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى  
مَرَاكِزِ الْقَرَارِ ، لِجَعْلِ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ فِي خِدْمَةِ تِلْكَ الْمَصَالِحِ ، الْمُؤَيَّدَةِ لِسِيَادَةِ طَبَقَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، عَلَى  
بَاقِي الطَّبَقَاتِ الَّتِي يَتِمُّ التَّحْكُمُ فِيهَا إِيدِيُولُوجِيَا ، وَسِيَاسِيَا ، وَعَنْ طَرِيقِ أَجْهَزَةِ الدَّوْلَةِ الْقَمْعِيَّةِ ، الَّتِي  
تَعْتَمِدُ مَجْمُوعَهُ مِنْ الْقَوَائِنِ ، الَّتِي تَكْرُسُ سِيَادَةَ الطَّبَقَةِ الْحَاكِمَةِ .

وَتَقْصِدُ بِالتَّأْوِيلِ الْإِيدِيُولُوجِي ، هَاهُنَا مَجْمُوعَهُ مُتْرَاكِمَةً مِنَ التَّأْوِيلَاتِ لِلنُّصُوصِ الدِّيْنِيَّةِ ، فِي مُخْتَلَفِ  
الْأَمْكِنَةِ ، وَالْأَزْمَنَةِ ، انْطِلَاقًا مِنْ مَضْلِحَةِ طَبَقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، عَنِ وَعِيٍّ ، أَوْ عَنْ غَيْرِ وَعِيٍّ ، لِخِدْمَةِ مَضْلِحَةٍ  
تِلْكَ الْمَضْلِحَةِ ، وَسَعِيَا إِلَى حِمَايَتِهَا فِي مَكَانٍ وَزَمَانٍ مَا . وَهُوَ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ مُحَمَّدُ الْحَنْفِيُّ بِالتَّرَاثِ  
الْمُوْدَجِّ لِلدِّيْنِ .

وَلَعَلَّ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُتَصَوِّفَةَ ، أَكْثَرَ مِنْ مَارَسَ هَذَا التَّأْوِيلِ الْإِيدِيُولُوجِي اسْتِدْلَالًا عَلَى فِكْرِهِ ، وَاسْتَمَدَّ  
مَشْرُوعِيَّةَ أَصُولِهِ وَقَوَاعِدِهِ مِنْ تَأْوِيلَاتِهِ الْإِيدِيُولُوجِيَّةِ لِلدِّيْنِ .

### إِضَاءَةٌ حَوْلَ عِلْمِ الْكَلَامِ



بَدَأَ عِلْمَ الْكَلَامِ مُتَأَثِّرًا قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ تَعْيِيدَهُ وَبَيَانَ مَنَهْجِهِ . وَقَدْ شَكَلَ مَهْدَ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ ، أَوْ لَقَلِ الْفُلْسَفَةَ  
الإِسْلَامِيَّةَ (إِذْ هُنَاكَ مَنْ يُسَمَّى الْمُتَكَلِّمِينَ بِفُلْسَفَةِ الْعَرَبِ . . ) حَيْثُ اتُّخِذَ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ  
وَقَضَايَاهَا الْكُبْرَى ( نَعْنِي هُنَا حَقِيقَةَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَنْزِلَةَ مُرْتَكِبِ الْكِبِيرَةِ وَشُرُوطِ الْإِمَامَةِ . . ) وَرَغْمَ  
اِخْتِلَافِ الْفُرُقِ الْكَلَامِيَّةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَتَرْجِيحِ قَرَقِهِ فِي مُقَابِلِ زُنْدَقَةِ وَتَكْفِيرِ أُخْرَى إِلَّا أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ بَعْدُ  
مَذَاهِبِهِمْ وَأُصُولَهَا ، قَدَرُ لَهُمُ اللَّهُ مُلُوكَ وَخُلَفَاءَ الْعَصْرَيْنِ الْأُمَوِيِّ وَالْعَبَّاسِيِّ عَلَى نُصْرَةِ آرَائِهِمْ وَإِثْبَاتِ  
عَقَائِدِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ وَالْبَحْثِ وَالِاسْتِدْلَالَ مِمَّا سَاهَمَ فِي تَحْرِيكِ عَجَلِهِ  
عُلُومَ أُخْرَى مُجَاوِرَةً (البلاغة ، النحو ، الفلْسَفَة ، المنطق . . .) . نَشَأَ عِلْمُ الْكَلَامِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ  
كَمُظْهِرٍ مِنْ مَظَاهِرِ خِلَافٍ وَأَزْمَاتِ الصَّحَابَةِ الَّتِي انْتَهَتْ بِوَلِيِّ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ الْحُكْمِ ، هَذَا مِنْ  
جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، رَدًّا عَلَى بَاقِي الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ حَوْلَ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَجَزَائِهِ . . ، وَعَلَيْهِ  
فَقَدْ حَصَرَ الشُّهُرِسْتَانِي (ضَمَّنَ كِتَابَهُ الْمَلَلِ وَالنَّحْلَ) هَذِهِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ فِي أَرْبَعِ قَضَايَا/ قَوَاعِدِ  
كُبْرَى وَهِيَ :

- الصِّفَاتِ وَالْتَوْحِيدِ فِيهَا : وَتَشْمَلُ عَلَى مَسَائِلَ : الصِّفَاتِ الْأَرْثِيَّةِ ، إِثْبَاتًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ ، وَنَفْيًا عِنْدَ  
جَمَاعَةٍ . وَبَيَانَ صِفَاتِ الذَّاتِ ، وَصِفَاتِ الْفِعْلِ ، وَمَا يَجِبُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَسْتَحِيلُ  
وَفِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ الْأَشْعَرِيَّةِ ، وَالْكَرَامِيَّةِ ، وَالْمَجَسَّمَةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ .

- الْقُدْرَ وَالْعَدْلَ فِيهِ : وَتَشْمَلُ عَلَى مَسَائِلَ : الْقَضَاءِ ، وَالْقُدْرَ ، وَالْجَبْرَ وَالْكَسْبَ ، وَإِرَادَةَ الْخَيْرِ  
وَالشَّرِّ ، وَالْمَقْدُورَ ، وَالْمَعْلُومَ ؛ إِثْبَاتًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ ، وَنَفْيًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ . وَفِيهَا الْخِلَافُ بَيْنَ :  
الْقُدْرِيَّةِ ، وَالنَّجَارِيَّةِ ، وَالْجَبْرِيَّةِ ، وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالْكَرَامِيَّةِ .

- الوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ : وَتَشْمَلُ عَلَى مَسَائِلَ : الْإِيمَانِ ، وَالتَّوْبَةِ ، وَالْوَعِيدِ ، وَالْإِرْجَاءِ ،  
وَالْتَّكْفِيرِ ، وَالتَّضَلُّيلِ ؛ إِبْتِائًا عَلَى وَجْهِ عِنْدَ جَمَاعَةٍ وَنَفِيًا عِنْدَ جَمَاعَةٍ . وَفِيهَا خِلَافٌ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ ،  
وَالْوَعِيدِيَّةِ ، الْمُعْزَلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ ، وَالْكَرَامِيَّةِ .

- السَّمْعِ وَالْعَقْلِ وَالرِّسَالَةِ ، وَالْإِمَامَةِ . وَتَشْمَلُ عَلَى مَسَائِلَ : التَّحْسِينِ ، وَالتَّقْبِيحِ ، وَالصَّلَاحِ  
وَالْأَصْلَاحِ ، وَاللُّطْفِ ، وَالْعِصْمَةَ فِي النُّبُوَّةِ... وَالْخِلَافُ فِيهَا بَيْنَ الشَّيْعَةِ ، وَالْخَوَارِجِ وَالْمُعْزَلَةِ وَالْكَرَامِيَّةِ  
وَالْأَشْعَرِيَّةِ .

تَمَخَّضَ عَنْ هَذَا الْفَنِّ زُمْرَةٌ مِنَ الْفِرْقِ الْكَلَامِيَّةِ سَيَّطَ تَارِيخَنَا الضُّوْءُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَعْلَامِهَا ، تَمَيَّزَتْ كُلُّ  
فِرْقَةٍ بِأُصُولٍ وَأَفْكَارٍ تَوَثَّتْ مَذْهَبُهَا وَاخْتَلَفَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ عَنْ أُخْرَى ، كَانَ الْجَامِعُ بَيْنَهُمُ الدِّينَ أَوَّلًا وَسُبُلَ  
تَأْوِيلِهِ لِصَالِحِ مَذْهَبِهِمْ تَأْيِيًا . فَكَيْفَ اسْتَمَدَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مَشْرُوعِيَّةً وَصِلَاحِيَّةً مُوقِنَةً مِنَ الْقَضَايَا  
أَعْلَاهُ ؟ وَكَيْفَ أَوْلَتْ آيَاتِهِ تَعَالَى تَأْوِيلًا يَخْدُمُ فِكْرَهَا وَيُوحِي بِأَنَّهُ الْأَصْحَحُ وَ الْإِنْفَعُ لِلْجُمْهُورِ ؟  
بَعْضُ مَظَاهِرِ التَّأْوِيلِ الْأَدْبِيُولُوجِي :

تَعَدَّدَتْ وَتَفَرَّعَتْ الْفِرْقُ الْكَلَامِيَّةُ وَتَشَعَّبَتْ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَصْنَافٌ حَتَّى بَلَغَ عَدَدُهَا 73 فِرْقَةً ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ  
عَنْ آيَةِ فِرْقَةٍ نَاجِيَّةٍ مِنْهُنَّ لَا يَسَعُنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ ذِكْرُ كُلِّ الْفِرْقِ وَاخْتِلَافَاتِهَا كَمَا لَا يَسَعُنَا الْإِسْهَابُ فِي  
ذِكْرِ كُلِّ مَظَاهِرِ التَّأْوِيلِ الْأَدْبِيُولُوجِي ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّا سَنَكْفِي بِأَكْثَرِ الْفِرْقِ شُيُوعًا وَمُمَارَسَةً لِلتَّأْوِيلِ وَهُمْ  
عَلَى التَّوَالِي ( الشَّيْعَةُ ، الْمُعْزَلَةُ ، الْأَشَاعِرَةُ ) .

### الشَّيْعَةُ

يُطْلَقُ لَفْظُ الشَّيْعَةِ فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَتَرَجَعَ نَشْأَةَ الشَّيْعِ كَمَا سَرَدَهَا الدُّكُورُ عَلِيُّ عَبْدُ الْفِيَّاحِ الْمَغْرِبِيِّ ، إِلَى ظُهُورِ أَوَّلِ خِلَافِ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْ ظَهَرَ اتِّجَاهُهُ يَقُولُ بِأَحْتِقَابَةِ الْخِلَافَةِ لِابْنِي هَاشِمٍ ، لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ الْقُرَشِيِّينَ لِلرَّسُولِ ، وَتَرَعَمَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَوَافَقَهُ بَعْضُ أَقْرَبَاءِ الرَّسُولِ ، لَكِنَّ هَذَا الْخِلَافَ حَوْلَ الْإِمَامَةِ ، لَمْ يَدُمْ طَوِيلًا ، إِذْ حَسَمَهُ أَبُو بَكْرٍ بِذِكْرِهِ حَدِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْأُمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ ﴾ وَتَمَّتْ لَهُ الْبَيْعَةُ ، بَدَأَ الشَّيْعَ لِعَلِيِّ مِنْ هَذِهِ التَّقْطِعةِ وَلَكِنَّ الشَّيْعَةَ كَمَا ذَهَبَ كَلَامِي شَرَعَ فِي التَّطَوُّرِ وَالتَّفَرُّعِ مِنْ قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ وَصِلَاحِيَّتِهَا فِي غَيْرِ الْقُرَشِيِّينَ ، وَاتَّخَذَ مِنْ آيَةِ التَّأْوِيلِ قَالِبًا لِلْخِلَافِ بَعِيَّةَ الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ السُّلْطَةِ قَائِلًا إِنَّ : الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ مَصْلِحِيَّةِ تَنَاطُ بِأَخْتِيَارِ الْعَامَّةِ وَيَتَّصِبُ الْإِمَامَ بِنَصْبِهِمْ ، بَلْ هِيَ قَضِيَّةٌ أَصُولِيَّةٌ ، وَهِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَا يَجُوزُ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِغْفَالُهُ وَإِهْمَالُهُ ، وَلَا تَفْوِيضُهُ إِلَى الْعَامَّةِ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ 26 مِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وَوَضَّحَ مِنْ الْآيَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُمْ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةُ : التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ ، لِأَنَّهَا فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُهْتَدٍ إِلَى الْحَقِّ وَكَثِيرٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا خَارِجٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . إِلَّا أَنَّ الشَّيْعَةَ اتَّخَذَتْ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ انْتِقَالًا لِرُوحَانِيَّةِ النُّبُوَّةِ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بِالتَّالِي كَانَ لَرَامًا عَلَى هَذَا الْأَخِيرِ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ تَحْقِيقًا لِلسُّلْطَةِ الزَّمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ ، بَيِّنًا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفَرَقِ عَارَضَتْ قَوْلَ الشَّيْعَةِ هَذَا وَاعْتَبَرَتْ السُّلْطَةَ بَعْدَ الرَّسُولِ

زمانية فقط لا روحانية ، أي تتم بالبيعة والشورى والاختيار ، وهم الخوارج والمعتزلة وأهل السنة والجماعة .

اختلف الشيعة باختلاف أحقية الإمامة ، إلا أنهم أجمعوا بوجوب التعيين والتنصيب وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبار والصغار والقول بالتولي والتبري قولاً ، وفعلًا وعقدًا لا في حالة التقية وهم خمس فرق ( الكيسانية نسبة إلى كيسان و من أقوالهم أن الذين طاعة الرجل أي إن أركان الإسلام واجبة للرجال ، الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأتباعه ، من أقوالهم أحقية الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها من الشجعان دونما غيرهم ، الإمامية نسبة إلى حصر الإمامة عندهم في علي بن أبي طالب نصًا ظاهرًا ، وتعيينًا صادقًا ، من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين ، غلاة الشيعة وهم اسم على مسمى ذلك لغلوهم في أحقية الإمامة لعلي بل جعلوا منه نبياً أخطأ جبريل في إنزال الوحي عليه ونزل سهواً على الرسول محمد ، وقد اختلف عليهم الحابل بالنابل فشبهوا الخلق بالخالق ومن أقوالهم رجعة الأنبياء والأئمة إلى الدنيا بعد إقامة دولة المهدي المنتظر ، والإسماعيلية أو الباطنية وتميزوا بإثبات الإمامة عن الإسماعيل بن جعفر ) وتمخضت عن كل فرقة منهم اتباع . .

أما في قول الله تعالى ضمن الآية 55 من سورة المائدة : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ فقد أجمعت الشيعة على أن المقصود بعد ولاية الله والرسول ، علي بن أبي طالب ، أي إن الأحقية بأداة الحصر إنما في الولاية والطاعة هي لله تعالى ورسوله والذي أتى الزكاة وهو راکع وهو راکع علي بن أبي طالب ذلك تبعاً لرواية أخذها الزمخشري - وهو

معزلي- عَنْ الطَّبْرَانِيِّ وَالتَّغْلِبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ الْكُشَافِ ، يَقُولُ الرَّمُحْشَرِيُّ : ( ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ الْوَاوُ فِيهِ لِلْحَالِ ، أَي : يَعْمَلُونَ ذَلِكَ فِي حَالِ الرُّكُوعِ وَهُوَ الْخُشُوعُ وَالْإِخْبَاتُ وَالتَّوَضُّعُ لِلَّهِ إِذَا صَلَّوْا وَإِذَا زَكَوْا وَقِيلَ هُوَ حَالٌ مِنْ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ بِمَعْنَى يُؤْتُونَهَا فِي حَالِ رُكُوعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ ، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ حِينَ سَأَلَهُ سَائِلٌ وَهُوَ رَاكِعٌ فِي صَلَاتِهِ فَطَرَحَ لَهُ خَاتِمَةً ، كَأَنَّهُ كَانَ مَرَجًا فِي خِنْصَرِهِ فَلَمْ يَتَكَلَّفْ لِخَلْعِهِ كَثِيرَ عَمَلٍ تَفْسُدُ بِمِثْلِهِ صَلَاتُهُ . فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاللَّفْظُ لَفْظُ جَمَاعَةٍ ! قُلْتَ : جِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ فِيهِ رَجُلًا وَاحِدًا لِيرْغَبِ النَّاسِ فِي مِثْلِ فِعْلِهِ ، فَيَنَالُوا مِثْلَ ثَوَابِهِ ، وَلِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ سَجِيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ ، وَتَقْفُدَ الْفُقَرَاءَ ، حَتَّى إِنَّ لَزَهْمَ الْأَمْرِ لَا يَقْبَلُ التَّأخِيرَ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ لَمْ يُؤَخِّرُوهُ إِلَى الْفَرَاغِ مِنْهَا) .

لِكُلِّ هَاتِهِ الْأَسْبَابِ ، سُمِّيَتِ الْآيَةُ 55 مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ بآيَةِ "الْوَلَايَةِ" وَخُلِقَتْ جَدَلًا وَاسِعًا بَيْنَ الشِّيْعَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ حَتَّى إِنَّ ابْنَ كَثِيرٍ وَابْنَ تَيْمِيَّةَ ، هَمَشُوا رَوَايَاتِ الشِّيْعَةِ وَاعْتَبَرُوا الْآيَةَ شَامِلَةً لِكُلِّفَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

أَوَّلُ الشِّيْعَةِ الْجُزْءِ الْأَخِيرِ لِلآيَةِ 33 مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ تَأْوِيلًا يُعَزِّزُ طَرَحَهُمُ الْعَقَائِدِي ، فَجَعَلُوا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لِيَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ دَلِيلًا عِضْمَتُهُمْ مِنْ كُلِّ قُبْحٍ وَطَهْرُهُمْ مِنْ كُلِّ رَجْسٍ ، كَمَا أَنَّهُمْ زَعَمُوا بِنَزُولِهَا عَلَى أَصْحَابِ الْكِسَاءِ الْخَمْسَةِ ( مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ) ، اسْتِنَادًا إِلَى رِوَايَةِ ذَكَرَهَا الْفُضْلُ بْنُ الْحَسَنِ الطَّبْرَسِيُّ وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الشِّيْعَةِ مَذْهَبِهِ الْإِمَامِيَّةَ فِي تَفْسِيرِهِ "مَجْمَعُ

الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ "فَيَقُولُ : (وقد اتفقت الأمة بأجمعها على أن المراد بأهل البيت في الآية أهل بيت نبينا (ص) ، ثم اختلفوا فقال عكرمة : أراد أزواج النبي لأن أول الآية موجهة إليهن . وقال أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك ووائلة بن الأسقع وعائشة أم سلمى : أن الآية مختصة برسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) ، ذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره حديثي شهر بن حوشب عن أم سلمة قال : جاءت فاطمة (ع) إلى النبي (ص) تحمل حريرة فقال لها : ادعي زوجك وابنيك ، فجاءت بهم فطعموا ، ثم ألقى عليهم كساء له خبيرا فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقلت : يا رسول الله وأنا معهم ؟ قال : أنت إلى خير واستدلت الشيعة - حسب الإمام الطبرسي في نفس تفسيره - على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة (ع) بأن قالوا : أن لفظة إنما مُحَقَّقَةٌ لِمَا أُثْبِتَ بَعْدَهَا ، نَافِيَةٌ لِمَا لَمْ يُثْبِتْ ، فَإِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ إِنَّمَا لَكَ عِنْدِي دِرْهَمٌ وَإِنَّمَا فِي الدَّارِ زَيْدٌ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ سِوَى دِرْهَمٍ وَلَيْسَ فِي الدَّارِ سِوَى زَيْدٍ ، وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَلَا تَحُلُو الْإِرَادَةَ فِي الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ الْإِرَادَةُ الْمُحْضَصَةُ أَوْ الْإِرَادَةُ الَّتِي يُبْعَثُ التَّطْهِيرُ وَإِذْهَابِ الرَّجْسِ ، وَلَا يَجُوزُ الْوَجْهِ الْأَوَّلُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَرَادَ مِنْ كُلِّ مُكَلَّفٍ هَذِهِ الْإِرَادَةَ الْمُطْلَقَةَ فَلَا احْتِصَاصَ لَهَا بِأَهْلِ الْبَيْتِ دُونَ سَائِرِ الْخَلْقِ ، وَلِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَقْتَضِي الْمَدْحَ وَالتَّعْظِيمَ لَهُمْ بِغَيْرِ شَكٍّ وَشِبْهِهِ وَلَا مَدْحَ فِي الْإِرَادَةِ الْمَجْرَدَةِ فَثَبَّتِ الْوَجْهُ الثَّانِي ، وَفِي ثُبُوتِهِ عِصْمَةُ الْمَعْنِيِّينَ بِالْآيَةِ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَاحِ ) . وَسُمِّيَتِ الْآيَةُ كُلُّهَا بِآيَةِ "التَّطْهِيرِ" نِسْبَةً إِلَى جُزْئِهَا الْأَخِيرِ .

لَا بَدَّ وَإِنَّ الْقَارِيَّ لَأَحْظَ فِي الْفِقْرَةِ أَعْلَاهُ تَسْلَسُلَ الدَّلَائِلِ ، إِلَّا أَنَّ مَا رُوِيَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْعَةِ ، كَذَبَتْ السُّنَّةَ بَعْضُهُ وَضَعَفَتْ بَعْضُهُ ، وَنَفَتْ بِذَلِكَ عِصْمَةَ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ الْخَمْسَةِ جَاعِلَهُ مِنَ التَّطْهِيرِ صِفَةً لِأَهْلِ

الرَّسُولَ وَزَوْجَاتِهِ وَبَنَاتِهِ وَأَزْوَاجَ بَنَاتِهِ ، كَمَا اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ فِي مَفْهُومِ الرَّجْسِ وَ تَأْرَجِحَ عِنْدَهُمْ بَيْنَ (الشَّيْطَانِ ، الشَّرْكَ ، الْإِثْمِ ، الْفَوَاحِشِ ، الْمَعَاصِي...) .

نلمس جليًا عند هذين المظهرين ، تأويل علماء الشيعة للقرآن الكريم ، تأويلًا يخدم انخيازهم بعصمة وإمامة وتطهير علي بن أبي طالب وذريته ، وبالتالي فإن كل ما استدلوا به من أحاديث نبوية وتفسيرات لغوية (نحوية وبلاغية) ما هو إلا تعبير عن توجههم الفكري وتكريس لمشروعية وصلحية مذهبهم العقائدي بدرجة أولى .

ونشير بالذكر إلى أن آية الولاية محكمة لا متشابهة ، كما أن التأويل عند الطباطبائي - أشهر علماء الشيعة - لا يختص بالآيات المتشابهة بل لجميع القرآن تأويل ، فلآية المحكمة تأويلًا كما أن للمتشابهة تأويلًا . بالتالي فإن الحديث عن المحكم والمتشابه كفضية تحكم تأويل القرآن ، نجدها عند المعتزلة وعندهم نحت الرحال في الفقرة القادمة .

### المُعْتزَلَةُ

أن المعتزلة من أشهر الفرق الإسلامية وأكثرها ممارسة للتأويل القرآني ، ذلك أنها ترجح العقل عن النقل في سبيل الوصول إلى الحقائق الإيمانية العقائدية ، حتى إن أبا الحسين الملقب الشافعي - وهو من أكبر

خصومهم- يصفهم في كتابه ” التنبية والرّد على أهل الأهواء والبدع” قائلاً : (أرباب الكلام وأصحاب  
الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم وأنواع الكلام ، والمفرقون بين علم السمع  
وعلم العقل ، والمنصفون في مناظرة الخصوم) .

تعددت الروايات حول نشأة هذه الفرقة ولعل أشهرها ما رواه الشهرستاني حول بدايات المعتزلة والقول  
بقاعدة ”المنزلة بين المنزلتين والسبب فيه أنه دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ،  
لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار والكبيرة عندهم ككفر يخرج به عن الملة ؛ وهم  
وعيدية الخوارج . وجماعة يرجئون أصحاب الكبار والكبيرة عندهم لا تضر الإيمان ، بل العمل على  
مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ؛ وهم مرجئة  
الأمة . فكيف تحكّم لنا في ذلك اعتقادًا ؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال وأصل بن  
عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ، ولا كافر مطلقًا ، بل هو في منزله بين المنزلتين :  
لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل أسطوانة من أسطوانات المسجد يقر ما أجاب به على جماعة من  
أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنّا وأصل ، فسُمي هو وأصحابه المعتزلة . ”

اتفق أئمة الاعتزال على خمسة أصول تبني عقيدتهم وتقوم عليها مقولاتهم فأولوا القرآن الكريم كدليل  
على أحقيتهم وكسبا لمشروعية مقدسة تؤيد عقيدتهم . والأصول الخمسة هي كالآتي :

I . التوحيد : أن التوحيد أصل حافظ عليه المعتزلة وحاربوا لأجله بشراة في زمن تلاحق فيه  
المسلمون اجتماعيًا وثقافيًا مع عقيدة التثليث ” المسيحية ” وتعدّد الآلهة ” المانوية ” ، فكان التوحيد سلاح  
مناظرة المعتزلة لهم ، ويشمل هذا الأصل على ثلاثة مبادئ أولهم التنزيه ، وهو تنزيه الله تعالى عن أي



صِفَةٍ أَوْ حَالِهِ أَوْ جِسْمٍ أَوْ رَائِحَةٍ ، لِكَوْنِهِ سُبْحَانَ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ بِالتَّالِيِ فَاللَّهُ لَا يَتَّصِلُ بِصِلَةٍ الْمُشَابَهَةِ مَعَ أَيِّ خَلْقٍ مُّحْدِثٍ عَكْسِ الْمَجَسَّمَةِ وَالْكَرَامِيَّةِ ، ثَانِيهِمْ نَفِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ صِفَاتِهِ فِي ذَاتِهِ - وَيُقْصَدُ هُنَا الْإِرَادَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ- ، أَيُّ إِنْ لَمْ يَخْلُقْ خَالِقٌ لِلْمُحْدِثِ وَكُلِّ صِفَةٍ تَشْتَرِكُ مَعَ اللَّهِ فِي قَدَمِهَا فَهِيَ بَاطِلَةٌ بَطْلَانِ تَعَدُّ الْإِلَهَةَ عِنْدَ الْمَانَوِيَّةِ ، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ (السمع والبصر ، الكلام ، اليد...) إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ وَعِلْمَهُ وَإِرَادَتَهُ وَحَيَاتِهِ ، صِفَاتٌ عَيْنِ الذَّاتِ أَيُّ أَنَّهَا نَفْسُهَا ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى . ثَالِثُ الْمَبَادِي هُوَ نَفِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الرُّؤْيَةِ عَنِ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَجُوهٌ يُؤْمِنُونَ بِرَبِّهَا نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاصِرَةٌ ﴾ وَسَنُفَصِّلُ فِي كَيْفِيَّةِ تَأْوِيلِهَا عِنْدَهُمْ .

2 . الْعَدْلُ : وَهُوَ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ ، مَا يُقْتَضِيهِ الْعَقْلُ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَإِضْدَارِ الْحُكْمِ عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ وَالْمُصْلَحَةِ ، أَيُّ إِنْ لَمْ يَخْلُقْ فِي مَصَالِحِ وَأَفْعَالِ خُلُقِهِ أَوْ عِبَادَةٍ ، وَتَشْمَلُ مَبْدَأَيْنِ أُسَاسِيَيْنِ ، أَوَّلَهُمَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحُ ؛ وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الْخَيْرَ وَلَا يَقْدِرُ لِعِبَادِهِ الشَّرَّ أَوْ الظُّلْمَ ، فَكُلُّ فِعْلٍ خَيْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُلُّ فِعْلٍ شَرِّيرٍ مِنْ أَنْفُسِنَا نَحْنُ عِبَادَةٌ ، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ بَوَضَّعَهُ "عَادِلًا" لَا يَظْلِمُ وَلَا يُضَرُّ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ بَلْ كُلُّ أَفْعَالِهِ تُصَبُّ فِي مَصْلَحَتِهِمْ . وَثَانِيَهُمَا الْقُدْرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَتَارِجِحُهَا بَيْنَ التَّسْيِيرِ وَالتَّخْيِيرِ مِنْ طَرَفِ اللَّهِ أَوْ نَظَرِيَّةِ خَلْقِ الْأَفْعَالِ ؛ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الْعَدْلَ الْإِلَهِيَّ يُقْتَضِي مُعَاقِبَةَ النَّاسِ أَوْ جَزَائِهِمْ عَلَى أَفْعَالِهِمْ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا هُمْ ، لَا الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيْهِمْ مَجَازًا ، بَيِّنَةٌ أَنَّ مُقَدَّرَهَا الْحَقِيقِيَّ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِلَّا فَلَنْ يَكُونَ جَزَاؤُهُمْ وَعِقَابُهُمْ تَحْتَ مُسَمَّى الْعَدْلِ لِإِلَهِي ، يَقُولُ الشَّهْرِسْتَانِي عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ : ( أَنَّ الْبَارِيَّ تَعَالَى حَكِيمٌ عَادِلٌ ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ شَرٌّ وَلَا ظُلْمٌ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ مِنَ الْعِبَادِ خِلَافَ مَا يَأْمُرُ ، وَيَحْتَمُّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ثُمَّ يُجَازِيَهُمْ عَلَيْهِ . فَالْعَبْدُ هُوَ الْفَاعِلُ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْإِيمَانُ

وَالْكَفْرَ ، وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ ، وَهُوَ الْمَجَازِيُّ عَلَى فِعْلِهِ . وَالرَّبُّ تَعَالَى أَقْدَرَهُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، هَذَا وَإِنْ  
إِقْرَارًا وَأَصْلُ بِهَذَا الْمُبْدَأِ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ إِقْرَارِهِ بِمُبْدَأِ الصِّفَاتِ .

3 . الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ : هَذَا الْأَصْلُ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ يَخُصُّ جُزْءًا أَوْ وَعْدَ مُرْتَكِبِ الْأَفْعَالِ الْمُحْمُودَةِ وَوَعِيدُ  
أَوْ عِقَابِ مُرْتَكِبِ الذُّنُوبِ وَالْكَبَائِرِ ، عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ . وَيُضَمُّ مَبْدَأَيْنِ ، أَوْلَهُمَا الْاسْتِحْقَاقُ ؛ وَهُوَ أَنَّ  
اللَّهَ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ ، فَيَجْزِي عَبْدَهُ بِمَا اسْتَحَقَّ مِنْ عِقَابٍ أَوْ جُزْءًا . وَثَانِيَهُمَا الْعَوَضُ ؛ وَهُوَ  
مُبْدَأُ تَعْوِضِ اللَّهِ لِخَلْقِهِ عَنِ الْأَلَامِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْكَوَارِثِ الَّتِي حَدَثَتْ دُونَهَا سَبَبِ أَوْ فِعْلٍ مِنْهُ ، بِالتَّالِيِ  
يَكُونُ التَّعْوِضُ عَنِ الْأَلَامِ تَحْقِيقًا لِعَدَالَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

4 . الْمُنْزَلَةَ بَيْنَ الْمُنْزَلَتَيْنِ : هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَمَخَّضَتْ عَنْهُ فِرْقَةُ الْمُعْتَزَلَةِ نَتِيجَةَ اغْتِرَالِ وَأَصْلِ ، أَسْتَاذِهِ  
الْبَصْرِيِّ كَمَا أَسْرَنَا فِي بَدَايَةِ حَدِيثِنَا عَنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ الْكَلَامِيَّةِ .

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ : أَجْمَعَتْ كُلُّ الْفِرْقِ الْكَلَامِيَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنْ  
الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ بِالْقَلْبِ أَوْ اللِّسَانِ أَوْ سَلِّ السُّيُوفِ . وَهُوَ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْأَخْلَاقِ ،  
حَيْثُ يَنْتَصِرُ الْخَيْرَ عَلَى الشَّرِّ ، وَيَسْعَى الْعَبْدُ فِي نَصْرِهِ الْأَفْعَالِ الْمُحْمُودَةِ .

كَانَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ الْخُمْسَةَ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْمُعْتَزَلَةُ ، إِلَّا أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ حَوْلَ الْإِمَامَةِ وَمَسَائِلَ  
أُخْرَى جَزَائِيَّةً وَسَلَكَتْ بِذَلِكَ كُلُّ فِرْقَةٍ مَسْلُكَهَا وَسَمِّيَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ عَلَى مُؤَسَّسِ طَرِيقَتِهَا ، وَهِيَ I2 فِرْقَةُ

( الْوَأَصْلِيَّةُ ، الْهَدْيِيَّةُ ، النِّزَامِيَّةُ ، الْخِاطِيَّةُ وَالْحَدِيثِيَّةُ ، الْبَشَرِيَّةُ ، الْمَعْمَرِيَّةُ ، الْمُرْدَارِيَّةُ ، الشَّامِيَّةُ ،

الْهَشَامِيَّةُ ، الْجَاهِظِيَّةُ ، الْخِاطِيَّةُ وَالْكَعْبِيَّةُ ، الْجَبَائِيَّةُ وَالْبَهْشَمِيَّةُ ) .

فَصَلِّ الْمُعْتَزِلَةَ بَيْنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ فِي الْقُرْآنِ وَأَوَّلُو الْمُتَشَابِهِ مِنْهَا فِي نَظَرِهِمْ تَأْوِيلًا مُخَالَفًا لِجُمْلَةِ مَنْ  
 الْفَرْقِ الْكَلَامِيَّةِ الْأُخْرَى ، ذَلِكَ أَنَّ الْفَيْصَلَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْعَقْلُ ، إِذْ يَقُولُ الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ فِي كِتَابِهِ  
 “مُتَشَابِهَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ” : ” فَإِذَا كَانَ الْمُحْكَمُ وَالْمُتَشَابِهُ وَارِدَيْنِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ فَلَا بُدَّ مِنْ بِنَائِهِمَا  
 عَلَى أدلة العقول... . فاقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول” .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفَيْيَامَةِ ، الْآيَةِ 23 : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ذَهَبَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمِنْهُمْ  
 ابْنُ كَثِيرٍ وَالشَّيْخَةُ وَمِنْهُمْ الْإِمَامُ الطُّوسِيّ إِلَى قَوْلِ بَرُوَيْةَ اللَّهُ عَيَانًا مِثْلَ نَظَرِهِمْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَمَا هُوَ  
 وَاضِحٌ فِي حَرْفِيَةِ الْآيَةِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ - الْمُؤْمِنُونَ - لَنْ يُدْرِكُوا اللَّهَ بَصَرًا ، نَظْرًا لِعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِيَدِ  
 أَنَّ اللَّهَ يَدْرِكُهُمْ وَهُوَ مُبِينٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ . أَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ  
 فَأَوَّلُو الْآيَةَ تَأْوِيلًا ، يُنْفُونَ بِهِ إِدْرَاكَ اللَّهِ وَيَعَزِّزُونَ مَبْدَأَ التَّنْزِيهِ وَالتَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ .

أَمَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الْآيَةِ الثَّلَاثَةَ مِنْ سُورَةِ الزُّخْرُفِ ، ذَهَبَ  
 أَهْلُ السُّنَّةِ إِلَى الْقَوْلِ بِجَعْلِ الْقُرْآنِ أَيْ وَصْفُهُ أَوْ تَسْمِيَّتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَمِنْهَا إِنْتِزَالُهُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ ، أَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ  
 وَالَّذِينَ لَا يُشْرِكُونَ فِي قَدَمِ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَقُولُونَ بِحُدُوثِ الْقُرْآنِ ، جَعَلُوا فَعَلَ “جَعَلَ” مُرَادِفًا لِفِعْلِ “خَلَقَ”  
 أَيُّ أَحَدَتْ ، كَمَا هُوَ مُبِينٌ فِي الْكُشَافِ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْوِيلِ وَعُيُونِ الْأَقَاوِيلِ فِي وُجُوهِ التَّأْوِيلِ  
 لِلزَّمْخَشَرِيِّ : ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ بِمَعْنَى : صَيَّرْنَاهُ مَعْدَى إِلَى مَفْعُولَيْنِ أَوْ بِمَعْنَى : خَلَقْنَاهُ مَعْدَى إِلَى وَاحِدٍ  
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ و ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حَالٌ ، وَلَعَلَّ مُسْتَعَارًا لِمَعْنَى الْإِرَادَةِ  
 لِتَلَاخُظِ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّرْجِيحِ أَيُّ : خَلَقْنَاهُ عَرَبِيًّا غَيْرَ عَجْمِيٍّ إِرَادَةَ أَنْ تَعْلُقَهُ الْعَرَبُ وَلَمَّا يَقُولُوا لَوْلَا  
 فَصَلَّتْ آيَاتُهُ .

وَالْعَلَّةُ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ - حَسَبَ عَبْدِ الْقَادِرِ بوعرفة- أَنَّ الْمُعْتَزَلَةَ لَوْ لَمْ يَقُولُوا بِخَلْقِ الْقُرْآنِ لَهَدَمُوا مَبْدَأُ مِنْ مَبَادِيِّ الْإِعْتِزَالِ الْقَائِمَةُ عَلَى فِكْرِهِ أَنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ لَهُ كَلَامٌ فَإِنَّهُ يُشْتَرَطُ التَّسْلِيمَ بِالْمَكَانِ مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى الْقَوْلِ وَالتَّسْلِيمِ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ أَوْلَى ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ مَعْنَاهُ مُشَارَكَةَ الْكَلَامِ لِلَّهِ فِي الْخُلُودِ ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّ اللَّهِ . أَنَّ الْإِخْتِكَامَ إِلَى اللُّغَةِ وَمَلَكََةِ اللِّسَانِ يَفْدَانِ الطَّرْحَ الْإِعْتِزَالِيَّ ، إِلَّا أَنَّ الْمُعْتَزَلَةَ لَمْ يَجِدُوا الْمَخْرَجَ إِلَّا فِي التَّأْوِيلِ الَّذِي سَمَحَ بِإِعْطَاءِ الْآيَةِ أَوْجُهَ عَقْلِيَّةٍ مُمَكِّنَةً . هَكَذَا نَجِدُ مِمَّا لِاحْمَالٍ فِيهِ أَنَّ التَّأْوِيلَ كَانَ عِنْدَ الْفَرَقِ الْكَلَامِيَّةِ ، خَاصَّةً الْمَعْتَزَلَةَ ، سِلَاحًا عَقْلِيًّا لِعَزِيزِ أَصُولِهِمْ وَالتَّشَبُّتِ بِهَا ، وَإِعْطَائِهَا مَبْدَأَ الْمَشْرُوعِيَّةِ وَالْمَقْبُولِيَّةِ مِنْ طَرَفِ الْمُسْلِمِينَ .

### الْأَشْعَرِيَّةُ

تَعَدَّ الْأَشْعَرِيَّةُ مِنَ الْفَرَقِ الْكَلَامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْمُعْتَزَلَةِ ، كَمَا أَنَّهَا تَأَسَّسَتْ عَلَى يَدِ مُعْتَزِلِيٍّ أَعْلَنَ إِذْ شِئْنَا الْقَوْلَ " رتداده" مِنَ الْإِعْتِزَالِ . وَالْحَدِيثُ هُنَا عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ - يُعُودُ نِسْبَةً إِلَى الصَّحَابِيِّ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَشْهُورِ بِوَأَقِعَةِ التَّحْكِيمِ - الَّذِي تَلَمَّذَ عَلَى يَدِ كِبَارِ الْمُعْتَزِلِينَ فِي عَصْرِهِ وَهُوَ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْجُبَّائِيُّ الَّذِي تَلَمَّذَ بِدَوْرِهِ لَدَى وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبُو الْهَدَيْلِ الْعَلَّافِ مُؤَسَّسٍ وَمَقَرَّرٍ طَرِيقَةَ الْمُعْتَزَلَةِ وَشَيْخَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ .

يُعُودُ السَّبَبُ فِي تَخَلِّيِ الْأَشْعَرِيِّ عَنْ مَجْلِسِ أَسَاتِذِهِ وَتَأْيِيدِهِ لِلْكَلاِبِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ الْكَلَابِيِّ ، حَسَبَ رِوَايَةِ الشَّهْرِسْتَانِيِّ إِلَى مُنَاطَرَةِ أَجْرَاهَا الْأَشْعَرِيِّ وَأَسَاتِذِهِ فِي مَسَائِلَ مِنْ مَسَائِلِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلِحِ يُقْصَدُ قِصَّةَ الصَّبِيِّ وَالْكَافِرِ فَتَخَاصِمَا ، وَأُنْحَازَ الْأَشْعَرِيُّ إِلَى هَذِهِ الطَّائِفَةِ يُقْصَدُ الْكَلاِبِيَّةَ فَائِدَ مَقَالَتِهِمْ بِمَنَاجِحِ كَلَامِيَّةٍ . شَهِدَتْ لِحُظَّةِ إِعْلَانِهِ الْإِنْفِصَالِ عَنِ الْمُعْتَزَلَةِ ، مَسْرُوحِيَّةِ أُسْطُورِيَّةِ مُشْكَوكٍ فِيهَا

كَمَا وَصَفَهَا الدُّكُورُ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الجَابِرِي - وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ الرُّوَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ عَنْهَا ، وَأَشْهُرُهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ النَّدِيمِ فِي أَنَّهُ : ( كَانَ مَعْرُوبًا ثُمَّ تَابَ مِنْ القَوْلِ بِالْعَدْلِ وَخَلَقَ القُرْآنَ فِي المَسْجِدِ الجَامِعِ بالبَصْرَةِ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ : رَقِي كُرْسِيًّا وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : ” أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، كُنْتُ أَقُولُ بِخَلْقِ القُرْآنِ وَإِنَّ اللّهَ لَا يَرَى بِالأَبْصَارِ وَإِنِ أَعْمَالُ البَشَرِ أَنَا أَفْعَلُهَا . وَأَنَا تَائِبٌ مَقْلَعٌ ، مُعْتَقِدٌ لِلرَّدِّ عَلَى المَعْتَزَلَةِ ” . فَخَرَجَ بِفَضَائِحِهِمْ وَمَعَابِيَهُمْ ) وَاخْتَلَفَتِ الرُّوَايَاتُ وَتَشَعَّبَتْ كَثِيرًا وَكَثُرَ التَّدْقِيقُ عَلَى أَقْوَالِ وَأَعْمَالِ الأَشْعَرِيِّ ، حِينَهَا ، كَانَ الجَامِعُ يَبْنِيهِمْ ، تَكْفِيرِ المَعْتَزَلَةِ بِشَهَادَةِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِمْ وَمِمَّنْ دَافَعَ عَنْهُمْ قَرَابَةُ 40 سَنَةً .

أَنَّ انفصالَ أبو الحسنِ الأشعريِّ عن الاعتزالِ وتأسيسِ مذهبه الأشعريِّ ، لا ينبغي تبنيه مجموعِهِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ المَعْتَزَلَةِ ومبادئها ، مِنْهَا تَقْدِيمُ العَقْلِ عَلَى نَصِّ الآيَةِ إِذَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ كَمَا فِي قَوْلِ الرَّازِي ضَمِنَ مَفَاتِيحَ الغَيْبِ التَّفْسِيرِ الكَبِيرِ : (بل القانون أَنَّهُ يَجِبُ حَمْلُ كُلِّ لَفْظٍ وَرَدَ فِي القُرْآنِ عَلَى حَقِيقَتِهِ إِلا إِذَا قَامَتْ دَلَالَةٌ عَقْلِيَّةٌ قَطْعِيَّةٌ تُوجِبُ الانْصِرَافَ عَنْهُ ، وَلَيْتَ مِنْ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا لَمْ يَخْضُ فِيهِ) . إِلا أَنَّهُ أَبُو الحَسَنِ وَاتَّبَعَهُ مِنْ الأَشَاعِرَةِ وَحَتَّى المَاتَرِيديَّةِ ، اخْتَلَفُوا مَعَ المَعْتَزَلَةِ فِي كَثْرٍ مِنَ الأَصُولِ بَلْ وَإِنْ مَهْمَتُهُمُ الأُولَى كَانَتْ التَّصَدِّي إِلى هَذَا الفِكرِ ومُحَارَبَتِهِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ .

مَا يَهْمُنَا فِي هَذَا الحُورِ هُوَ كَيْفِيَّةُ تَأْوِيلِ الأَشَاعِرَةِ لِنُصُوصِ القُرْآنِ مِنْ أَجْلِ تَعزِيزِ مُعْتَقَدَاتِهِمُ وَالتِّي بُنِيَتْ بِالتَّوَازِي بَيْنَ العَقْلِ وَالتَّقْلِ وَبِالتَّالِي وَسَطًا بَيْنَ المَعْتَزَلَةِ وَبَيْنَ طَائِفَةِ التَّفْسِيرِ الظَّاهِرِيِّ وَالحَرْفِيِّ للقُرْآنِ فِيمَا أَنَّ الأَشَاعِرَةَ وَالمَاتَرِيديَّةَ أُولُو القُرْآنِ وَرَفَضُوا أَخَذَ بَعْضُ آيَاتِهِ عَلَى حَرْفِيَّتِهَا ، وَهَذَا لَبَّ الخِلَافِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّلَفِيَّةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُمَا أَقْرَبُ إِلى السَّلَفِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَكْسَ ذَلِكَ وَيُرْغَمُ أَنَّهُمْ خُلَفَاءُ القَدْرِيَّةِ (المَعْتَزَلَةِ) وَبِالتَّالِي هُمْ فَرْقَةٌ ضَالَّةٌ لَيْسَتْ “نَاجِيَّةٌ” وَمَهْمُومُ النِّجَاةِ هُنَا يُقْصَدُ بِهِ طَرِيقُ الحَقِّ الَّتِي

أَوْصَى بِهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهِيَ مِنْ نَصِيبِ فِرْقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَيْنِ أَكْثَرِ مِنْ 70 فِرْقَةٍ ...

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ ( الْآيَةُ 255 مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ) : ﴿ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ وَقَدْ أَوْلَهَا الْإِمَامُ الْأَشْعَرِيُّ فَخَرُ الدِّينِ الرَّازِي فِي كِتَابِهِ التَّفْسِيرِيِّ "مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ / التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ" كَالْتَّالِي : ( فَقَالَ " وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " فَالْمُرَادُ مِنْهُ الْعُلُوُّ وَالْعِظَمَةُ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَا يُنْسَبُ غَيْرُهُ فِي صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ وَلَا فِي نَعْتٍ مِنَ النُّعُوتِ ، فَقَالَ " وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " إِشَارَةً إِلَى مَا بَدَأَ بِهِ فِي الْآيَةِ مِنْ كَوْنِهِ قِيَوْمًا بِمَعْنَى قَائِمًا بِذَاتِهِ مُقَوِّمًا لِعَيْبِهِ . ) .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ الْآيَةُ 5 مِنْ سُورَةِ طه ، أَمَا الْأَشَاعِرَةُ وَبِتَأْوِيلِ أَحَدِ أَهَمِّ أَعْلَامِهَا - فَخَرُ الدِّينِ الرَّازِي - ، نَجِدُ أَنَّ الْإِسْتِوَاءَ عِنْدَهُمْ يُحْمَلُ ذَلَالَةً أُخْرَى غَيْرَ الْإِسْتِقْرَارِ الْمَكَانِيِّ وَهُوَ بَدُونِ تَكْيِيفٍ ، إِذْ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ : ( فَأَمَّا أَنْ تَعْمَلَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّلِيلَيْنِ ، وَأَمَّا إِنْ نَتْرَكُهُمَا مَعًا ، وَأَمَّا إِنْ نَرَجَحُ التَّقْلَ عَلَى الْعَقْلِ ، وَأَمَّا إِنْ نَرَجَحُ الْعَقْلَ وَنُؤَوِّلُ التَّقْلَ . وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدِ مُنْزَهًا عَنِ الْمَكَانِ وَحَاصِلًا فِي الْمَكَانِ وَهُوَ مُحَالٌ ، وَالثَّانِي أَيْضًا مُحَالٌ لِأَنَّهُ يَلْزِمُ رَفْعَ التَّقْيِضَيْنِ مَعًا وَهُوَ بَاطِلٌ ، وَالثَّلَاثُ بَاطِلٌ لِأَنَّ الْعَقْلَ أَصْلَ التَّقْلِ فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَثْبُتْ بِالذَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَجُودِ الصَّانِعِ وَعَمَلِهِ وَقُدْرَتِهِ وَبَعَثِهِ لِلرُّسُلِ لَمْ يَثْبُتِ التَّقْلُ ، فَالْقَدْحُ فِي الْعَقْلِ يَنْتَضِي الْقَدْحُ فِي الْعَقْلِ وَالتَّقْلِ مَعًا . فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَقْطَعَ بِصِحَّةِ الْعَقْلِ وَنَشْتَغِلَ بِتَأْوِيلِ التَّقْلِ وَهَذَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ فِي الْمُقْصُودِ إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَتَقُولُ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُرَادُ مِنَ الْإِسْتِوَاءِ الْإِسْتِیْلَاءُ ) .

هَكَذَا إِذَا تَبَيَّنَ لَنَا مِنْ خِلَالِ رِصْدِ بَعْضِ مَظَاهِرِ التَّأْوِيلِ الدِّينِيِّ ، أَنَّ الْأَيْدِيُولُوجِيَّةَ الْعَقَائِدِيَّةَ الَّتِي يَتَأَثَّرُ بِهَا الْمُؤَوَّلُ يَرَى الْفُرْقَانَ بَعِيُونَهَا ، هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يَكْتَسِبُ قَدْسِيَّةً لِأَفْكَارِهِ وَمَبَادِيهِ .

## الْخُلَاصَة

بعد رصدنا لإضاءة طائفية حول مدى تأثير الأيديولوجية في رؤية المؤول بعض النظر عن باقي آيات التأويل ، نقر كما يقر كل متلقي لهذا المقال ، أن الفرق الكلامية برصد بعضها في هذا الصدد ( الشيعة ، المعتزلة ، الأشاعرة ) ، بحث عن أسئلة غيبية ووجودية ، بغية امتلاك الحقيقة ومعرفتها ، فافتتحت بمسائل ونفت أخرى ، واستدلت على نفيها أو ثبوتها بآيات القرآن الكريم . بل حرصت على نقل فكرها واعتقادها لباقي الناس عن طريق السيطرة الثقافية الأيديولوجية ، لأجل كسب جمهور أكبر وبالتالي التقرب من السلطة المادية أو الحكم .

ورغم إن علم الكلام عموماً حسب محمد عابد الجابري كان كلاماً في السياسة بمفاهيم دينية ، وأنه ظل يشكل أحد الأغصان الأيديولوجية للدعاية وكسب الأنصار وتنظيم "الانقلابات" والثورات في الدول المجاورة والمنافسة ، بل وحتى القضاء على باقي الفرق المنافسة وإخباط سعيها في الاستيلاء على السلطة . إلا أنه علم الكلام محطة أساسية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ومهد التفكير العربي ، بالتالي وجب النظر إلى هذا التأويل من منظورين حسب حسام أبو حامد في مقالته " إشكالية التأويل والعلاقة بين المعرفي والأيديولوجي " - ، الأول معرفي ، حيث يبرز التأويل هنا على أنه آية إنتاج معرفي راحت تضبط منهجياً ، والثاني أيديولوجي من حيث إن نتائج التأويل كعمل معرفي أفضت إلى تصور للعالم . وهذان المستويان ، المعرفي والأيديولوجي يؤسسان لأن يصبح التأويل أيضاً موقفاً أنطولوجياً وجودياً . وإذا كان التأويل قد أفضى إلى تعددية مرجعية إلا أنها بقيت ضمن المرجعية الإسلامية

الأساسية ، أي القرآن الكريم بصفته المصدر الأول للمفاهيم الإسلامية والخطاب الأول المتصل بالعقل والعلم .

وأخيراً ، أن المتصفح في تأويلات الفرق الكلامية ، متخصصاً كان أو لم يكن - مثلنا - يجد أن الإنسان العربي اختلف في جملة من المسائل غير المحددة (غيبية) ، والفصل الوحيد فيها بعد التص الشرعي ، هو عنان العقل وسبل خلقه لدلالة ، ثلاث المنطق وتروي عطشه وتعطشه للمعرفة . ولا يشكل هذا الاختلاف التابع عن معتقد أيديولوجي ، خطراً على ديننا أو ضعفاً في الاستدلال ، بل هو بحق تجسيد لفكر وفلسفة عربيتين ورحمة من تشابهه قاتل وتقليد أعمى قد يصيب الأمة العربية حتى يصبح المسلم/ المسلمة نسخة طبق الأصل من إخوة / أختها . فتقبل الاختلاف هاهنا واجب ، لأن العقل البشري الجمعي مهما تواضع على منطق معين إلا ووجدنا اختلافاً وجدلاً كبيراً بين كل جماعة (ثقافية/ اجتماعية) وأخرى ، وهو ما حصل بين المتكلمين ، فالقارئ يتفق مرة مع فرقة ويختلف تارة معها ، ويميل تارة لمذهب ، حتى يجد أنه مال مرة أخرى لمذهب آخر ، وهو السبب في أن تكفير فرقة وتقديس أخرى ، أمر يضر بالدين أكثر مما يفيدُه ، ويضل الجمهور أكثر مما يصحح مساره .

ولا يسعنا إلا أن نتلذذ أولاً ببراعة العقل الديني العربي في صناعة المعنى والاستدلال عليه ، وثانياً التفكير في مدى حرص الإنسان على معرفة الوجود ومسائله والبحث في حقيقة الله تعالى حُباً في نصره دينه تعالى ، فمهما اختلف المتكلمون إلا أنهم ناظروا وحاربوا بقلمهم ، باقي الديانات وكلهم تحت لواء » لا إله إلا الله محمد رسول الله » .



هَذَا وَقَدْ عَاجَلْنَا قَضِيَّةَ التَّأْوِيلِ مُفَضَّلًا فِي كِتَابِنَا الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَفَلَسَفَةَ الْقُرْآنِ وَقُلْنَا إِنَّ التَّأْوِيلَ أَمْرٌ مُرْتَبِطٌ  
بِالْغَيْبِ الْمَعْرِفِيِّ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَعَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ آمَنَّا بِهِ وَكَفَى وَعَلَى مَنْ يَدْعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالرَّاسِخُونَ  
بِالْعِلْمِ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَنَا لَا إِنْ يَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَرْتَبَةِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَيَقُولُوا نَحْنُ أَيْضًا نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ .

## ثَانِيًا

### الْفَرْقُ الْبَاطِنِيَّةُ الصُّوفِيَّةُ وَالشَّيْبَعَةُ

لَقَدْ رَأَيْنَا مَا فَعَلَتْهُ الْفَرْقُ الْكَلَامِيَّةُ وَجَمَاعَاتُ التَّأْوِيلِ مِنْ مَحَاوِلَاتٍ عَقِيمَةٍ لِكَسْرِ جِدَارِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي  
يَتَحَصَّنُ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَرَأَيْنَا أَنَّ الْمَقْصِدَ الْوَحِيدَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الصَّرَاعَاتِ وَالْجِدَالَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ هِيَ  
خِدْمَةُ أَفْكَارِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ السِّيَاسِيَّةِ وَهِيَ عَمَلِيًّا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصْنَعَ أَيَّ تَأْثِيرٍ عَلَى الْمُسْتَوَى الْإِسْلَامِيِّ  
وَقَدْ لِحَقَّ بِالْفِئَةِ الْأُولَى جَمَاعَاتُ أُخْرَى إِخْرَعَتْ لِنَفْسِهَا فُلْسَفَةً وَظَاهِرُهُ جَدِيدَةٌ بَلْ وَأَسْلُوبٌ جَدِيدٌ  
مُرَاوِعٌ لِلنَّبِيلِ مِنَ التَّصَالُفِ الْقُرْآنِيِّ وَمُحَاوَلَةٌ هَدْمُهُ وَأَعَادَهُ تَأْوِيلُهُ وَفَقِ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَهَؤُلَاءِ هُمْ  
جَمَاعَاتُ الْبَاطِنِيَّةِ سِوَاءِ أَكُنُوا سُنَّةً أَمْ شَيْعَةً وَسَنَرِيَّ كَيْفَ قَامَتْ فُلْسَفَتُهُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ  
الْهَدْمُ وَالتَّخْرِيبُ الْفِكْرِيُّ وَالْعَقَائِدِيُّ .

مَا هِيَ الصَّلَاتُ بَيْنَ الشَّيْبَعَةِ وَالصُّوفِيَّةِ ، وَهُمَا التِّيَارَانِ الْبَاطِنِيَانِ دَاخِلُ الْإِسْلَامِ ؟

خِلَالِ حَيَاةِ الْأُمَّةِ الشَّيْعَةِ النَّارِيحِيَّةِ ، حَتَّى بَدَايَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ تَقْرِيْبًا ، كَانَتِ الشَّيْعَةُ وَالصُّوْفِيَّةُ مُتَقَارِبَيْنِ جَدًّا ؛ كَانَتِ تَعَالِيمُ الْأُمَّةِ ، الَّتِي تَتَضَمَّنُ عُنْصُرًا رُوحَانِيًّا قَوِيًّا ، تَسْتَقْطِبُ الْمُتَصَوِّفِينَ ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنَ الشُّيُوخِ الصُّوْفِيِّينَ الْعُظَمَاءِ ، بِحَسَبِ بَعْضِ الْمَصَادِرِ ، يَعاشِرُونَ الْأُمَّةَ بِالْفِعْلِ .

### التَّشَابُهُ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالتَّشْيَعِ

تَقُولُ الْبَاحِثَةُ بَرِيحَتُ بُوْدُونِ ، أَسَاتِذُهُ فَلَسَفَةٌ ، فِي مَرْسِيْلِيَا ، وَمُؤَلَّفَةٌ "طَرُقُ الْخُلُودِ فِي الْيُونَانَ الْقَدِيْمَةِ" ، رَمْزِيَّةُ بَرُوفَانَسِ ، رَمْزِيَّةُ الشَّجَرَةِ ، رَمْزِيَّةُ الصَّلِيْبِ " إِنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَفَاهِيْمِ الصُّوْفِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ مَا يُؤَارِثُهَا فِي التَّشْيَعِ :

( اسْتَمْرَارُ الدَّفْقِ النَّبَوِيِّ فِي سَلَالَةِ "أَحْبَابِ اللَّهِ الْقَدِيْسِيْنَ"؛ حَيْثُ إِنَّ مَفْهُومَ الْوَلَايَةِ قَرِيْبٌ جَدًّا مِنْ مَفْهُومِ وِلَايَةِ الشَّيْعَةِ؛ إِذْ يَشِيْرُ إِلَى التَّوَلِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْأُمَّةِ .

مَفْهُومُ الْقَطْبِ الْمِمَاتِلِ لِلْإِنْسَانِ-إِلَهِ، أَوْ الْإِمَامِ الْكُوْنِيِّ فِي الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ .

سَلْسَلَةُ النُّقْلِ التَّلْقِيْنِيِّ الْمَشَابِهَةِ لِنُقْلِ النُّوْرِ فِي سَلَالَةِ الْأُمَّةِ الشَّيْعَةِ، . . . إلخ .

مَفْهُومُ وِلَايَةِ الشَّيْعَةِ يَشِيْرُ إِلَى التَّوَلِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْأُمَّةِ )

بَعْدَ احْتِجَابِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ لِلشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةِ، فِي النُّصْفِ الثَّانِي مِنْ الْقَرْنِ التَّاسِعِ، تَطَوَّرَ هَذَا

الْفَرْعُ مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى شَكْلِ أَكْثَرِ قَانُونِيَّةٍ وَتَسْيِيْسِيَّةٍ؛ حَيْثُ انْدَجَجَتِ الْعُنْصُرُ الْبَاطِنِيَّةُ لِهَذَا التَّيَّارِ فِي

الصُّوْفِيَّةِ، وَفِي الْإِسْمَاعِيْلِيَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّهُ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ، انْعَكَسَتِ الْأَدْوَارُ، فَاصْبَحَتِ الشَّيْعَةُ هُمْ أَتْبَاعُ

الصُّوْفِيَّةِ، خَاصَّةً أَتْبَاعُ مَدْرَسَةِ مُعَلِّمِ الثَّلَاثِ عَشَرَ مَحْيِي الدِّيْنِ ابْنِ عَرَبِي .

من المرجح جداً أن تكون الملابس الصوفية قد ارتبطت بالفعل بالروحانية في العصور ما قبل الإسلامية

ويُعدّ حيدر أموي، وهو عالم من الشيعة الإثني عشرية، اشتهر في القرن الرابع عشر بتفسير أعمال ابن

عربي، واحداً من أبرز الشخصيات في هذا التقارب بين الصوفية والشيعة.

عملياً؛ جميع المراتب الصوفية، التي بدأت تتشكل بعد القرن الثاني عشر، تُرجع سلاسل تلقينها الروحي

إلى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من قبل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هذا الأخير كان هو

أيضاً مصدر المعرفة التلقينية في المذهب الشيعي.

ويُمكن أيضاً ملاحظة تقارب التيارين الباطنيين في تشابه بعض الممارسات الروحية، مثل "الرؤية

بالقلب"

أشتهر حيدر أموي (عالم من الشيعة) بتفسير أعمال ابن عربي .

التصوّف : الاتّحاد مع الله

يُشير التّصوّف إلى جهدٍ استقراء الوحي القرآني ، والقطيعة مع الدّين القانوني (الشريعة) البحت ،

والرغبة في استعادة التجربة الحميمية التي كانت للنبي ، عليه السّلام ، في ليلة المعراج : الصُّعود لتلقي

تعاليم الله حول الصّلوات الخمس .

الهدف الأسمى للصوفي ؛ هو ممّاثله إرادته بإرادة الله ، وأن يكون حيزاً للتعبير الإلهي ؛ جسداً وروحاً ،

أتمّها طريقه زهدية ؛ حيث يقود فيها الكفاح ضدّ المشاعر بفضل القلب إلى التّشوّء ، من خلال اتّحاد مع

الله ، مبني على الحبّ المُبادل الذي يذكّره القرآن .

## مِنَ التَّقَدُّ إِلَى الاضْطِهَادِ

نُقْطَةُ انْطِلاقِ شَجَرَةِ النَّسَبِ لِمُعْظَمِ التَّجْمَعَاتِ الصُّوفِيَّةِ ، تَمَثَّلُ فِي أَحَدِ الْأَئِمَّةِ ؛ وَقَدْ واجهتِ الصُّوفِيَّةُ عَلَى مَرِّ الْقُرُونِ عِدداً مِنَ الصُّعُوبَاتِ مِنْ جَانِبِ الْإِسْلَامِ الرَّسْمِيِّ ، بَدَأَ مِنْ انتقاداتِ ساجرةِ وَاتِّهَا بِالاضْطِهَادِ .

ظَاهِرُهُ الصُّوفِيَّةُ لَمْ تَظْهَرْ تَمَاماً بِذَاتِ الْكَيْفِيَّةِ ؛ حَيْثُ اخْتَلَفَتْ تَعْبِيرَاتُهَا تَبَعاً لِلْمَكَانِ الَّذِي عَاشَتْ فِيهِ ، فِي إِيرانِ الشَّيعِيَّةِ ، أَوْ فِي الْإِسْلَامِ السُّنِّيِّ .

عَدِيداً عَبَّرَ الْقُرُونُ ، الْغَالِبِيَّةُ الْعُظْمَى مِنَ الصُّوفِيِّينَ يَعْيشُونَ فِي الْعَالَمِ السُّنِّيِّ ، وَهُوَ مَا يَبْدُو مُفَارَقَةً ؛ نَظراً إِلَى قُرْبِ الرُّؤْيَةِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الشَّيْعَةِ ، وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ ؛ فَنَفي الْعَالَمِ الشَّيعِيِّ ، غَالِباً مَا يَكُونُ هُنَاكَ تَحْفَظُ إِزَاءَ التَّصَوُّفِ ، أَقْرَبُ إِلَى التَّحْفِظِ وَالرَّفْضِ وَالْإِنْكَارِ .

مَا هِيَ الصَّلَاتُ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَالسُّنَّةِ وَالتَّصَوُّفِ ؟

أَنَّهُ مَوْضُوعٌ بَالِغُ التَّعْقِيدِ ؛ كَانَ هُنَاكَ صُوفِيَّوْنَ مِنَ الشَّيْعَةِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ ، لَكِنْ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ عَبَّرُوا عَنْ شَجَبٍ شَدِيدٍ تُجَاهَ الصُّوفِيِّينَ .

الصُّوفِيَّةُ لَمْ تَظْهَرْ بِذَاتِ الْكَيْفِيَّةِ حَيْثُ اخْتَلَفَتْ تَبَعاً لِلْمَكَانِ الَّذِي عَاشَتْ فِيهِ فِي إِيرانِ الشَّيعِيَّةِ أَوْ فِي الْإِسْلَامِ السُّنِّيِّ فِي الْوَأَقِعِ ؛ مُنْظَمَةُ الْأَخْوِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ هِيَ الْمَعْرُضَةُ أَكْثَرَ لِلانْتِقَادِ مِنْ قِبَلِ الشَّيْعَةِ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ : الرَّهْبَنَةُ ، وَالنِّيَابِ الرَّهْبَانِيَّةِ ، وَدَوْرُ الشَّيْخِ الَّذِي يَمِيلُ إِلَى أَنْ يَحِلَّ مَحَلَّ الْإِمَامِ ، خَاصَّةً مَحَلَّ الْإِمَامِ الْخَفِيِّ ، الْمَعْلَمِ وَالْمُرْشِدِ الدَّاخِلِيِّ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَرْتَبِيٍّ .

تَعْتَدُ الشَّيْعَةُ أَنَّهَا ، فِي جَوْهَرِهَا ، الطَّرِيقَ الرُّوحِيَّ ، والمسارَ التَّلَقِينِيَّ بِامْتِيَاذٍ ؛ فَمَنْ خِلَالَ الإِخْلَاصِ لِلرَّائِةِ القُدَيْسِيْنَ ، يُبْدِي الشَّيْعِيَّ اسْتِعْدَادَهُ لَتَلْقَى هَذَا التَّلَقِينَ مِنْهُمْ ، وَهِيَ الْمَسَارَةُ (التَّلَقِينَ) الَّتِي تَرْبِطُهُ ، بِوَسِطَةِ صِلَةِ شَخْصِيَّةٍ مُبَاشِرَةٍ بِالعَالَمِ الرُّوحِيِّ ، فِي بُعْدِ رَأْسِي ، دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى الدُّخُولِ رَسْمِيًّا فِي جَمَاعَةٍ مُنظَّمَةٍ .

اسْتِبْطَانُ مُحْوَىِ الوَحْيِ القُرْآنِيِّ : التَّصَوُّفُ ظَاهِرُهُ رُوحِيَّةٌ ذَاتُ أَهْمِيَّةٍ قُصْوَى ؛ إِنَّهُ فِي الأَسَاسِ إِثْرَاءٌ لِلرَّسَالَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْجُهْدُ مِنْ أَجْلِ إِعَادَةِ تَجْسِيدِ الطَّرَائِقِ تَجْسِيدًا شَخْصِيًّا ، مِنْ خِلَالِ اسْتِبْطَانِ مُحْوَىِ الوَحْيِ القُرْآنِيِّ ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسَهُ مَعَ التَّقْيِدِ الكَامِلِ بالقَانُونِ الدِّينِيِّ ، وَيُظَلُّ إِفْتِرَاضَ النَّشْوَةِ الَّتِي تَلَقَّنُ فِيهَا النَّبِيُّ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، الأَسْرَارَ الإِلَهِيَّةَ ، تَجْرِبَةً مِثَالِيَّةً تَسْعَى الصُّوْقِيَّةُ إِلَى الوُصُولِ إِلَيْهَا وَإِدْرَاكِهَا .

التَّصَوُّفُ اِحْتِجَاجٌ ضِدَّ آيَةِ نَزْعِهِ لَتَقْلِيصِ الإِسْلَامِ إِلَى الدِّينِ القَانُونِيِّ والحَرْفِيِّ ، وَقَدْ تَوَصَّلَ إِلَى تَطْوِيرِ تَقْنِيَّةٍ زَهْدٍ رُوحِيٍّ تَسْتَدْعِي دَرَجَاتِهِ وتَقْدَمُهُ وَأَهْدَافَهُ ، مِيثَافِيزِيْقًا كَامِلَةً تَسْمَى "العِرْفَانُ" ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ الحَقَائِقِ الحَقِيقَةِ ، الغِنُوصِ .

### مَفَاهِيمُ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ

لِلإِسْلَامِ جَانِبَانِ : جَانِبٌ وَاضِحٌ بَدِيهِيٌّ خَارِجِيٌّ ظَاهِرٌ ، وَجَانِبٌ مَخْفِيٌّ غَامِضٌ جَوَانِيٌّ بَاطِنِيٌّ . مُصْطَلَحُ الظَّاهِرِ ، يَسْتَحْضِرُ مَعْنَى "خَلْفٍ ، وَرَاءَ ، ظَهْرٍ" ؛ إِنْ مَا هُوَ وَاضِحٌ فِي الوَاقِعِ هُوَ فَقَطُّ "ظَهْرٌ" الشَّيْءِ ، وَنَحْنُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَعْرِفَ الشَّيْءَ حَقًّا حِينَ نَرَاهُ مِنَ الخَلْفِ . فِي المُقَابِلِ ؛ البَاطِنُ يَسْتَحْضِرُ

مَعْنَى "الْأَمَامِ ، الْجَبْهَةِ ، الْمُرْكَزِ ، الْوَسْطِ" ، إِنَّ مَا هُوَ مَخْفِيٌّ هُوَ فِي الْوَاقِعِ "وَأَجْهَةٌ" الشَّيْءِ ؛ فَحَتَّى تَتِمَّكَنْ مِنْ مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مَا ، عَلَيْكَ اكْتِشَافُ وَجْهِهِ الَّذِي يَظَلُّ مَخْفِيًّا .

الظَّاهِرُ هُوَ فِضَاءُ الشَّرِيعَةِ ، الْقَانُونِ الدِّينِيِّ ، الدِّينِ الْبَدِيهِيِّ الْوَاضِحِ ، هَذَا الْمُصْطَلَحُ الْعَرَبِيُّ يَسْتَحْضِرُ صُورَةَ طَرِيقٍ عَظِيمٍ ، شَرِيانٍ وَاسِعٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَضُمَّ عِدداً كَبِيراً مِنَ النَّاسِ ، عَلَى أَغْلَبِيَّةٍ ، الْقَانُونِ (الشَّرِيعَةِ) هُوَ مَجَالُ الزَّمَامَاتِ الْعِبَادَةِ ، مَجَالٌ "مَا يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ" ، مَجَالٌ "الْوَاجِبُ" .

أَمَّا الْبَاطِنُ ، وَالْمَسَارُ الَّذِي يُمَيِّزُهُ ، فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهُمَا إِلَى ثَلَاثِ مَرَاجِلَ .

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى : الطَّرِيقَةُ

عَلَى عَكْسِ الشَّرِيعَةِ ؛ الطَّرِيقُ الْكَبِيرُ وَالْوَاسِعُ ، يُوجِي بِمَسَارِ ضَيِّقٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِلَّا قَلَّةٌ مِنَ النَّاسِ ، يُمَكِّنُ تَعْرِيفَ هَذِهِ الْخُطْوَةِ الْأُولَى عَلَى أَنَّهَا : "مَجَالُ كَيْفِيَّةِ الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ الْقِيَامُ بِهِ" .

الطَّرِيقَةُ لَفْظٌ عَرَبِيٌّ يَدُلُّ عَلَى "الدَّرْبِ ، الطَّرِيقِ ، الْمَسَارِ" ، وَقَدْ أَخَذَتْ مَعْنَيْنِ اثْنَيْنِ مُتَّالِيَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ :

فِي الْمَعْنَى الْأُولَى : تُحَدِّدُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ طَرِيقَةَ عِلْمِ النَّفْسِ الْأَخْلَاقِيَّ لِتَوْجِيهِهِ كُلِّ اسْتِعْدَادٍ فَرْدِيٍّ ؛ مِنْ خِلَالِ رَسْمِ مَسَارٍ يُنْطَلِقُ مِنَ الرُّوحِ إِلَى اللَّهِ ، وَيُؤَدِّي عَبْرَ مَرَاجِلٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْمُمَارَسَةِ الْحَرْفِيَّةِ لِلْأَمْرِ الْمَوْحَى بِهِ (الشَّرِيعَةِ) إِلَى الْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ - الْحَقِيقَةِ .

فِي مَعْنَاهُ الثَّانِي : يُشِيرُ مُصْطَلِحُ الطَّرِيقَةِ إِلَى مَجْمُوعِ طُقُوسِ التَّدْرِيبِ الرُّوحِيَّةِ الْمُوصَى بِهَا ، لِلْعَيْشِ مَعاً فِي مُخْتَلَفِ التَّجَمُّعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَدْ تَوَسَّعَ الْمَعْنَى فَأَصْبَحَ مُرَادَافاً لِلْأَخْوِيَّةِ ؛ أَيِ لِمَجْتَمَعِ قَائِمٍ عَلَى تَعْلِيمَاتٍ خَاصَّةٍ تَحْتَ سَاطَةِ الْمُعَلِّمِ نَفْسِهِ .

لَا يُوجَدُ فَاضِلٌ ، أَوْ فَجَوَاتٍ بَيْنَ الْمَسَارِ الظَّاهِرِ وَالْمَسَارِ الْمُخْفِيِّ ؛ بَلِ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِاسْتِمْرَارِيَّةِ فِي مَسَارِ الرَّحْلَةِ الدِّينِيَّةِ نَفْسِهِ ، وَتَطَوُّرِ تَدْرِيجِيٍّ فِي حَالَاتِ الْوَعْيِ .

الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ : الْمَعْرِفَةُ وَالْمُعْجَزَةُ تَتَكُونُ الْمَرْحَلَةَ الثَّانِيَّةَ مِنَ الْبَاطِنِ مِنْ مُسْتَوِيَيْنِ : الْمُسْتَوَى الْأَوَّلُ : هُوَ الْمَعْرِفَةُ ؛ حَرْفِيًّا "المعرفة" المنقذة والمحوِّلة ، وَهُنَا يَتَعَلَّمُ الشَّخْصُ مَعْرِفَةَ الْعِلْمِ الرُّوحِيِّ فِي الْمَجَالَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ أَوْ اللَّاهُوتِيَّةِ ، إِنَّهُ مَجَالُ "المعرفة" ؛ حَيْثُ يَبْدَأُ الْمُتَعَلِّمُ فِي تَعَلُّمِ الْعُلُومِ الَّتِي تَقْرِبُهُ مِنْ سَعْيِهِ .

الْمُسْتَوَى الثَّانِي : هُوَ الْكِرَامَةُ "المعجزة" ؛ أَنَّهُ "القوة" الَّتِي تَطَوَّرُ فِي الصُّوفِيِّ حَالَاتٍ مُتَغَيِّرَةٍ مِنَ الْوَعْيِ ، وَفَهْمًا فُورِيًّا لِلتَّوَانِينِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْغُرُضِ مِنَ السَّعْيِ .

الْمَرْحَلَةُ الثَّلَاثَةُ : الْإِدْرَاكُ الْكَامِلُ

الْمَرْحَلَةُ الثَّلَاثَةُ وَالْآخِرَةُ مِنَ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ ؛ هِيَ مَرْحَلَةُ الْإِدْرَاكِ الْكَامِلِ ؛ أَيِ التَّجَرِبَةِ الْحَيَّةِ لِلْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ . هُنَا ، يُصَلِّ الْمَسَافِرُ إِلَى مَجَالِ الْكَائِنِ (الْكَيْنُونَةِ) ؛ إِنَّهَا حَالَةٌ اتِّحَادِ الْأَضْدَادِ ، وَالتَّقَاءِ الْأَضْدَادِ فِي مَعْنَى الْكَائِنِ الْمُطْلَقِ ، أَنَّهُ مَجَالُ الْإِتِّحَادِ وَالْوَحْدَةِ ، وَذَوْبَانِ الْإِنْسَانِ فِي رُوحِ الْإِلَهِ .

ابْنُ عَرَبِيِّ : الْأَفَلَاطُونِي بِامْتِيَازٍ

ابن عربيّ ، الشَّخصِيَّة الصُّوْقِيَّة المرموقة ، يُطلق عَلَيْهِ أحياناً اسم "لسنانيّ الباطنيَّة الإسلاميَّة" ؛ وقد هزّت عقيدته عالم الفكر الإسلاميّ ، ما أثار الكثير من الجدل ، وهيمن عمله على الرُّوحانيَّة الإسلاميَّة منذ القرن الثالث عشر المسيحيّ ، ولم تعرّف الصُّوْقِيَّة أبداً شخصيَّة أقوى وأكثر تعقيداً منه ، أُطلق عَلَيْهِ تلاميذه فيما بعد اسم الأفلاطوني بامتياز (ابن أفلاطون) .

أثر نفوذه في مؤيديَّة وخصومه ، ويمثّل معجمه التقنيّ الشَّكل المستكمل للمفردات اللُّغويَّة في اللُّغة العربيَّة ، وقد تبني المفكرون المسلمون فيما بعد ، سواءً كانوا عرباً أو إيرانيين أو أتراكاً ، مصطلحاته .

ولد ابن عربيّ في مورسيا بإسبانيا عام 1165 ، وبدأ في إشبيلية باكتساب ثقافة إسلاميَّة كلاسيكية ؛ دينيَّة وأدبية تؤكد سيره حياته أنه في سن المراهقة ، كان قد قام بالفعل بجولة في العلوم الإسلاميَّة ؛ كان عمره عشرين عاماً تقريباً عندما سمع دعوة السماء إلى الحياة الحقيقيَّة ، فاستجاب عن طريق انتخاب "الطريق" ، وتجسد تحوله الرُّوحيّ أولاً باعتكافه لمدة تسعة أشهر تحت إشراف معلّم رُوحي .

بعد الانتهاء من مُعتكفه الذي دام تسعة أشهر ، وجه ابن عربيّ حياته ونشاطه نحو تعميق الدراسات الميتافيزيقية والتقليدية ، وزيارة المعلمين الروحيين العظام ، وتأليف أعمال باطنيَّة ، وتكوين أشخاص يطمحون إلى حياة الفكر التقنيّ والروحانية .

شغف ابن عربيّ بالكمال

تميّزت جهود ابن عربيّ بالبحث عن الكمال ، وعن تطوّر مستمرّ نحو الحقيقة والسلام ، كان شغوفاً بمعرفة كلّ درجات التقانيّ في جميع الأديان والمداهب ، عن طريق التواصّل المباشر مع رُوخ مؤسسيها



وَمِنْ عَامِ 1224 حَتَّى وَفَاتِهِ ، عَاشَ فِي دِمَشْقَ ، حَيْثُ دُفِنَ ، وَرَعِمَ اِتِّقَادُ الْعُلَمَاءِ الْاَرْتُوذُكْسِ ، فَقَدْ  
مَارَسَ هُنَاكَ حَيَاةَ حَافِلَةٍ بِالْعَمَلِ وَالتَّعْلِيمِ .

أَشْهُرُ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ عَرَبِيِّ

أَعْمَالُهُ عَدِيدَةٌ لِلْعَايَةِ ؛ فَقَدْ فَهَرَسَهَا أَحَدُ الْبَاحِثِينَ السُّورِيِّينَ ، يُدْعَى عُثْمَانُ يَحْيَى ، وَوَجَدَ 856 عَمَلًا ،  
مِنْهَا 550 عَمَلًا وَصَلَ إِلَيْنَا ، وَتَشَهَّدَ عَلَيْهَا 2917 مَخْطُوطَةً .

حَسْبُنَا أَنْ نَسْتَعْرِضَ بِشَكْلِ رَئِيسِ أَعْمَالِهِ الثَّلَاثَةَ الْاَكْثَرَ شَهْرَهُ : كِتَابُ "الْفُتُوحَاتِ الرُّوحِيَّةِ فِي مَكَّةَ" ،  
كِتَابُ "التَّجَلِيَّاتِ الْاِلَهِيَّةِ" ، وَكِتَابُ "الْاَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ لِلْحِكْمَةِ" .

كِتَابُ الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ

بَدَأَ الْمُؤَلَّفُ بِكِتَابَتِهِ عَامَ 1203 ، وَاسْتَعْرَقَ ثَلَاثِينَ عَامًا لِكِتَابَتِهِ بِالْكَامِلِ ، يَتَكُونُ الْعَمَلُ ، فِي مَفْهُومِهِ  
الْأَصْلِيِّ ، مِنْ 560 فَصَلًا ، مُقَسَّمَةً إِلَى 6 أَقْسَامٍ كَبِيرَةٍ .

أَجْزَاءُ هَذَا الْكِتَابِ الْمُخْتَلَفَةِ مَرْتَبَةً عَضُوبًا ؛ فِي هَذَا الْكِتَابِ يَضَعُ ابْنُ عَرَبِيِّ الْاَسْسَ الْعَقَائِدِيَّةَ الَّتِي  
يَعُدُّهَا ضَرْوْرِيَّةً لِلصُّوفِيِّ فِي صُعودِهِ إِلَى الْوَاقِعِ ، وَهَذَا هُوَ الْجَانِبُ النَّظَرِيُّ مِنْ رُؤْيِيَّتِهِ لِلْكَائِنِ ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَى  
التَّطْبِيقَاتِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْحَاجِّ اتِّبَاعَهَا مِنْ أَجْلِ تَقَدُّمِهِ الرُّوحِيِّ وَكَمَالِهِ الشَّخْصِيِّ ، ثُمَّ يَصِفُ الْحَالَاتِ  
الَّتِي يَتَعَيَّنُ عَلَى الصُّوفِيِّ أَنْ يَمْرَبَهَا ، وَالْاَحْداثِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا فِي صُعودِهِ ، ثُمَّ تَأْتِي الْبُيُوتُ الرُّوحِيَّةُ ، الَّتِي  
تَرَكَ الْحَبِيبَ فِيهَا آثَارًا وَجُودَهُ عَلَى هَذِهِ الْاَرْضِ ، الْمَنْفَى وَالْمَعَانَاةَ ، يَتَوَقَّفُ الصُّوفِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْمَسَاكِينِ  
لِحَظَاتٍ عَابِرَةٍ ، وَيَجِدُ فِيهَا الرَّاحَةَ وَالْعَزَاءَ .

## كِتَابُ التَّجَلِّيَّاتِ

هَذَا الْكِتَابُ أَنْجَزَ فِي الْمَوْصَلِ فِي تَهَيِّئَةِ عَامِ 204 ؛ حَيْثُ طَوَّرَ فِيهِ ابْنُ عَرَبِيِّ فِكْرَتَهُ الرَّئِيسَةَ الْمُعَلَّقَةَ بِالْوَحْدَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَعَرَضَ فِكْرَهُ ، اخْتَارَ شَكْلَ حِوَارٍ خَيَالِيٍّ مَعَ مُعَلِّمِي الشَّرْقِ الرُّوحِيِّينَ الْعِظَامِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ .

## وَحْدَةُ الْكَائِنِ مِنْ وَحْدَةِ الْآلَةِ

مَا دَامَتْ هُنَاكَ وَحْدَةٌ عَلَى مُسْتَوَى الْبُعْدِ الْإِلَهِيِّ ، فَهُنَاكَ بِالضَّرُورَةِ وَحْدَةٌ عَلَى مُسْتَوَى الْكَائِنِ الْأَحَادِيَةِ الْلَاهُوتِيَّةِ وَالْأَحَادِيَةِ الْأَنْطُولُوجِيَّةِ مَرْتَبَطَتَانِ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ؛ إِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الْكَائِنِ الْوَحِيدِ لِلْإِيمَانِ وَالْعَشْقِ ، فَإِنَّ هَذَا الْآلَةَ نَفْسَهُ هُوَ الْمَوْضُوعُ الْأَسْمَى لِلْكَائِنِ .

مِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ ؛ مَا هُوَ الْوَضْعُ الْوُجُودِيُّ لِكُلِّ مَا هُوَ غَيْرُ اللَّهِ ؟ يُجِيبُ ابْنُ عَرَبِيِّ : أَنَّهَا الْأَمَاكِنُ الَّتِي يَطْهَرُ فِيهَا الْكَائِنِ ، الْأَشْكَالُ الَّتِي يَكْتَشِفُ فِيهَا الْآلَةَ عَنْ وُجُودِهِ ، أَوْ إِذَا أَخَذْنَا صُورَتَهُ الْمُفَضَّلَةَ ، أَنَّهَا الْمَرَايَا الْمُتَجَلِّيَّةُ الَّتِي يَنْعَكِسُ فِيهَا مَجْدُ الْكَائِنِ ، ابْتِدَاءً مِنَ الْمَادَّةِ الْخَامِ (الذَّرَّةِ) إِلَى الْفِكْرِ الْأَعْلَى .

## كِتَابُ حُكْمِهِ الْأَنْبِيَاءِ

يَسْتَعْرِضُ هَذَا الْكِتَابُ ، الَّذِي صَدَرَ فِي دِمَشْقَ عَامِ 1230 ، حَيَاةَ وَتَارِيخَ 27 مِنَ الْأَنْبِيَاءِ التَّوْرَاتِيِّينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْقُرْآنُ ، مِنْ أَدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أَثَارَ هَذَا الْعَمَلِ الْغَامِضِ رَدُودَ أَفْعَالٍ عَنِيْفَةٍ فِي عَالَمِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مُنْذُ نَشَرِهِ حَتَّى الْيَوْمِ ، وَبِالْفِعْلِ ، فَإِنَّ مَوْقِفَ ابْنِ عَرَبِيِّ بَسِيطٌ ، لَكِنَّهُ جَرِيًّا لِلْغَايَةِ : إِنَّهُ يُوضِحُ عَقِيدَتَهُ فِي التَّوْحِيدِ ، وَيُمْكِنُ تَلْخِيصَهَا

عَلَى النَّحْوِ الْآتِي : إِذَا كَانَ عَرَضَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ يُدَوِّ كَتَفْسِيرِ دِينِي زَمَنِي ، فَإِنَّ عَرَضَ هَذِهِ  
الشَّخْصِيَّاتِ نَفْسَهَا ، عِنْدَ ابْنِ عَرَبِيٍّ ، يُظْهِرُ كَتَفْسِيرِ وَجُودِيٍّ ، أَيَّ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ يَتَنَاوَلُهُمْ مِنْ حَيْثُ وَاقِعِهِمْ  
الميتافيزيقي ، وَلَيْسَ مِنْ حَيْثُ وَاقِعِهِمِ التَّارِيخِي وَالدِّينِي .

### وَاقِعُ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ الْيَوْمِ

ظَهَرَ مُصْطَلَحُ حَدِيثِ اسْمِهِ الشَّيْعَةِ الْمُتَّصِفَةِ لِيُمَثِّلَ الصَّلَةَ الْفَائِمَةَ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالتَّشْيِيعِ وَالتَّشَابَهِ الْعَقْدِيَّ  
بَيْنَهُمَا ، تَرَجُّعٌ فِي الْأَسَاسِ إِلَى تِلْكَ الْخَلَايَا الْبَاطِنِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ، وَالْمُسْتَرَةِ بِقِنَاعِ  
التَّصَوُّفِ ، حَتَّى بَدَأَ بَعْضُهُمْ يَدْرُسُ مَا يُسَمِّيهِ « التَّصَوُّفِ السُّنِّيَّ » ، وَهُوَ السَّالِمُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي بَرَاثِنِ  
الْكَيْدِ الْبَاطِنِيِّ وَانْحِرَافَاتِ الرَّافِضَةِ الْمُتَّصِفَةِ . كُتِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالبَاحِثِينَ عَنِ التَّصَوُّفِ ، وَكُتِبَ  
آخَرُونَ عَنِ الصَّلَةِ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالتَّشْيِيعِ مَبِينِينَ التَّشَابَهَ الْعَقْدِيَّ وَالمُنْهَجِيَّ بَيْنَهُمَا ؛ كَالتَّشَابَهِ بَيْنَ عَقِيدَةِ  
الْوَلَايَةِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَالْإِمَامَةِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ ، وَعَقِيدَةِ الْعِصْمَةِ لِلْإِمَامِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ وَعَقِيدَةِ الْحِفْظِ لِلْوَلِيِّ  
عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ ، وَالتَّأْوِيلِ الْبَاطِنِيِّ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالتَّأْوِيلِ الْبَاطِنِيِّ أَوْ الرَّمْزِيِّ أَوْ الْإِشَارِيِّ عِنْدَ  
الصُّوفِيَّةِ ، وَتَقْسِيمِ الدِّينِ إِلَى شَرِيعَةٍ وَحَقِيقَةٍ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ كَتَقْسِيمِ الدِّينِ إِلَى تَنْزِيلٍ وَتَأْوِيلٍ عِنْدَ  
الشَّيْعَةِ . . . وَقَدْ خَصَّ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِمَصْنُفَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ . وَكَانَ مِخْوَرُ الْحَدِيثِ وَأَسَاسُهُ هُوَ  
التَّشَابَهُ الْعَقْدِيَّ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ وَالشَّيْعَةِ ، لَكِنْ لَمْ تُوْجَدْ - فِيمَا أَعْلَمُ - دِرَاسَةٌ عِلْمِيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ تَتَنَاوَلُ التِّيَّارَ  
الْخَفِيِّ الْبَاطِنِيِّ الرَّافِضِيِّ الْمُتَّقَنِّ وَالْمُسْتَرِّ بِالتَّصَوُّفِ ، مَعَ أَنَّهُ أَحْطَرُ مَا فِي الْإِتِّجَاهِ الصُّوفِيِّ ، بَلْ هُمْ الَّذِينَ  
وَرَاءَ اتِّسَاعِ الْإِنْحِرَافِ فِي دَوَائِرِ التَّصَوُّفِ حَتَّى وَصَلَ الْحَيْلَ بِنَعْضِ الْبَاحِثِينَ الْمُعَاصِرِينَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ لَا  
يُوجَدُ فِي التَّصَوُّفِ الْيَوْمِ مُعْتَدِلٌ ، بَلْ كُلُّهُمْ غُلَاةٌ ، وَذَلِكَ لِاتِّسَاعِ دَائِرَةِ هَذَا التِّيَّارِ وَتَغَلُّبِ مَظَاهِرَةِ وَإِثَارَةِ

على الاتجاه الصوفي ، وهذا التيار هو الذي قاد ولا يزال يقود ركب التصوف نحو الغلو والتطرف .

والملاحظ أن سلاح التشيع الباطني ، وسلاح التصوف الغالي ذي الأصول الباطنية ؛ من أخطر ما وجّه لضرب الأمة من داخلها ، بل هما من أمضى الأسلحة الحفية المؤثرة سلباً داخل كيان الأمة الإسلامية ، وقد استخدم أعداء الأمة الظاهرون والمستترون هاتين الطائفتين لغزو الأمة من داخلها ؛ ولذا فقد اغتنى أهل الاستشراق بدراستهما ، حتى إن المستشرق دونالدسن بقي في إيران ست عشرة سنة لدراسة التشيع ، ثم أخرج كتابه « عقيدة الشيعة » . واهتم المستشرق الفرنسي ماسينيون بالتصوف ، وأمضى حياته في دراسة هذه الطائفة ، بل اهتم بالشخصيات المتطرفة منهم كالجلّاج ، حتى لقب بـ « عاشق الجلّاج » . وهؤلاء المستشرقون - كما هو معروف - يعملون مستشارين في وكالات الاستخبارات ووزارات الخارجية في بلادهم ، وتبني على مجوهم ودراساتهم وتقاريرهم مواقف وخطط وحروب وسياسات . وقد ذكر الأستاذ الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - بأنه اطلع على تقرير استشراقي سري يفيد بأن أفضل طريقة لمواجهة انتشار الإسلام هو تغذية هذه المذاهب والطوائف ودعمها وتشجيعها . وتجلّى خطوره هذا التيار الخفي من « التشيع الصفيي » المسترب « التصوف » ، في بعده العقدي والأمني والسياسي والاجتماعي ، فلقد تسلت المَجوسية الفارسية التي تتخذ من « التشيع » وسيلة لخدمة أهدافها السياسية ، وإقامة إمبراطوريتها الفارسية ، وأعاد مملكتها البائدة ومجدها الغابر ؛ تسلت إلى التصوف على سبيل الخُصوص ، وإلى المُجمعات الإسلامية على سبيل العموم ، بواسطة هذه الطائفة والميثرين بها . والخطورة الكبرى في هذا الاختراق الشيعي ترجع إلى كثرة عدد الصوفية وانتشارها واتساع نفوذها وغلو مكانه بعض شيوخها لدى بعض الساسة وأصحاب القرار في بعض الدول . ولإدراك إبعاد هذا الخطر أنظر إلى آثار الاختراق الإيراني باسم التشيع لبعض

فَرَقِ الزَّيْدِيَّةَ ، وَهِيَ « الْجَارُودِيَّةُ » ، وَتَأْثِيرَاتِهِ الْخَطِرَةَ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَمَا جَاوَرَهَا ، ثُمَّ انْظُرْ إِلَى  
اِخْتِرَاقِهِمُ الْمُجْتَمَعِ اللَّبْنَانِيِّ بِوَسِطَةِ مَا يُسَمَّى « حِزْبِ اللَّهِ » . ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ إِلَى مُحَاوَلَةِ إِيرَانَ إِحْتِوَاءِ  
نُصَيْرِيَّةِ سُورِيَّةٍ بِاسْمِ التَّشْيِيعِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَعَ أَنَّ الْمَصَادِرَ الْأَسَاسِيَّةَ لِشِيعَةِ إِيرَانَ - أُعْغِي  
الشَّيْعَةَ الْأِمَامِيَّةَ الْإِثْنِي عَشْرِيَّةً - تَقَرَّرَ فِي مَصَادِرِهَا الْمُعَمَّدَةِ لَدَيْهَا تَكْفِيرَ النُّصَيْرِيَّةِ صَرَاحًا ، إِلَّا أَنَّ إِيرَانَ  
لَا سِيَّمَا بَعْدَ الثَّوْرَةِ الْحَمِينِيَّةِ أُتُّخِذَتْ مِنْ دَعْوَى التَّشْيِيعِ طَرِيقًا إِلَى نَشْرِ دِينِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ السُّورِيِّ ،  
وَنَجَحَتْ - بِوَسِطَةِ التَّخْطِيطِ الْإِيرَانِيِّ - فِي إِحْتِوَاءِ النُّصَيْرِيَّةِ ، وَلِذَا ظَهَرَ « الْغَزَلُ الشَّيْعِيُّ » بَيْنَ آيَاتِ  
قُمْ وَرِجَالِ الدِّينِ النَّصِيرِيِّينَ ، فَأُصْدِرَ - مِثْلًا - رَجُلٌ الدِّينِ الشَّيْعِيِّ الْإِيرَانِيِّ حَسَنُ الشَّيْرَازِيِّ بَعْدَ زِيَارَةِ  
لَهُ لِسُورِيَّةٍ ، رِسَالَةً بِعُنْوَانِ « الْعُلُوِّيُّونَ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ » ، ثُمَّ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ وَاتَّسَعَ الْخَطَرُ إِلَى دَرَجَةِ  
تَجْنِيدِ مَلَائِكَةِ الرَّافِضَةِ فِي قُمْ لِبَعْضِ الْجَهْلَةِ وَالْمُرْتَزَقَةِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ لِدَعْمِ النِّظَامِ السُّورِيِّ النَّصِيرِيِّ الْعُلُوِّيِّ  
فِي سُورِيَّةٍ ، كَعَصَابَاتِ « حِزْبِ اللَّهِ » اللَّبْنَانِيِّ ، وَ« لَوَاءِ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ » الْعِرَاقِيِّ ، وَخَلَايَا  
الْحِرْسِ الثَّوْرِيِّ « الْإِيرَانِيِّ » . وَهُمْ الْيَوْمَ يُنْفِذُونَ خَطَّهُ كَبْرَى لِإِحْتِوَاءِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ لِإِفْسَادِهَا وَتَجْنِيدِ  
أَتْبَاعِهَا لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ الرَّافِضَةِ ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ حِينَ دَخَلُوا فِي التَّنْصُرَاتِيَّةِ لِتَحْقِيقِ مَارِهِمْ . وَلِذَا ؛ فَإِنَّ  
أَكْثَرَ الْبَاحِثِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ التَّشَابُهِ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالتَّشْيِيعِ فِي الْمَبَادِيِّ وَالْمَعْتَقَدَاتِ ، وَقَلَّ مَنْ يُدْرِكُ وَجُودَ  
تِيَارٍ وَاسِعٍ مُتَغَلِّغٍ دَاخِلُ الْكِيَانِ الْخِرَافِيِّ الصُّوفِيِّ ، كَمَا لَمْ تَنْظُنْ جَمَاهِيرُ الصُّوفِيَّةِ الْغَائِبَةِ أَوْ الْمَغِيبَةِ لِهَذَا  
التِّيَارِ الْبَاطِنِيِّ الْمُتَمَتِّعِ بِالتَّصَوُّفِ ، فَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَمِنْهُمْ ، بَلْ إِنَّ الْإِنْحِرَافَ الصُّوفِيَّ نَحْوَ  
التَّشْيِيعِ ، وَوُجُودِ التَّشَابُهِ بَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالتَّشْيِيعِ ؛ هُوَ بِسَبَبِ الْكَيْدِ الشَّيْعِيِّ وَالتَّامْرِ الْبَاطِنِيِّ الْمُسْتَسْتَرِّ بِقِتَاعِ  
التَّصَوُّفِ ، وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ اسْتِرَاطِيَجِيَّتِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ لِتَسْلُلِ إِلَى مَرَاكِرِ التَّأْثِيرِ فِي الْأُمَّةِ . وَجَسْبِكَ أَنْ تَعْلَمَ

أَنْ تَسَلَّ النَّيَّارُ الشَّيْعِيَّ إِلَى الطَّوَائِفِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ لَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ ، بَلْ أَشَدُّهُمْ تَحْفَظًا وَاحْتِرَاسًا  
وورعاً وتقوى وعلماً ، وهُم أَهْلُ الْحَدِيثِ ، فَكَيْفَ بِالتَّصَوُّفِ الَّذِي تَشَيَّعُ مِنْهُ الْخُرَافَةُ وَيَسِيْطِرُ عَلَيْهِ  
الْإِبْتِدَاعُ ؟ ! . كَمَا قَامَ بَعْضُ شُيُوْخِهِمِ الْمَسْتَرِيْنَ بِالِاتِّسَابِ لِلْسُّنَّةِ ، بِإِبْتِدَاعِ بَعْضِ الْأَفْكَارِ الْمَشَابِهَةِ  
لِلْفِكْرِ الشَّيْعِيِّ وَنَشَرَهَا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، فَيَرَى الشَّيْخُ مُحَمَّدُ أَبُو زُهْرَةَ أَنَّ نَجْمَ الدِّينِ الطُّوفِيَّ (المتوفى  
سنة 716هـ) قَدْ تَعَمَّدَ التَّرْوِيْحَ لِلْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ بِهَذِهِ الْوَسِيْلَةِ فِي بَحْثِهِ عَنِ الْمَصْلَحَةِ الَّذِي قَرَّرَ فِيهِ أَنَّ  
الْمَصْلَحَةَ تَقْدِّمُ عَلَى النَّصِّ ؛ لِأَنَّ هَذَا مَسَلِكُ شَيْعِي ، حَيْثُ عِنْدَ الشَّيْعَةِ أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يُخَصِّصَ أَوْ يَنْسَخَ  
النَّصَّ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَالطُّوفِيُّ قَدْ أَتَى بِالْفِكْرَةِ كُلِّهَا ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ كَلِمَةَ الْإِمَامِ  
وَأَبْدَلَهَا بِالْمَصْلَحَةِ ، لِيُرْجِحَ الْقَوْلَ وَيُنْشُرَ الْفِكْرَةَ . ثُمَّ يَقَرُّرُ أَبُو زُهْرَةَ أَنَّ الطُّوفِيَّ فِي تَهْوِينِهِ شَأْنَ النَّصِّ  
وَنَشْرُ فِكْرِهِ نُسْخَةً أَوْ تَخْصِيصَهُ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ ، قَدْ أَرَادَ تَهْوِينَ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي تُعْطِيهَا الْجَمَاعَةُ  
الْإِسْلَامِيَّةَ لِنُصُوصِ الشَّارِعِ . وَهَذَا لَيْسَ بِغَرِيبٍ مِنْ طَائِفَةِ دِينِنَا « لِذَا يَرَى شَيْخِهِمْ مُحَمَّدُ جَوَادٌ مُعْتَبِرٌ  
(رئيس المحكمة الجعفرية ببيروت) وَجُوبَ الْعَمَلِ بِالْمَكْيَافِيْلِيَّةِ ، وَالَّتِي تَعْنِي أَنَّ الْغَايَةَ تُبْرَّرُ الْوَسِيْلَةَ ،  
وَيُقَرَّرُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ عَقِيْدَةُ « التَّقِيَّةِ » عِنْدَهُمْ .

وَتَمَّ - بِتَخْطِيْطٍ وَتَعَمَّدٍ وَسَبْقِ إِصْرَارٍ - طَرِحَ عَقِيْدَةَ « الْوَلَايَةِ » فِي الْوَسْطِ الصُّوفِيِّ وَالْمَشَابِهَةِ لِعَقِيْدَةِ  
« الْإِمَامَةِ » عِنْدَ الشَّيْعَةِ ، وَتَمَّ إِشَاعَةُ عَقِيْدَةِ « الْحِفْظِ » لِلْوَلِيِّ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ ، وَالَّتِي تُشْبِهُ عَقِيْدَةَ «  
الْعِصْمَةِ » لِلْإِمَامِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ ، كَمَا قَامَ الشَّيْعَةُ الْمُتَّصِفَةُ بِتَقْسِيمِ الدِّينِ إِلَى « شَرِيْعَةٍ » وَ « حَقِيْقَةٍ » ،  
وَهُوَ يُشْبِهُ تَقْسِيمَ الدِّينِ إِلَى « نَزْهِلٍ » وَ « تَأْوِيلٍ » عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ ، وَقَالَتِ الشَّيْعَةُ الْمُتَّصِفَةُ : أَنَّ  
الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِبَيَانِ الشَّرِيْعَةِ ، وَالْوَلِيَّ جَاءَ بِبَيَانِ الْحَقِيْقَةِ ، كَمَا قَالَتِ الشَّيْعَةُ

الإمامية: أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِالتَّزْيِيلِ ، وَجَاءَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالتَّوِيلِ . كَمَا  
قَامَتْ « الشَّيْعَةُ الْمُتَّصِفَةُ » أَوْ « رَافِضَةُ الصُّوفِيَّةِ » بِإِشَاعَةِ مَبَادِي وَمَظَاهِرِ الشَّرْكَ وَالْوَثْنِيَّةِ فِي  
أَوْسَاطِ الصُّوفِيَّةِ ، فَمَثَلًا يُوجَدُ فِي مِصْرٍ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ أَلْفِ ضَرِيحٍ أَكْثَرُهَا تَابِعٌ لِلْمَجْلِسِ الصُّوفِيِّ  
الْأَعْلَى ، وَصَرَّحَ وَزِيرُ الْأَوْقَافِ الْمِصْرِيِّ بِأَنَّ حَصِيلَةَ التُّذُورِ الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ الْأَضْرَحَةِ فِي الْفَتْرَةِ مِنْ ( 1/7/2005 ) إِلَى ( 30/6/2006 ) ، بَلَغَتْ 52 مِليُونًا وَ67 أَلْفًا وَ579 جَنِيهَاً ( مَعَ أَنَّ هُنَاكَ الْمِلايِنَ مِنْ  
الْأَحْيَاءِ تَحْتَ خَطِّ الْفَقْرِ ) . وَقَدْ أُثْبِتَ مَوْقِعُ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ عَدَدَ الْقُبُورِ وَالْأَضْرَحَةِ الَّتِي تَزَارُ بِشَكْلِ  
يَوْمِي ، وَتَقْدَمُ لَهَا الْقَرَابِينَ وَالتُّذُورَ ، وَتَطْلُبُ مِنْهَا قِضَاءَ الْحَاجَاتِ وَتُقْرِجُ الْكِرْبَاتِ ، وَيُسْأَلُونَ الشَّفَاعَةَ ،  
وَيُسْتَعَاثُ بِهِمْ ، فِي تَهَامَةٍ أَيْمَنَ فَقَطْ ؛ بَلَّغَ مَا يُقَارَبُ ( I78 ) ضَرِيحًا ، وَقَدْ قَرَّرَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ  
بِأَنَّ « الشَّيْعَةَ الْبَاطِنِيَّةَ » هُمْ أَوَّلُ مَنْ أَحَدَثَ عِبَادَةَ الْقُبُورِ وَالْمَشَاهِدِ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ . أَنَّ تَغْلَغَلَ هَذَا التَّيَّارِ الشَّيْعِيِّ الْبَاطِنِيِّ دَاخِلَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ، وَتَكَاثَرَهُمُ الْعَدَدِيِّ ، وَتَأْثِيرَهُمُ  
الْعَمَلِيِّ ، وَكَيْدَهُمُ الْبَاطِنِيِّ ، وَمَكْرَهُمُ الْخَفِيِّ ، وَضُرْرَهُمُ الْخِرَافِيِّ ، وَخَطَرَهُمُ الْوَثْنِيِّ ؛ هُوَ الَّذِي أَرْخَى  
بَسْدُولَهُ الْمُظْلَمَةَ عَلَى التَّصَوُّفِ الَّذِي يَعِيشُ حَالَةً مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الزُّهْدِ ، وَالتَّوَجُّهِ الرُّوحِيِّ الْمُتَجَرِّدِ ،  
وَالتَّقْوَعِ عَلَى الذَّاتِ ، حَتَّى سَخَرُوهُمْ لِخِدْمَةِ أَهْدَافِهِمْ وَتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَنَّ  
هَذِهِ الْخَلِيَّةَ الرَّافِضِيَّةَ السَّرِيَّةَ الَّتِي تَنْخَرُ فِي كِيَانِ التَّصَوُّفِ ، وَتَعِيثُ فِيهِ فِسَادًا ؛ تَطْهَرُ آثَارَهَا وَمِلاَحِمَهَا  
فِي كَثِيرٍ مِنَ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ، فَغَالِبُ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ تَلْتَصِقُ بِعَلِيِّ وَسَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَكُلُّ مَنْهَا  
يَدَّعِي الْعُلُومَ الْمَكْنُومَةَ الْبَاطِنِيَّةَ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، كَمَا أَنَّ أَصُولَ بَعْضِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ  
فَارِسِيَّةٌ بِحَسَبِ كَالطَّرِيقَةِ التَّنَشِيبُودِيَّةِ . وَيَبْدُو مِنْ خِلَالِ الْاسْتِقْرَاءِ وَالذَّرَاسَةِ وَالتَّنَظُّرِ أَنَّ التَّيَّارَ الشَّيْعِيَّ  
الْبَاطِنِيَّ إِذَا أَتَى أَوْ أَكْمَلَ عَمَلِيَّةَ تَحْوِيلِ الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ إِلَى الْمَسَارِ الشَّيْعِيِّ الْبَاطِنِيِّ ؛ فَإِنَّهُ يَتِمُّ حِينَئِذٍ

كَشَفَ الْمُسْتُورَ وَالْخُرُوجَ عَنِ التَّقِيَّةِ كَمَا تَرَى الْحَالَ بِالنَّسْبَةِ لِلطَّرِيقَةِ «الْحَتْمِيَّةِ» ، حَيْثُ أَفْصَحَتْ  
وَأَعْلَنْتْ تَشْيِعَهَا بِالْكَامِلِ مِنْ خِلَالِ ارْتِبَاطِهَا اعْتِقَادًا وَاسْتِدْلَالًا وَمَنْهَجًا وَمَصِيرًا بِالتَّشْيِعِ ، وَلِذَا تَرَى  
بَعْضَ شُيُوخِ الطَّرِيقَةِ «الْحَتْمِيَّةِ» الْمَعَاصِرِينَ يُحْتَجِّبُونَ بِنَفْسِ حِجِّجِ الْإِمَامِيَّةِ ، وَيَطْعُنُونَ فِي الصَّحَابَةِ  
كَحَالِ إِخْوَانِهِمُ الرَّافِضَةَ ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ «الْبِكَاشِيَّةِ» ، حَتَّى عَدَّهَا الْكُوَثْرِيُّ مِنَ الْقَابِ  
الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ وَكَذَلِكَ الطَّرِيقَةُ «الْعَزْمِيَّةُ» . ثُمَّ يَتَحَدَّثُ بَعْضُ مَنْ لَا يُدْرِكُ إِبْعَادَ الْمَكْرِ الْبَاطِنِيِّ بِأَنَّ  
هَذَا تَشَابَهُ ، وَهَذَا آخِرُ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ دِرَاسَتَهُمْ .

أَنَّ قَلَّةً مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ «الشَّيْعَةِ الصُّوفِيَّةِ» وَ«الشَّيْعَةِ الْمُتَّصِفَةِ» وَ«الصُّوفِيَّةِ  
الزَّاهِدَةِ» ذَاتِ التَّوَجُّهِ السُّنِّيِّ فِي الْأَصْلِ ، أَمَّا «الشَّيْعَةُ الصُّوفِيَّةُ» ، فَإِنَّ رُؤُوسَهَا يَجَاهِرُونَ بِمَبَادِيِ  
التَّصَوُّفِ الْمُتَّحَرِّفِ «وَمَبَادِيِ «التَّشْيِعِ الْعَالِيِّ» ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ إِحْدَى الْخُطَطِ الْإِسْتِرَاتِيْجِيَّةِ  
لِاسْتِيعَابِ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ ، كَمَا فَعَلُوا مِنْ قَبْلِ فِي اسْتِيعَابِ فِرْقِ التَّشْيِعِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى امْتِدَادِ  
التَّارِيخِ ، وَمَزِجَ آرَائَهَا وَمَعْتَقَدَاتِهَا فِي التَّشْيِعِ الْإِسْمِيِّ عَشْرِيٍّ وَمَعَ وُجُودِ هَذَا التِّيَّارِ الْخَفِيِّ دَاخِلِ التَّصَوُّفِ  
وَالَّذِي يَجْهَلُهُ الْكَثِيرُ ، فَإِنَّ الْخَطَرَ الْأَكْبَرَ فِي أَنَّ هُنَاكَ تَوَجُّهَاتٍ عَرَبِيَّةً وَغَرِبِيَّةً لِدَعْمِ الْحَالَةِ الصُّوفِيَّةِ ، مَعَ  
حَمَلِهَا فِي أَحْسَانِهَا وَمَنْ دَاخِلِهَا «الْحَمْلُ الْبَاطِنِيِّ الرَّافِضِيِّ» . يَقُولُ د . عَبْدُ الْوَهَّابِ الْمَسِيرِيُّ : «  
مِمَّا لَهُ دَلَالَةٌ إِنَّ الْعَالَمَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي يُحَارِبُ الْإِسْلَامَ يَشْجَعُ الْحَرَكَاتِ الصُّوفِيَّةَ ، وَمَنْ أَكْثَرَ الْكُتُبِ اتِّشَارًا  
الآنَ فِي الْعَرَبِ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ عَرَبِيِّ وَإِشْعَارِ جَلَّالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ ، وَقَدْ أُوصِتَ لَجَنَةُ الْكُونْجَرَسِ الْخَاصَّةُ  
بِالْحَرْبَاتِ الدِّينِيَّةِ بِأَنَّ تَقْوَمَ الدُّوَلُ الْعَرَبِيَّةُ بِتَشْجِيعِ الْحَرَكَاتِ الصُّوفِيَّةِ ، فَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَالْانْتِصِرَافُ عَنْهَا  
وَعَنِ عَالِمِ السِّيَاسَةِ يَضْعُفُ وَلَا شَكَّ صَلَابَةٌ مُقَاوِمَةٌ لِاسْتِعْمَارِ الْعَرَبِيِّ» . وَيَزُجُّعُ الْمُسْتَشْرِقُ الْأَلْمَانِيَّ



شتيفان رايشموت أن «مُستقبل العالم الإسلامي سيكون حتماً للتيار الصوفي» . ويقول دانيال بايس : « أن العزب يسعى إلى دعم التصوف الإسلامي لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية ، وفق ضوابط فضل الدين عن الحياة ، وإقصائه نهائياً عن قضايا السياسة والاقتصاد ، وبالطريقة نفسها التي استخدمت في تهمة المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة » . وفي صيف عام 2004 أصدرت مؤسسة « راند » تقريراً تضمن توجيه الولايات المتحدة الأمريكية بـ « تشجيع انتشار وقبول الصوفية في المجتمعات الإسلامية » . وقد كتب الأستاذ فهيمي هويدي مقالاً يعلق فيه على هذا التقرير ، ومما قال : « إن التقرير لا يخفي دعوة صريحة إلى تشجيع التصوف ، وهو ما يعد نوعاً من الدعوة إلى التعلق بما يمكن أن نسميه الإسلام الانسحابي الذي يقلص الدين في دائرة روحية لا تتجاوز حدودها ، فهو يتحدث صراحة عن أهمية تعزيز الصوفية وتشجيع البلدان ذات التقاليد الصوفية القوية على التركيز على ذلك الجانب من تاريخها ، وعلى إدخاله ضمن مناهجها الدراسية ، بل يُلح على ذلك في عبارة أقرب إلى الأمر تقول : لا بد من توجيه قدر أكبر من الانتباه إلى الإسلام الصوفي » . وفي 24 أكتوبر 2003م استضاف مركز نيكسون مؤتمر برنامج الأمن الدولي .

في واشنطن لاستكشاف مدى دور الصوفية فيما يتعلق بأهداف السياسة الخارجية الأمريكية ، وقد عقد المؤتمر في ثلاث جلسات ، واحدة منها سرية . الجلسة الأولى : حول الصوفية : التاريخ ، الفلسفة ، الجماعات . الجلسة الثانية : حول الصوفية في أوروبا وآسيا . ويذكر المستشرق برنارد لويس أن اهتمامهم بالتصوف لأنه يذهب إلى أن « الأديان جميعها أصلها واحد ، وكل الأديان لها هدف واحد ، ورسالة واحدة ، وهم يعبدون الآلة نفسه ، والله في الكنيسة وفي المسجد » . وفي تقرير

نشرته مجلة يو أس نيوز الأمريكية عام 2005م بعنوان: « قلوب وعقول ودولارات » يهدف إلى إستراتيجية تدعى الوصول إلى العالم الإسلامي ، يقول هذا التقرير في إحدى فقراته : « يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحداً من أفضل الأسلحة » . وُقِلت المجلة الأمريكية المذكورة أن واشنطن قامت بتمويل محطات إذاعة إسلامية وبرامج تلفزيونية ودورات تعليمية للترويج للإسلام المعتدل في أكثر من 24 دولة إسلامية وحضر السفير الأمريكي في القاهرة مؤيد البدوي في 16/10/1426 هـ ، معلناً إعجابه الشديد بعالم التصوف الإسلامي ، ويُقال بأنه انتسب إلى الطريقة الأحمدية وصار مريداً فيها ، حيث أخذ العهد من أحد شيوخ الصوفية في مؤيد الشيخ البدوي . كما طلب السفير الأمريكي فرنسيس ريتشارد مقابلة شيخ مشايخ الطرق الصوفية حسن الشناوي ، وتمت المقابلة في مقر المشيخة العامة بالحسين ، كما حضر السفير الأمريكي في المغرب الشهرة الصوفية التي أقيمت في الرباط . وهناك مادة علمية واسعة حول الاهتمام الدولي والعالمي بأمر التصوف ، ليس هذا مجال عرضها ، وهو في أساسه يُعتمد على أمور عدة ،

منها

I- توهم بعضهم أن التصوف هو مصدر التسامح وأساس التعايش مع الآخر ، وغاب عنهم أن

التسامح هو في الإسلام السالم من الشرك والابتداع .

2- التآمر على أهل الإسلام بالاستفادة من عنصر التصوف الخرافي لتشر الجهل وإبقاء حالة التخلف في

الامة .

3- خفاء التيار الباطني المتفتح خلف التصوف عن الكثير . والتصوف اليوم بطرقه ورجاله ومريديه وأربطه وزواياه والباطنية التي تحركه من الداخل ، والاهتمام العالمي ، خاصة الغربي ، بشأنه ؛ لم يعد مجرد فرقة مختفية خلف الزوايا ، بل صار مؤسسات ضخمة لها امتدادها عبر القارات . وفي اعتقادي أن المحرك السياسي والتنظيمي له هو « الشيعة المتصوفة » المعروفة بتخطيطها وتنظيمها واختراقها الفرق ، وسريتها وتلونها بحسب المصالح ، وهذا التيار يحتاج في مواجهته إلى أمرين : الأول : كشف خطر وضرر هذا التيار على المسلمين عامة ، وعلى أهل التصوف خاصة ، ببيان عقائدهم وخطئهم ؛ لأن معرفة حال المخالف وعقيدته هي الأساس لبيان الحق له ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن بقوله : « إناك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله . . . » الحديث ، فبين له حالهم واعتقادهم قبل تعريفه بمنهج دعوتهم . الثاني : العمل على نشر السنة والتحذير من البدعة بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

هذا شرح بسيط لما فعله المذهب الباطني من تخريب وهدم منذ القرن الثاني للهجرة وحتى يومنا هذا وللأسف الشديد فإننا نشاهد محاولات جادة ومسؤولة لتوسيع هذا المذهب التخريبي بهدف إقتناع قطاع جديدة من المؤيدين والمريدين الجهلة مستغلين في ذلك ما وصلت إليه علوم التكنولوجيا الانترنيت

وَقَدَّرَتْهَا عَلَى نَشْرِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُضَلَّلَةِ بِلِ الْبَاسِهَا لِباسِ الْوَرَعِ وَالْتَّقْوَى وَالْإِسْلَامِ التَّقِيَّ وَالصَّحِيحِ وَالْغَايَةِ  
والهدف والمقصد هو ذاته ضَرْبِ كِتَابِ اللَّهِ وَمُحَاوَلَةِ عَزَلِهِ بَعْدَ أَنْ فَشَلُوا فِي تَحْرِيفِهِ وَهَدْمِهِ .

### ثالثاً : الأصولية و السلفية

ماهي الأصولية والسلفية وهل هما من منبع واحد ؟

من الواضح ان مصطلح الأصولية يعود الى الأصول والتي مفردها أصل وهذا يعني العودة الى الأصل لنهله  
كل ما يتعلق بأمر ديننا وشرعنا ويضم هذا الأصل كل ما نحتاجه في عصرنا هذا بل هو صالح لكل  
عصر ومكان .

أما السلفية فهي نسبة للسلف، ويعني المتقدم والسابق؛ سواء في السنّ أو الفضل أو الموت .

وهم لا يكتفون بالأخذ من الأصول بل من أعمال وتراث السلف الصالح كما يسمونهم باعتبارها كما  
يقولون ( أصول لم يولدها الفكر البشري ولا الظروف التاريخية كحال غيرهم؛ إنما عمادها الوحي الإلهي  
الثابت بالبراهين العلمية، والشيء الثاني هو تحديد السلف بالصدر الأول من المسلمين، وهم أساساً  
الصحابة الكرام والتابعون لهم وتابعوهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم  
الذين يلونهم" (رواه الشيخان) . ويضيف بعض العلماء تابعي التابعين، وبعضهم يرى أن السلف هم من  
كانوا قبل سنة 500 هجرية) .

بهذا، تتميز دائرة السلفيين بالاستمساك بوحى إلهي رباني محفوظ وثابت، يشمل القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، واتباع رفقة النبي صلى الله عليه وسلم الذين شهد لهم القرآن الكريم بالإيمان والفضل ولذلك نلاحظ أن العلماء حين يطلقون كلمة "السلف"، فإنهم يقرونها دائماً بوصف "الصالح لأنهم يتبعون ما أجمع السلف الصالح عليه من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية، (لأنه حقيقة مراد الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، لأن السلف لصالح اختلفوا في بعض الاجتهادات وليس قول أرجح على قول إلا بدليل وهم لذلك مختلفون في الفهم أن في هذا انغلاقاً وجموداً، ويقولون أن منهج الصحابة في فهم الوحي يقوم على نشر المعرفة وعولمتها، والاجتهاد في الدين والدنيا، وعمارة الأرض وتسخيرها، ونشر قيم العدالة والحرية والكرامة والمساواة بين الناس ويقال عنها انها تهرب من الواقع، وإلغاء لمفهوم الزمان). هكذا يمكننا القول ان الأصولية والسلفية خرجت من مقولة واحدة وهي بالأصول الدينية والتراث الديني السلفي فكلاهما ينظران الى ماضي الأمة وتراثها باعتبارها المخزون الديني الذي لا ينضب والصالح لكل زمان ومكان لكنهم يختلفون في وسائل تطبيقه ولذلك انقسموا الى ثلاث أقسام الأصولية التقليدية والأصولية الحديثة التي خرج منها ما يعرف بالاسلام السياسي والسلفية ومنها خرجت السلفية الجهادية

### دراسة تحليلية للتيارات الأصولية والسلفية

ان الأصولية الإسلامية بوصفها حركة تطهيرية للإصلاح والصحوة يقودها فقهاء أو متقنون مسلمون يهدفون إلى العودة إلى الكتب المقدسة في الإسلام وهم أصحاب النظرة القائلة بأن البلدان ذات الغالبية المسلمة يجب أن تعود إلى أصول الدين المتمثلة بدولة إسلامية تظهر بشكل حقيقي جوهر نظام الإسلام من نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية. يميل الأصوليون والسلفيون معهم إلى تفسير حرفي

وأصولي للمصادر الأساسية للإسلام (القرآن والحديث والسنة)، ويسعون إلى التخلص من التأثيرات  
المفسدة غير الإسلامية من جميع جوانب حياتهم، ويرون في مصطلح «الأصولية الإسلامية» تعبيراً  
ازدراثياً يستخدم من قبل أشخاص من خارج الإسلام من أجل صحوة إسلامية وفاعلية إسلامية.

تختلف التعريفات حول الماهية الدقيقة للأصولية الإسلامية وكيف تختلف، إن كانت تختلف أساساً، عن  
الإسلاموية (أو الإسلام السياسي) أو الصحوة الإسلامية. اعتُبر مصطلح الأصولية مصطلحاً مضللاً من  
قبل أولئك الذين يرون أن جميع المسلمين التقليديين يؤمنون بالأصل الإلهي الحرفي وكمال القرآن ولذلك هم  
«أصوليون»، وآخرون يرون أنه مصطلح يستخدم من قبل أشخاص من خارج الإسلام بهدف وصف  
نزعات ملحوظة ضمن الإسلام. انتقد أستاذ في الدراسات الدينية في جامعة جورج تاون، جون إل.  
إسبوسيتو، مصطلح «الأصولية الإسلامية» بسبب الطابع المبهم للمصطلح نظراً إلى أن استخدامه كان  
واقعاً بشدة تحت تأثير الافتراضات المسبقة المسيحية. ووفقاً لإسبوسيتو سيكون المصطلح الأنسب هو  
«الصحوة الإسلامية» والفاعلية الإسلامية نظراً إلى أن تقاليد التجديد والإصلاح متجذرة في التاريخ  
الديني الإسلامي منذ القرون الإسلامية الأولى حتى العصور الحديثة. خلال التسعينيات من القرن  
العشرين، استخدمت بعض الدول ما مصطلح «الأصولية الإسلامية» كمرادف «للوهابية».

فالمفكر والكاتب المصري محمود أمين العالم يقول عن مفهوم الأصولية الإسلامية ما يلي: "المقصود  
بالأصولية التمسك الحرفي بهذه الأصول (ويقصد القرآن والسنة. ك.ح.) في نصوصها والسعي إلى  
تطبيقها على الواقع الراهن بشكل شامل دون مراعاة للمستجدات والضرورات في هذا الواقع، وبخاصة  
إذا أصبح هذا هو الرؤية المستقرة الشاملة والنهج المتبع الدائم في كل ما يتعلق بأمورنا السياسية

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولهذا فالأصولية نسق في الرؤية والمنهج في كل ما يتخذ من آراء ومواقف سعياً إلى إخضاع الحاضر وتطويعه لمرجعية نصية بحسب القراءة الخاصة التي يغلب عليها طابع الحرفية والإطلاقية. أو بتعبير آخر، إنها السعي إلى فرض النصوص الدينية المقدسة أو ما ينتسب إليها على كل شؤون الحياة والمجتمع، وتفسير كل شيء، والحكم على كل ظاهرة بمقتضاها، بحيث تصبح هذه النصوص هي المعيار الأساسي والوحيد للسلوك والحكم والتقييم دون مراعاة لما يستجد من أوضاع وأحوال" أما روجيه جارودي، الفيلسوف الفرنسي المعروف، فيشير إلى الأصولية على إنها "الجمودية ورفض التكيف وعدم التسامح، والانغلاق، والتحجر المذهبي، تصلب وعناد، المحافظة، الانتساب إلى التراث، العودة إلى الماضي، جمود معارض لكل نمو أو تطور".

حسب المعلومات المتوفرة على أرض الواقع فإن الأصوليين يختلفون في ما بينهم ويتباينون في تفسير الكثير من الأمور بما فيها "الحاكمية لله" والعلاقة بين الدين والدولة وموضوع السلطة السياسية. وهذا يعني بأن التحليل الموضوعي للقوى الأصولية يفترض فيها أن تميز بين الأصوليين المتشددين وبين الأصوليين المعتدلين الذين يرفضون تولي رجل الدين السلطة، كما يفترض التمييز بين الأصوليين المتشددين الذين يرفضون رغم تشدهم ممارسة العنف والإرهاب، وبين الأصوليين المتطرفين الذين يدون استعداداً كبيراً لممارسة العنف والإرهاب بأقصى صورته من أجل الوصول إلى السلطة، والذي تعيشه اليوم شعوب الكثير من الدول ذات الأغلبية المسلمة. فهم ينطلقون، كما حدد ذلك حسن البنا، إلى إقامة نظام إسلامي شامل وكامل، إذ أن الإسلام، كما يقول البنا: "نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً: فهو دولة ووطن، أو

حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة".

فالمسلم الأصولي هو الذي يلتزم بأصول الدين وأركانه الخمسة ويسعى إلى عبادة الله ويجد في كتاب الله والحديث النبوي قضايا لا تقبل الخطأ ويعتبرها صحيحة بشكل مطلق، دائماً وأبداً، وهي صالحة لكل الأوقات. ولكن إلى جانب هؤلاء يجد الإنسان أصوليون يلتزمون بأصول الدين وأركانه ولكنهم يؤمنون أيضاً بضرورة إبعاد الدين عن الدولة، إنهم علمانيون في نظرهم إلى ضرورة الفصل بين الدين والسياسة، أو الدين والدولة. ومثل هذا الاتجاه مرفوض لدى الإسلاميين الأصوليين السياسيين المتشددين عموماً، سواء أكانوا من المتطرفين أم من غير المتطرفين، ويتهمون العلمانيين من المسلمين الذين يؤكدون على هذا الفصل بالارتداد عن الإسلام.

### **و السؤال الذي يفترض الإجابة عنه الآن هو: ما هي الأهداف التي يسعى إليها الأصوليون المتطرفون في الوقت الحاضر؟**

تؤكد البيانات الرسمية للأحزاب والجماعات الأصولية السياسية الإسلامية المتطرفة، سواء أكانت هذه القوى تعمل بالعراق، أم سوريا، أم ليبيا، أم الجزائر، أم في المغرب، أم تونس أم مصر أم في غيرها من البلدان، التي أكثرية سكانها من المسلمين، إلى إنها، وهي خارج السلطة، تعمل من أجل إقامة دولة الإسلام، وهي لهذا الغرض مستعدة للقتال في سبيل تحقيق هذا الهدف، كما تفعل اليوم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تطرح مجموعة من الشعارات باعتبارها ضمن أدوات التعبئة وممارسة الضغط والكفاح. فهي تطرح بجلاء الشعارات التالية:



• الحاكمية لله : وهذا يعني بوضوح لا يقبل الشك أو الالتباس بأن هذه الجماعات ترى في النظم القائمة في الدول ذات الأغلبية المسلمة، ومنها دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، نظماً غير شرعية لأنها تحكم من قبل البشر وعلى أساس قوانين وضعية وليست من أحكام القرآن والسنة، إنها قوى وسلطة وقوانين دنيوية أو وضعية، وهي لهذا السبب ليست دولاً إسلامية تعتمد حاكمية الله . وهذا يعني ضرورة تفويض هذه النظم بكل السبل المتاحة بما فيها القوة والعنف من أجل إقامة تلك الحاكمية الإلهية في الدول الإسلامية، الدول التي يحكمها ولي الله في الأرض أو وكيله والذي يفترض أن ينتخب عن طريق الشورى، إنه أمير المؤمنين أو خليفة الله على المسلمين . وهذا ما يمارسونه اليوم، وما حصل بالنسبة لإعلان أبو بكر البغدادي نفسه خليفة للمسلمين في دولة العراق والشام! ويمارس أشنع صور الإرهاب والقمع والقتل والسبي والاعتصاب للنساء وبيعهن في سوق النخاسة لأنهن لسن مسلمات .

• تطبيق الشريعة الإسلامية: وهذا يعني إنها ضد الدساتير والقوانين والنظم المدنية القائمة باعتبارها من صنع البشر أولاً ومخالفة للشريعة ثانياً، أو أنها ليست قائمة على أساس القرآن والسنة، حتى إذا تضمنت ما يشار إلى إنها وضعت بالتناغم مع الشريعة الإسلامية . وهي بذلك تطالب أيضاً بتغيير المحاكم واعتماد العقوبات الواردة في القرآن، بما فيها قطع الرؤوس والرجم بالحجارة وقطع الأُكف وما إلى ذلك . وتعتقد بأن عدم تطبيق الشريعة في هذا الصدد، إضافة إلى وجود النظم غير الإسلامية، هي من بين الأسباب التي قادت وما تزال تقود إلى تنامي الجريمة والفساد والفسق في المجتمع . وباختصار فإن النظم القائمة في الأقطار ذات الأغلبية السكانية المسلمة ليست سوى نظم جاهلية . فالنظم الجاهلية، حسب تقدير هذه الجماعات، وجدت في مرحلة ما قبل الإسلام، ثم وجدت ما بعد الإسلام حتى

الوقت الحاضر . وبالتالي، لا بد من الكفاح ضد الجاهلية كما كافحها محمد بن عبد الله وصحبه حينذاك . والقضاء على هذه النظم القائمة هو خلاص للمسلمين من شرّها وشرورها،

• الإسلام هو الحل: هذا هو الشعار الذي تحمله الجماعات الإسلامية المتطرفة، كما تحمله الجماعات الأصولية غير المتطرفة أيضا، باعتباره الشعار البديل للنظم القائمة، أيا كانت طبيعتها ووجهتها . فبالنسبة لهذه القوى سقطت كل النظم التي شهدتها دول المجتمعات الإسلامية وفشلت في تقديم الحلول العملية للمشكلات القائمة، وبالتالي فلا بد من العودة إلى الإسلام باعتباره النظام الوحيد القادر على تقديم الحلول للمشكلات القائمة في هذه المجتمعات . وهي تهاجم الدول الرأسمالية الغربية التي تتمتع كرامة شعوب هذه البلدان وتستغلها وتسير سياساتها، كما إنها كانت وما تزال تنتقد وتهاجم الفكر الاشتراكي والشيوعي وتعتبرهما مذاهب وأفكار إلحادية يفترض محاربتها وتصفية مروجيها والداعين إليها . ولكن هذه الجماعات لا تقدم للمجتمع برنامجا عملي الإصلاحية الذي تريده لتغيير الواقع . فالإسلام هو الحل ليس إلا شعارا، ولكنه ليس برنامجا عمليا لتغيير الواقع القائم، وهم لا يملكون غير هذا الشعار باعتبار الشريعة هي البرنامج وهي الحل، في حين أنهم لا يمارسون أي تجديد للشريعة ومنذ عقود أو قرون؛

• إن البيانات والنشرات التي تصدرها هذه الجماعات تؤكد بما لا يقبل الشك بأنها ترفض الديمقراطية جملة وتفصيلا ولا تعترف بلائحة حقوق الإنسان، باعتبارها نتاج الثقافة والمجتمع الغربيين وبعيدة كل البعد عن مبادئ الإسلام، فالإسلام له قرآنه وسنته، وبالتالي شريعته، وليس بحاجة إلى لوائح من هذا النوع . كما أنها ترفض ومن هذا المنطلق أيضا، مبدأ التداول الديمقراطي للسلطة وتريد احتكار السلطة بها لا غير، فهي لا تعترف حتى لبقية المسلمين بحجتها في المنافسة على السلطة أو أن يكون لها الحق في إبداء

الرأي، فرأي الجماعة الأصولية المتطرفة ذاتها هو الحق والصواب والعدل . والأساليب التي تمارسها وتعامل بها في سبيل الوصول إلى السلطة في المرحلة الراهنة، ليست محصورة في نضالها ضد النظم الحاكمة فحسب، بل وتمارسها ضد الجماهير الشعبية المسلمة أيضا، وهي بذلك تعبر، في الوقت نفسه، عن أساليبها في الحكم عندما تفتقر إلى السلطة وتحكرها لنفسها، وهي بهذا المعنى ستمارس أساليب وأدوات الاستبداد والقمع للرأي الآخر . إن الإشكالية الكبيرة في هذه الجماعات تكمن في الصورة التي رسمتها لنفسها وللهدف الذي تسعى إليه، فصورة "الأنا" هنا تختلف كلية عن صورة "الآخر" الذي تريد التخلص منه . ولكن صورة الآخر واسعة سعة الشعب كله في هذا البلد أو ذاك، فصورة "الأنا لا تشمل إلا الجماعة ذاتها، إلا الحلقة الضيقة التي أخذت على عاتقها القيام بالكفاح في سبيل إقامة النظام الإسلامي الأصولي، باعتباره الحل الأوحده . إن صورة "الأنا" هنا ذات طبيعة نرجسية تماما تقتزن هنا، ووفق الأساليب التي تمارسها، بسادية قاتلة وهجومية شرسة وخطيرة، خاصة وأنها تقتزن بمفهوم الشهادة والجنة . وصورة "الأنا" الأصولية المتطرفة للمسلم تنتج معها في الوقت نفسه تعصبا وتمييزا لها عن "الآخر" ورفضاً له، وهو المسيحي واليهودي والإيزيدي والصابئي والزرادشتي وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، وهي بالتالي تمارس العنصرية والتمييز الديني الطائفي بأشجع معانيها وأكثرها إجرامية .

- تعتبر هذه القوى الدينية المتطرفة أن الحادثة اختراق للإسلام والمسلمين وخطر يهددهم مباشرة، وعلى المسلمين التصدي لمفهوم ومضامين الحادثة . " فالحادثة ما طراً دون أن ينبع من داخلنا الزمني وذاتيتنا في بعدها الماضي - أي في المكامن الأنطولوجية لنا . والحادثة ماء عكر تجانس الذات وجلب البلبلة والاختلاط ونقض الوحدة الأصلية التي تشكل طينة الأصالة . والحادثة في هذا المنظار هي الانفصال

والتقاطع والمغايرة بصورة عامة، ذلك أنه يندر أن يقوم تعريف وحدّ فعلياً لمفهوم الحداثة يستلصح تاريخية مفهومها وواقعها، بل جل ما نراه في استخدام لها يقوم على اعتبارها علامة على المغايرة والوفادة والانشطار الداخلي". وهذه النظرة إلى الحداثة هي التي تشد المجتمعات ذات الأثرية المسلمة إلى الرؤية التقليدية البالية التي تعيق حركة الدولة نحو الأمام والمستقبل وتحبط مسعى المجتمع للتغيير والتقدم. يقول أحدهم: "كل عودة إلى الماضي وهم، لأن الحداثة، أي البيئة العقلية اللازمة، تحدد الشروط، بصورة إجمالية، لخلفية وجودنا الأولى، والمناخ المحيط الذي نعيش فيه، والحيز الذي يظللنا وفيه ننمو، والبنى الاستمولوجية التي تمنح الأشكال لقوالنا المعرفية".

وإذا كانت هذه هي أهداف القوى الأصولية المتطرفة، فما هي الوسائل والسبل التي تمارسها لتحقيق هذه الغاية؟

لم تحف القوى الأصولية المتطرفة استعدادها الكامل لاستخدام العنف والإرهاب والتصفيات الجسدية لكل من يقف في طريق تحقيق هذه الأهداف. وهي ترى بأن من واجب المسلم المشاركة في هذا الجهاد لإقامة حاكمية الله. ومن لا يشارك في هذا الجهاد، يساهم عملياً في تثبيت هذا النظام أو ذلك المرفوض منهم، وبالتالي فهو يستحق عقابها. في فترة سابقة اعتبر حسن البنا أن المسلم من يرفض استمرار هذا الواقع ومن يسعى إلى تغييره. فقد كتب يقول: "أستطيع أن أجهر بصراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر في شؤون أمته مهتماً بها غيورا عليها". وكان حسن البنا قد طرح تساؤلاً قبل ذلك في مقال آخر له كما يلي: "أتحسب أن المسلم الذي يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك

الدنيا والسياسة للعجزة الأثمين ... يسمى مسلماً؟ ثم يجيب بقوله: "كلا إنه ليس بمسلم. فحقيقة الإسلام جهاد وعمل ودين ودولة".

تمارس جماعات الإسلام السياسي المتطرفة الأساليب التالية لتحقيق المهمة الرئيسية التي تسعى إليها، مهمة إقامة النظام الإسلامي:

• تنظيم حملات دعائية فكرية ودينية وسياسية ضد نظم الحكم التي تعارضها وتسعى للإطاحة بها، بغض النظر عن طبيعة وسياسات تلك النظم؛

• شن حملات فكرية نشيطة ضد كل القوى السياسية التي لا تقف إلى جانبها، أو لا تؤمن بالطريقة التي تعمل بها في سبيل الوصول إلى السلطة؛

• عدم التورع عن اتهام من يخالفها ويعارضها بالكفر والإلحاد ووضع الحد عليهم، أي حق كل مسلم في سفك دمهم والتشجيع على قتلهم .

• وعندما تجد هذه الجماعات في نفسها القوة والقدرة، فلا تتورع عن تنظيم قوى عسكرية لتقوم بعمليات عسكرية ضد قوات السلطة وضد كل الذين يختلفون معها، ولا تتورع عن ممارسة القتل الفردي والجمعي،

وهي تمارس التفجيرات والتفجيرات الانتحارية، وتفجير العربات المفخخة، وإشعال الحرائق، وزرع

الألغام، وشن الهجمات العسكرية على المدن والقرى. وإذ أنها تتهم جميع الناس الذين لا يقاومون النظام،

بأنهم بهذا الشكل أو ذاك، يساندون النظام الذي تقاومه هذه الجماعات، وبالتالي، فإن هؤلاء الناس

يضعون أنفسهم إلى جانب النظام ولا بد من التخلص منهم بكل السبل الممكنة، بما فيها القتل؛

• وعلى هذا الطريق لا تتورع عن تدمير المصانع أو إشعال الحرائق في بيوت الناس ومزارعهم وفي المدارس ورياض الأطفال أو سفارات الدول الأجنبية أو الكنائس ودور العبادة الأخرى. وتزيد من نشاطها في المناسبات الدينية، ومنها شهر رمضان، شهر الصيام والعبادة، الذي له حرمة الخاصة عند جميع المسلمين. وتشير الوقائع إلى إنها لا تتورع عن ممارسة التمثيل في جثث قتلاها الذي حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً .

• وبما إن هذه القوى تكفر أتباع الديانات الأخرى، فإنها قامت عملياً، بعد اجتياح الجماعات الإسلامية الإرهابية المتطرفة (داعش) لمدينة الموصل وبلدات وقرى أخرى بمحافظة نينوى بوضع المسلحين أمام ثلاثة خيارات: إما التحول عن دينهم والدخول بالإسلام، وإما دفع الجزية والخراج بتهجير المسيحيين بالجملة، وإما الهجرة من المنطقة كلها، أو القتل . ، كما تم بيع النساء بسوق النخاسة.

• إنها وعبر هذه الأساليب والأعمال الشريرة، التي وافقت عليها جمهرة من شيوخ الدين ، أشاعت وتشيع جوا من الإرهاب والرعب في المجتمع، كما تشيع الفوضى وعدم الاطمئنان والقلق من المستقبل، وتؤثر سلباً على عملية التنمية والسياحة، خاصة وأنها لا تتورع عن قتل السياح الأجانب ومهاجمة الحافلات التي تنقلهم واغتيال رجال الدين من أتباع الديانات الأخرى، إنها وباختصار إعلان الحرب على الدولة والمجتمع، إلا أن المتضرر الأساسي يبقى الشعب أو المجتمع بأسره؛

• وعندما تكون هذه القوى خارج السلطة تطالب باستمرار بإطلاق حريتها في العمل السياسي والإعلامي على أوسع نطاق ممكن، وهي في ذلك على حق، ما دام عملها يبتعد عن أساليب العنف والإرهاب، ولكنها لا تريد أن يمارس الآخرون تلك الحقوق، وهي ما تزال خارج السلطة، من خلال

توجيه نيرانها ضد القوى الأخرى التي ترى فيها منافسا خطيرا لها بسبب حملها لآراء أخرى، وهي بذلك تبشر بسلوكها وممارساتها السياسية، عند وصولها إلى السلطة، أي أنها ستمنع جميع القوى السياسية، باستثناء نفسها، من التنظيم والعمل السياسي .

ولكن تبقى الإجابة عن السؤال التالي ضرورية: ما هي العوامل الكامنة وراء هذا التحرك الواسع حالياً للحركات الإسلامية الأصولية المتطرفة؟

لا يمكن إحالة بروز ونشاط هذه الجماعات الأصولية المتطرفة إلى عامل واحد بذاته، سواء كان داخلياً أم خارجياً، بل إنها تعود إلى حزمة من العوامل المتشابكة في الفعل والتأثير والنتائج أحياناً غير قليلة، إنها مجموعة العوامل الفكرية أو الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية، وهي في الوقت نفسه عوامل دولية وداخلية وإقليمية. والفعل المتبادل في ما بينها لا يؤثر على بلد واحد بل يمس بفعله وتأثيره البلدان المجاورة وأحياناً جميع البلدان ذات الأغلبية المسلمة. وهي عوامل لا تنفصل عن الفترات السابقة، عن تاريخ هذه البلدان وتراثها في ظل الدولة العثمانية وفي ظل الاحتلال الفرنسي والبريطاني والإيطالي والإسباني للدول العربية، أي إلى فترة الهيمنة الاستعمارية المباشرة، كما إنها تعود إلى فترة ما بعد الاستقلال وقيام نظم حكم سياسية مختلفة وبواجهات متنوعة، ولكنها لم تكن في الغالب الأعم وفي كل الأحوال قد تخلصت من النفوذ والتأثير الاستعماري عليها وعلى سياساتها المختلفة، رغم أن بعضها بدا وكأنه كان يتعامل مع معسكر مناهض للاستعمار والرأسمالية الدولية، وأنه يقف على نقيض الرأسمالية، في حين كان الواقع يشير إلى غير ذلك .

إن المعاشة الواقعية لبلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تمنح الإنسان إدراكا واقعا بوجود إشكاليات كبيرة ترتبط بالحضارة والفكر، وبالبنية الاقتصادية والاجتماعية لهذه المجتمعات وبوعي الفرد وحرية. فهذه البلدان ما تزال تعيش، إلى حدود غير قليلة، في الماضي، رغم وجودها في الحاضر، وهي متخلفة وتابعة اقتصادياً وسياسياً، رغم الادعاء بإحرازها الاستقلال والسيادة الوطنية. وما تزال العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية والعلاقات العنصرية المقترنة بها قائمة في تلك البلدان، حيث نشأت بجوارها وتطورت تدريجاً العلاقات الإنتاجية الرأسمالية التي ما تزال ضعيفة التطور وبطيئة النمو وتابعة في آن واحد. فجميع هذه الأقطار ما تزال تشكل جزءاً من المحيطات المتخلفة والضعيفة التطور التي تدور حول المراكز الصناعية والعلمية المتقدمة. وهي بهذا ما تزال تضع قدماً منها في ماضٍ لا يعود، وأخرى في بقايا العلاقات شبه الإقطاعية والرأسمالية المشوهة أو التابعة التي ما تزال تحبو وتطلع إليها. وينجم عن هذا الواقع تعرض شعوبها للهيمنة غير المباشرة والاستغلال عبر المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية المكشوفة عليها في عالم العولمة الجارية الذي لا يعرف الرحمة والعدالة، وحيث تفرض تلك المؤسسات الدولية المالية والنقدية والتجارية سياساتها الاقتصادية عليها، وما ينشأ عن ذلك من بطالة وفقر وفجوة متسعة في مستويات الدخل السنوية للطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة. ويتسبب مثل هذا الواقع في تقليص التراكبات الوطنية والقدرة على تحقيق أو تسريع عملية التنمية، وبالتالي أضعاف سرعة نمو العلاقات الرأسمالية التي ترتبط بدورها بالمجتمع المدني الرأسمالي مثلاً، والذي ترتبط به أيضاً إمكانيات معينة لعمليات التنوير الديني التي تحققت في أوروبا. ويقترن بهذا الواقع بروز التناقضات والصراعات الاجتماعية التي تدفع الناس إلى خيارات فكرية وسياسية عديدة. وفي الوقت الذي تعرضت الجماعات والأحزاب السياسية اليسارية عموماً إلى المحاربة والتفتيت، تمتعت الجماعات الدينية وعلى مدى عقود



باحضان ودعم ومساعدة لتشارك في صراعتها ضد اتجاهات الفكر اليساري والقوى اليسارية وسائر القوى الديمقراطية والتقدمية. ولم يكن الدعم الذي حصلت عليه من الداخل فحسب، بل ومن الدول ذات الأثرية المسلمة الأخرى ومنها الدول النفطية، إضافة إلى الدعم الخارجي الأجنبي الواسع النطاق والمتنوع من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأستراليا وكندا، على سبيل المثال لا الحصر. وجاء حصولها على هذا الدعم بسبب وجود الاتحاد السوفيتي وبقية البلدان الاشتراكية والحرب الباردة التي كانت تسود العالم، وانقسام الدول العربية إلى مجموعتين في إطار ذلك، ووجود أحزاب شيوعية ويسارية قوية نسبيا في البعض من هذه البلدان، إذ كانت تلك الدول تريد استخدام بعض القوى الإسلامية السياسية لصالحها، وقد تحقق هذا فعلا في العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. وفي ضوء ذلك فإن الحركات الإسلامية الأصولية، سواء المتطرفة منها أو المعتدلة، توفرت لها إمكانيات أفضل في العقود المنصرمة لتنظيم صفوفها وتعزيز إمكانياتها المادية والمالية والاستفادة من أخطاء وشروط النظم القائمة ومن محاولات تلك النظم ارتداء لبوس الإسلام أيضا، من أجل تأمين مواقع مهمة لها في الأوساط الشعبية الأكثر فقرا، أو في الأوساط التي تعرضت مصالحها إلى الخطر، مثل الفئات المتوسطة وبعض الأوساط المتعلمة والمتقنة التي لم تجد مكانا مناسباً لها في تلك النظم السياسية. وتدلل الكثير من المعلومات إلى أن هذه الحركات، رغم المصاعب التي واجهت العمال والغالبية العظمى من المثقفين من الناحيتين السياسية والاقتصادية أو المعاشية، لم تجد مكانا رحبا لها في تلك الأوساط عموما.

إن فشل عملية التنمية أو عدم تحقيقها نجاحات ملموسة في دول المغرب العربي أو مشرقه لا يعود للرأسمالية أو الاشتراكية كنظم اقتصادية واجتماعية وسياسية التي يشير إليها بعض الكتاب العرب، ومنهم الدكتور برهان غليون IG، بل ترتبط بواقع إنها لم تكن يوما على الطريق الاشتراكي، كما إنها لم تلج الطريق الرأسمالي بعقلانية أو بدون تدخل خارجي منعها عمليا من السير في طريق الرأسمالية. وهي التي تواجه اليوم مصاعب جممة على طريق الرأسمالية بسبب السياسات التي تمارس من جانبها ومن جانب المؤسسات المالية الدولية بهذا الصدد، فليست الرأسمالية هي التي فشلت في تحقيق التنمية في هذه البلدان، كما إنها ليست الاشتراكية، بل كانت أولا وقبل كل شيء بسبب النماذج التي اختارتها وتلك السياسات التي مارستها حكومات تلك البلدان وتبعيتها الاقتصادية ونهجها السياسي اللاديمقراطي والاستبدادي، إضافة إلى غياب الديمقراطية ودولة القانون الديمقراطي وحقوق الإنسان، وسعي الدول الرأسمالية المتقدمة منعها من تنمية صناعاتها الوطنية المتقدمة وزراعتها الحديثة وتغيير بنية اقتصادها الوطني وتكوين دخلها القومي.

وتلعب أوضاع هذه البلدان، وخاصة انتشار الفساد الوظيفي وسرقة أموال الدولة والرشوة والمحسوبية والمنسوبة وانتشار الرذيلة واستخدام المخدرات في صفوف الشباب ونمو عصابات الجريمة المنظمة وغياب العدالة الاجتماعية كلية وغيرها من الظواهر، دورا مهما في دفع جماعات غير قليلة من الناس صوب هذه الجماعات الأصولية، والإرهابية المتطرفة منها على وجه الخصوص، للعمل في صفوفها والمشاركة في نشاطاتها الإرهابية بذريعة مقاومة الأوضاع المتردية التي تعيش فيها.

إن الإشكالية التي تعيشها هذه البلدان تكمن أيضا في غياب الديمقراطية والتجاوز الفظ ولعقود طويلة على حقوق الإنسان وإرادة الشعب . ومثل هذه الأوضاع ما تزال قائمة عمليا في تلك البلدان، وأن تباينت حدتها فيها . والسياسات الاستبدادية واللاديمقراطية ما تزال السبب في اتعاش مثل هذه الأجواء وتشكل أرضية صالحة لنشاط هذه الجماعات ونمو التطرف السياسي عموما .

ويجمل بعض الباحثين أسباب انحياز مجموعات من الناس صوب الحركات السياسية الأصولية المتطرفة إلى فشل التجارب القومية العربية تحت قيادة الناصريين والبعثيين بأجنحتهم المختلفة، بإقامة الديمقراطية وتحقيق التنمية والتقدم الاجتماعي أو في تأمين مواجهة مظفرة للتخلف والتبعية والهيمنة الأجنبية غير المباشرة . كما إنها تحيل فشل تلك النظم إلى فشل للعلمانية في المجتمعات الإسلامية . وإذا كان القول بفشل تلك النظم صحيحا ، لأنها عجزت حقا عن فهم العلاقة بين التنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان وغاب عنها أو عن فلسفتها القومية مفهوم العدالة الاجتماعية في ظل الديمقراطية واحترام إرادة الشعب وبعيدا عن الاستبداد ودور الدولة الأمنية، فإن هذا لا يعني بأي حال فشل المشروع العلماني وفشل العقلانية في فهم أهمية وضرة الفصل بين الدين والدولة والاعتراف بحقوق الفرد واحترام حريته وكرامته . فكل النظم القومية أو غيرها التي أقيمت في الدول العربية لم تحقق مثل هذا الفصل، بل اعتمدت دربا بينهما، بين الفصل الشكلي والممارسة المشوهة لبعض قضايا الشريعة . ففي الوقت الذي ادعت اعتمادها المجتمع المدني وسنت القوانين لذلك، ابتعدت عن ممارستها وشوهت مضامينها ومارست التزوير في تنفيذها . ويمكن إيراد مئات بل آلاف الشواهد الموثقة للتدليل على ذلك . إنها في الوقت الذي دعت إلى وضع دساتير مدنية حديثة ومؤسسات المجتمع المدني الحديث، دعت في الوقت

نفسه إلى عدم التعارض بين الدستور والقوانين التي تسنها والشريعة الإسلامية، وشوهت في حقيقة الأمر الاثنين وأساءت لهما معا . فهي لم تكن في كل الأحوال علمانية، حتى أن حكومات هذه البلدان كانت تتسابق مع القوى الأصولية في ادعائها التزام الإسلام والشريعة في حكمها وفي علاقاتها، وهي بالتالي لا تمت إلى المجتمع المدني إلا بالشكل المشوه . وفي إجابته عن سؤال مفاده، ما إذا تعرف الدول العربية المجتمع المدني، أكد الدكتور محمد أركون غياب المجتمع المدني عن هذه البلدان حيث قال ما يلي: " بالطبع . نحن عندنا مجتمع مبعثر، متفرق، لا يزال يخضع لعقائد وممارسات وتقاليد قديمة جدا ولم تنل منها آثار التطور الحديث . ومجمل الفئات الاجتماعية التي تشكل المجتمع ليست متساوية من حيث الحقوق: وخصوصا حق الكلام الحرّ والتعبير عن نفسها . وبشكل عام فلا يوجد تعبير حرّ في مجتمعاتنا . مجتمعاتنا لا تتكلم بشكل حرّ عن ذاتها، مجتمعاتنا مكبوتة . وبسبب انعدام هذا التعبير الحرّ عن الذات هو أن الدول أو الأنظمة السياسية التي استلمت زمام الأمور بعد الاستقلال، هي أنظمة صادرة من قبل مجموعة من المناضلين السياسيين" .

أما الكاتب الإيراني البارز داريوش شايعان فيؤكد على مسألة مهمة أخرى حين يقول: " أحد أسباب سوء الفهم يعود إلى اختزال الإسلام بالشريعة صافية صارمة . صحيح أن تقديس الشريعة يمنع المسلمين أن يميزوا الإسلام الروحي عن الإسلام التشريعي . وإذا كان الإسلام، كجوهر روحي، خالدا، فهو كعادات وتقاليد وإدراك، خاضع للتاريخانية . أما أن ترفع راية الإسلام باسم القانون الديني الذي يفرض فرضا، فهذا يعني النزول به إلى مستوى القولة الصارمة المتحجرة . وأقدر أن من الممكن أن يبقى المرء مسلما دون أن يعلن هويته الدينية، وربما كان رأيي هذا طريقة حديثة في النظر إلى الدين نظرة جديدة"

وعند البحث في واقع القوى الأصولية يمكن الإشارة الواضحة إلى أن النظم السياسية في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد ساهمت بتعزيز مواقع قوى الإسلام السياسي المتطرفة من خلال الادعاء محاربتها، في الوقت الذي كانت تنافس معها على تطبيق ما يتعارض تماماً مع سمات وخصائص المجتمع المدني وأقرب إلى تلك القوى في الدعوة للشريعة والإسلام واعتبار الإسلام دين الدولة، في حين إن الدولة شخصية اعتبارية لا دين لها ولا مذهب. ويعتبر النموذج المصري في فترة محمد أنور السادات ومحمد حسني مبارك النموذج الفعلي لهذا الاتجاه في الحكم، رغم الادعاء بأنها مدنية أو علمانية.

فالنظم القائمة في العالم العربي أو الإسلامي ليست علمانية، إذ أن العلمانية تستند إلى تحقيق الفصل الكامل بين الدين والدولة، أو "فصل الممارسة السياسية عن التأويل الديني" كما عبر عنه بصواب سمير أمين<sup>22</sup>. وهي ليست دينية أيضاً، رغم ادعاءاتها. وهذا الفصل بين الدين والدولة لا يعني بأي حال من الأحوال إلغاء الدين، أو عدم الاعتراف به، أو بدوره الاجتماعي، أو عدم احترام الأديان والمتمدين، بل يرتبط بضرورة مثل هذه العملية لتأمين حيادية الدولة وابتعادها عن أي تمييز بين الناس بسبب دياناتهم ومذاهبهم، أو التدخل من جانب الدول بديانات الأشخاص. وقد عبر عن حاجة الفصل هذه الكثير من الكتاب والباحثين العرب وغير العرب، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر، محمود أمين العالم وسمير أمين والطيب تيزيني وعزيز العظمة وصادق جلال العظم ونصر حامد أبو زيد وداريوش شايفان وإبراهيم علي حيدر.....

إن المتبع لتطور الأوضاع في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا سيجد أمامه عاملاً جوهرياً أشرنا إليه سابقاً كان يدفع مجموعات غير قليلة من الناس صوب سياسات الأصوليين المتطرفين، ونعني به موقف

حكومات هذه الدول والدول ذات الأثرية المسلمة عموماً من سياسات الدول الغربية، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي، وخاصة إزاء القضايا التي تعتبر جوهرية بالنسبة للعرب والمسلمين. ورغم إن القوى السلفية المتطرفة تدعي العداء للدول الكبرى، إلا إنها كانت الوليد الشرعي لتحالف الولايات المتحدة الأمريكية وباكستان والسعودية منذ الثمانينات من القرن الماضي ورعتها طيلة الفترة التي استغرقتها الحرب ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان وفيما بعد أيضاً. وهي التي ساهمت مثلاً بتكريس النظام السياسي الطائفي بالعراق وفرض المحاصصة الطائفية على المجتمع، الذي استقبلته الأحزاب الإسلامية السياسية والطائفية بارتياح كبير وممارسته بالطريقة التي ساهمت في الوضع المساوي الذي يعاني منه العراق والمستقع الذي يحتاج على فترة طويلة للخروج منه.

وتشير بعض الدراسات إلى أن ما يطلق عليه اليوم "البلد الإسلامي" أو "الصحة الإسلامية" أو الحركات السياسية الأصولية، بما فيها الحركات المتطرفة هي التعبير الملموس لـ "تنامي دائرة الاحتجاج الاجتماعي والمعارضة السياسية"، أو التمرد على الواقع الذي يسود هذه البلدان سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. إلا أن هذا الاحتجاج ضد ما هو سائد ومعوج لا يراد تغييره باتجاه الديمقراطية والتعددية والتسامح، بل يراد إقامة ما هو مماثل من حيث الهيمنة والاحتكار لاتجاه فكري، أيديولوجي، وسياسي واحد، ورفض كامل وشامل لغيره من الأفكار والاتجاهات السياسية. وفي هذا الإطار كتب د. فالح عبد الجبار مشيراً إلى إن رد فعل الحركة الإسلامية الأصولية على ما هو قائم في العالم العربي لا يغير من واقع الاحتكار الأيديولوجي-السياسي لمجموعة معينة، بل يستبدله باحتكار أيديولوجي-سياسي لمجموعة أخرى، حين كتب يقول: "إن الحركات الأصولية الإسلامية هي واحدة من مظاهر الاعتراض الجوهرية

على المكونات اللاعقلانية للمجتمع الحديث . وبالتحديد طابعه الواحدى السياسى - الأيدىولوجى  
وعجزه الوطنى إزاء تحدىات الخارج (وبخاصة إسرائيل)، لكن الرد الأصوبى ذو طابع واحدى سياسى -  
إيدىولوجى هو الآخر، وأن يكن يستند إلى مرجعية دىنية لا وضعية . وأرى أن الحركات الأصوبىة فى العالم  
العربى هى إعادة إنتاج للنزعة القومىة القدىمة فى رداء فكرى جدىد وأنها تعمل فى مستوى من التحرك  
السىاسى أعلى، وفى مستوى من الوعى العلمى أدنى .

إن هذه النزعة تعتبر فى الغالب الأعم إعادة إنتاج للنزعة الدىنية السلفية المتطرفة، وأن كانت تفتزن فى  
فترة لاحقة بنزعة قومىة متطرفة أيضاً، كما يلاحظ الإنسان ذلك فى التجربة الإربانىة التى كانت حركة  
إسلامىة شىعىة عامة، ولكنها فى فترة لاحقة أصبحت حركة ذات بعد فارسى أو نزعة قومىة فارسىة  
ملموسة ومتمىزة . وبدو أن الحركات الإسلامىة الأصوبىة تحاول أن تلتقى على المستوى العالمى فى  
دعوتها وتعاون فى ما بينها على مستوى الدول المختلفة، وتمد يد المساعدة لبعضها الآخر، كما فى حالة  
التعاون بين الحركات السلفية المتطرفة بأفغانستان والحركات السلفية المتطرفة فى عدد آخر من البلدان، بما  
فىها الحركات الإسلامىة السلفية المتطرفة والإرهابىة بالشىشان والسعودىة والسودان والجزائر وباكستان  
والعراق وسورىا وغيرها التى برزت خلال العقود الثلاثة الأخيرة تحت مسمىات عامة ومحلىة مثل تنظيم  
القاعدة وتنظم داعش، وما أنتجته من تنظىمات فرعىة محلىة تابعة لها، أو منشقة عنها، التى كلها  
تمارس أشكال العنف الممجى والقسوة السادىة ضد شعوب هذه البلدان وغيرها .

تمىل الأصوبىة الإسلامىة (على الأقل بين المسلمىن السنة) بشكل تقليدى إلى الوقوع ضمن النزعات

«التقلدىة» و«الإصلاحىة»:

يقبل التقليديون ب الاستمرارية بين «النصوص» الإسلامية المؤسسة - القرآن والسنة- وتفسيرها .  
يتبنى التقليديون «التقليد» قائلين بما قيل سابقاً ورافضين (البدع)، وكـ«مبدأ رئيسي» يتبعون إحدى  
المدارس الكبرى في التشريع الديني (الشافعي، المالكي، الحنفي، الحنبلي) . ونسخة الشريعة الخاصة بهم  
تشريعية بجوهرها وتوظف في تحديد ما هو صحيح أو خاطئ دينياً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.  
يرتبط التقليديون في بعض الأحيان بصيغ شعبية من الصوفية مثل مدرسة بريلوية في باكستان .

الأصولية «الإصلاحية»، في المقابل، «تنتقد التقاليد والتفسير والممارسات الدينية الشعبية»  
«والانحرافات والخرافات»، وتهدف إلى تنقية الإسلام من خلال العودة إلى القرآن والسنة . الأمثلة من  
القرن الثامن عشر هي شاه ولي الله الدهلوي في الهند ومحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية .  
عادة ما تكون النزعة الإصلاحية هذه «تطوراً كاستجابة لتهديد خارجي» مثل «أثر الهندوسية على  
الإسلام» . في أواخر القرن التاسع عشر، امتدت الحركة السلفية في كافة البلدان العربية «لتشكل طوراً  
بين الأصولية والإسلامية» . كان سيد رشيد رضى (١٨٦٥-١٩٣٥)، وهو من كبار العلماء الأوائل  
للسلفية، يرى أن انتصارات الأجيال الأولى للمسلمين (السلف) كانت مكافأة من الله لهم لكونهم أتباعاً  
مخلصين وألقى باللوم بشأن الانحدار المعاصر للمسلمين على أربعة عوامل رئيسية: I الإمبريالية الأوروبية  
2 الفلسفة الغربية 3 إهمال التطبيق الصحيح للإسلام 4 مذاهب الرفض .

ان السبب الرئيسي لـ [ الصراع الداخلي ] الذي يعيشه السلفي الأصولي اليوم انه الصراع المنبثق من  
التضاد بين الماضي والحاضر بين الواقع و التصور هذا الصراع الداخلي هو بذرة [ الشك ] الدفين الذي  
تولد من داخل السلفية ذاتها . !



و من هنا نجد في الفكر السلفي قمعا و مقاومة لا مثيل لها للشك أو مسألة [ إعادة النظر ] الناتجة من الشك فالسلفي اصلا هو شخص [ شاك ] لا يريد لدينه أن يتقوض و تمسكه بنصية دينه هو موقف دفاعي قبل كل شيء . و لا أعني هنا بـ " شاك " أنه شخص يُشترط أن يكون لديه شكوك حول صحة الدين أو أفكار الحادية و كثرية بل هو شك يصنعه " الصدام " الناتج من تغير الزمن و المكان و المعطيات و الظروف التي هي العدو الأول للأصولية و عبادة النص و التي تعتبر أساس فكر السلفي و عماد مذهبه . . . هذا التنبه الذاتي المؤلم لوقوف السلفية ضد التقدم الطبيعي و التطور المستمر للحياة و معطياتها و الذي ولد الشك في داخل المنهج السلفي هو ناتج في الغالب من النقد المتزايد و القاسي من قبل خصومها و هذا الشك يجعل السلفي في " صراع داخلي " حول مدى ملائمة تعاليمه الحرفية للزمان و المكان و المعطيات و الفكر البشري الحديث . ! و كونه قد أختار الطرف الفاتر سلفا و اختار موقفه في المعركة و هي نصرته منهجه [ الذي ينظر إليه على أنه الحقيقة ] و لو كلف الأمر ما كلف فهو بالتأكيد سيلجأ للدفاع و لن يقبل بالهزيمة . ! أي أن السلفي في الغالب ليس في موقف هجومي كما يبدو من الوهلة الأولى السلفي في موقف دفاعي اصلاً , و هجومه هو خيار دليل على مبدأ : " خير وسيلة للدفاع الهجوم " .

إن صدام كهذا بين ما يسير عليه العالم فعلا و بين ما يعتقد السلفي أن العالم يجب أن يسير وفقا له كفيل بلا ريب أن يولد من الصراع الداخلي ما يبعث الشك في داخل الفكر السلفي . ! التنبه أن العالم يسير باتجاه معاكس . !

سؤال : السلفي يسأل نفسه هل من الممكن أن أكون على خطأ ؟

يبدأ بالتولد ! لكنه يُقمع تماما على يد الحقيقة المزعومة والتي تلف برقبة السلفي كالأغلال . !

فوسيلة السلفي الوحيدة لقمع الشك هو تعزيز حقيقته المزعومة . . بأي شكل كان . !

هذا الدعم الذاتي من السلفية لنفسها يستدعي زيادة التمسك بالنص أكثر وأكثر و محاولة تطبيقه و فرضه أكثر وأكثر . ! هذه المبالغة في التمسك بالنص و إتباعه بمخاديفه لدى السلفي الأصولي إنما هي محاولة لبناء جدار حماية ضد كل عوامل التعرية السابق ذكرها والتي ساهمت في خلق " الشك " . !

أي تقدم الزمان و المكان و الظروف و العقلية البشرية . ! و لا سبيل لديهم في المواجهة سوى إحياء و إظهار فكرهم بكل ما لديهم من قوة و من ثم محاولة فرضه ليعم في المجتمع و يكون له وجود و حضور قوي و لافت . !

هذا الفرض أو محاولة الفرض من قبل السلفي لفكره و محاولة تطبيقه ذو أهمية كبرى طبعاً . . فرؤية ما يؤمن به كواقع معاش هو وسيلة لا بد منها لطمأننة نفسه المضطربة و التي يخالجها الشك الناتج عن الصراع الداخلي لديه . . . إنه إرضاء للذات و في نفس الوقت البحث عن بعض الأمان الذي يوحي لها بأنها لا تزال على ما يرام و لا زالت تفرض نفسها و تصنع لنفسها وجوداً و مكانة . إنه رد مباشر على الصراع الداخلي الموجود في داخل السلفي . . . الصراع الداخلي حول حقيقة إيمانه و جدواه و صعوبة الإلتزام به في هذا الوقت من التاريخ . !

هناك علاقة طردية لا يمكن إغفالها : و هي أنه كلما تغير العالم و تقدم أكثر كلما أستدعى ذلك زيادة جرعة الإنغلاق و التشدد أكثر و أكثر بقدر التقدم الحاصل . ! فمن خلال تاريخ الأصولية و صعودها و

هبوطها عبر التاريخ نستطيع أن نلاحظ بشكل واضح أن أهم ما تركز عليه الأصولية أو السلفية هو " الإنغلاق " على ذاتها . ! و محاولة منع التجديد و التغيير بكل الطرق و التنديد به و محاربته . و لأن الإنغلاق كان مهمة أسهل بكثير في السابق منها الآن . . نجد أن السلفية تدخل في صراع ضاري لم تعد عليه ابدا خلال تاريخها و هو صراع يجعل السلفية المعاصرة تصاب بالجنون و العدائية المفرطة . ! في عالم متغير و مليء بالأفكار و سهولة تناقلها أصبح السلفي يتوجس من كل شيء و ينظر بعين الريبة إلى كل شيء على أنه العدو فإحذرهم . ! كما ذكرنا هذا يعني زيادة التمسك أكثر و أكثر بما كان دوما مصدر الطمأنينة و الأمان . !

إن الزمن الحالي بطبيعته هو ضد الإنغلاق . . . و محاولة الإنغلاق فيه تمثل مهمة شاقة جدا و يصعب تحقيقها . ! هذا الإنفتاح المهول و الغير مسبوق على جميع الجهات و خصوصا المعلوماتية زاد من حدة الصراع ضد الآخر و أضاف للسلفية قطب صراع جديد عبارة عن " ببيع " لم يكن بالحسبان قبل سنين بسيطة . . هذه الأزمة المعاصرة للسلفية رشت الملح على الجروح و جعلت السلفية تتطرف أكثر و أكثر في محاولة الرد على الإنفتاح بإنغلاق مضاد و مبالغ فيه [ تذكر العلاقة الطردية السابقة ] و إبتكار أساليب دفاعية جديدة تقمع الشك . !

السلفية و في مسيرتها في قمع الشك لم تستخدم القوة فقط حيث أن القوة لا تعني شيئا في بعض المواقف بل إنها قد ابتكرت حتى الأساليب التي تحول الخسائر التي لا شك أنها تشربتها بمرارة . . . إلى إبتصارات مدوية . !

مثلا كل تقدم أو إنجاز لغيرها أصبح بدلا من أن يثير الشك أكثر وأكثر في الأصولية أصبح يتم تحويره  
ليدعم موقفها أكثر وأكثر . ! فكل المنجزات الحديثة التي لا شك في إيجابيتها انتهى الأمر بهم إلى  
الإدعاء بأنها موجودة في نصوصهم منذ القدم . !

كل معاني التقدم والعدالة والنظام الذي توصلت له بقية المدارس الفكرية وأظهر إيجابية مطلقة أصبح  
بقدره قادر موجود " أصلا " في نصوصهم . !

" خداع الذات " وإقناعها بالقوة هو نقطة من نقاط السلفية التي نشأت من الشك . . والتي تضيفها  
لآلتها الدفاعية الذاتية في قمع الشك . ! صنع واقع وهمي . . . [ تحاكي ] فيه السلفية أنها تسير مع  
العالم ولا تسير عكس التيار . ! في محاولة لردم الهوة الواضحة بينها وبين العالم من حولها والمتمثل في  
الزمان والمكان . !

إن الشك الذي يملأ العقلية السلفية اليوم يمكن ملاحظة آثاره بكل وضوح إذا ما دققنا قليلا . ! قد يبدو  
مخادعا ويلبس ثيابا مخادعة ويرفع شعارات مزيفة رنانة لكنه لن يخفى على العين الحبيذة الفاحصة . !  
الأصولية قد تبدو بسيطة ومتحجرة وجاهلة بكل ما حولها من النظرة الأولى . !

قد تبدو منغلقة و متمنعة و جاهلة و تمتلك قدراً " لا بأس به " من الغباء والرجعية لكنها تحجب  
خلف هذه الصور النمطية التي رسمناها عنها المزيد من المعاني التي تخفيها . !

### الأصولية السلفية المعاصرة

شهد الوطن العربي، في الربع الأول من القرن العشرين، تغيرات سياسية واجتماعية وثقافية أدت إلى نشوء جمعيات وأحزاب سياسية قومية واشتراكية وإسلامية، وظهرت الأصولية السلفية أول مرة في صيغة حزب سياسي «عصري» أو جمعية سياسية هي «جماعة الأخوان المسلمين» أسسها الشيخ حسن البنا (تلميذ الشيخ رشيد رضا) في الإسماعيلية بمصر عام 1928. وكان تأسيسها في جزء منه رد فعل على انتشار التيار العلماني التحديثي المتأثر بالثقافة الغربية. وانحصرت دعوتها في المحافظة على القيم الإسلامية وبناء المجتمع الإسلامي وإقامة الدولة الإسلامية. وقد مهد حسن البنا للانتقال بالأصولية الدينية إلى الحركة السياسية بتعريفه الإسلام بأنه «عبادة وقيادة، دين ودولة، روحانية وعمل، صلاة وجهاد، مصحف وسيف» وجعل من السياسة المباشرة واجباً من واجبات المسلم لا يتم إسلامه إلا بأن يكون سياسياً. وشهدت هذه الحركة تطوراً نوعياً في ظل منظرها سيد قطب الذي ذهب إلى اتهام المجتمع بالجهل وتكفير الدولة ودعا إلى التشبه بالسلف الصالح متأثراً بأفكار أبي الحسن الندوي وأبي الأعلى المودودي، وهي السمات الأساسية لكل الحركات الإسلامية الأصولية التي تفرعت من الجماعة أو تأثرت بها.

وقد نشطت هذه الجماعات السياسية الدينية، وتكاثرت في أوائل السبعينات، إثر حرب حزيران عام 1967 وما نجم عنها من تداعيات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، ولاسيما حالة الإحباط التي غزت الأيديولوجية التقليدية وزادتها قوة ونفوذاً، مما يدل على أن هذه الحركات كانت تعبيراً عن أزمة المجتمع وليس حلاً لها، وقد تباينت رؤاها وبرامجها ومناهجها حتى بات من الصعب سلكها جميعاً في

سلك واحد فظهر منها المعتدل والمتطرف والأكثر تطرفاً وتشدداً كما ظهر منها الناقد على حكومته ونظائرها مثلما برز التأثير على المحتل والغاصب عدو الدين والوطن .

## رابعاً

### التفسير الرجعي او السلفي وأثاره التخريبية

التفسير في اللغة : تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول ، وفعله : كضرب ونصر  
يقال : فسر الشيء يفسر بالكسر ويفسره بالضم فسرا ، وفسره : أبانه ، والتفسير والفسر : الإبانة  
وكشف المغطى ، وفي لسان العرب : الفسر كشف المغطى . والتفسير كشف المراد عن اللفظ  
المشكل . وفي القرآن : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ، أي بيانا وتفصيلا والمزيد من  
الفعالين أكثر في الاستعمال .

والتفسير في الاصطلاح : عرفه أبو حيان بأنه : " علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتمتد لذلك " .

### إشكالية التفسير الأساسية ؟

يأتي التفسير على رأس العلوم التي تعكس التفاعل الإنساني مع الوحي، إنه، بمعنى آخر، الصورة المثلى للقاء الإنسان مع الله، عز وجل، وتواصله معه فهما آلياته وتمثلاً لأحكامه، لذلك كان التفسير من أقدم العلوم والمجالات التي شهدت على استمداد الإنسان من الوحي واستناده إليه . وهو إلى جانب ذلك، يتميز بخاصية التجدد والاستمرارية بما يعرضه من الدلالات القرآنية المتجددة والمستمرة في الوجود والكون.

وقد مر التفسير بمراحل في تاريخه، تشكلت فيها صورته وتحدت مادته، على أساس التفاعل بين رؤيتين: رؤية النص المفسر؛ أي الرؤية القرآنية التي تنزلت تباعاً مع تنزلات الوحي، حتى استوت واكتملت مع إكمال الدين وإتمام النعمة به على المسلمين، ورؤية النص المفسر: أي الرؤية الإنسانية التي تلقت هذا الوحي تبييناً وبياناً وتنوعت مستويات هذا التبين والبيان بحسب الزمان والمكان والإنسان . فكان التفاعل بين الرؤيتين، على مر العصور التي تلت نزول الوحي إلى الآن، تتجاوزه هيمنة رؤية المفسر أحياناً، وهيمنة رؤية النص المفسر أحياناً قليلة .

ولأن المفسر قبل أن يكون شارحاً لكلام الله تعالى، هو إنسان منفعل بثقافة معينة ومجتمع معين، لم يكن بالإمكان فصله عن خلفياته الثقافية والسلوكية والمجتمعية تلك، لكن القرآن الكريم، في المقابل، لا يمكن

مجال توجيه دلالاته تبعاً للتصورات المذهبية والآراء الخاصة للمفسر، كيف وهو الكتاب الذي جاء

ليتخطى حدود الزمان والمكان والإنسان؟

تلك هي إشكالية التعامل مع القرآن الكريم، وإشكالية علم التفسير بصورة أدق: إشكالية تتحدد أسئلتها

الكبرى في: كيفية التوفيق بين رؤية المفسر التي توجه عمله التفسيري وفهمه القرآن وتمثل دلالاته، وبين

الرؤية القرآنية المودعة في كلماته وآياته وسوره؟ وهل من مدخل آمن إلى التفسير، وإلى اقتناص تلك الرؤية

القرآنية الخالصة، يعصم صاحبه من السقوط في مزالق التأويل الجاهل والتحريف الضال؟

لا نزعم في هذا المحور الضيق أننا نستطيع الإجابة على هذه الأسئلة الكبيرة، وإنما هي محاولة منا لطرق

باب البحث في هذه القضية، نبرز من خلالها وضع التفسير بين التوجيه المذهبي، والمدخل المصطلحي،

على أساس أن التوجيه المذهبي شكل المأزق في هذه المسألة بينما نرجو أن يشكل المدخل المصطلحي

حلالها .

### بيان المقصود بالتوجيه المذهبي والمدخل المصطلحي

أما التوجيه المذهبي، فالمقصود به هنا التأثير الذي تركه التمذهب بصورته المختلفة العقديّة والفقهية في

التفسير، وتوجيهه لخدمة آراء المفسرين .

أما المدخل المصطلحي: فقد يكون في استعمال لفظ "المصطلح" هنا بعض التجاوز والتجاوز لما كان

يستعمل عند القدماء (فهم عادة ما يستعملون كلمة: اللفظ أو المفردة، أو الكلمة) إلا أن القصد هنا

وهناك واحد، وهو اعتبار الألفاظ والمفردات والمصطلحات مدخلا لبيان القرآن الكريم كله، على اعتبار



أن المصطلحات هي مفاتيح العلوم والمداخل الطبيعية لها، ولم تقل هنا المدخل اللفظي أو “المفرداتي”، حتى لا يلبس الأمر بالتفسير اللغوي المحض الذي لا يصل إلى بيان الدلالات القرآنية المتضمنة في المفردات، لذلك كان التعبير بالمصطلح أدق، لأنه الوعاء الأنسب لما تحمله مفردات القرآن الكريم من مدلولات ورؤى خاصة.

### المدخل المصطلحي وبدايات التفسير

سجلت أولى مراحل التعامل مع القرآن الكريم، زمن النزول، اهتماما خاصا بالألفاظ والمفردات القرآنية، خاصة تلك التي كانت تحتاج إلى بيان، إما لأن الأذان لم تألفها، وكانت قليلة الاستعمال بعيدة المعنى، أو لأنها كانت تحمل مدلولات جديدة لم تعرف العرب لها مثيلا في معجمها الدلالي. وقد أثمر هذا الاهتمام الخاص البدايات الأولى للتفسير ممثلة في ما يعرف بكتب الغريب التي ستخرج من رحمها كتب المفردات وهي معاجم للمصطلحات القرآنية.

ولم يكن عبثا ولا من قبيل الصدفة أن توجه عناية المفسرين الأوائل من الصحابة والتابعين إلى تفسير الألفاظ والمفردات: فقد يكون ذلك منسجما مع طبيعة المرحلة وطبيعة المتلقين للقرآن الكريم. حيث كان التحدي الأكبر للقرآن الكريم هو المتمثل في اللغة، ولذلك انصرفت جهود العلماء في هذه المرحلة إلى التعامل مع المعجم القرآني الخاص الذي استعملت فيه أحيانا ألفاظ بعدت عن الفهم واحتاجت إلى البيان من لهم علم ودراية بالمعجم اللغوي والشعري الموروث عن العصور السابقة.

وقد يكون ذلك إشارة إلى أهمية فهم هذا المستوى من النص: مستوى المفردات، ومحوريته في فهم الآيات.

لقد أثمرت هذه المرحلة، كما سبقت الإشارة، ما يسمى بكتب الغريب، فكانت هذه الكتب التي لم تعد تفسير المفردة الغريبة البداية الحقيقية للتفسير. ثم سرعان ما أضيفت إلى هذا المستوى المعجمي الخالص، مستويات تركيبية وصوتية وقرائية فرضتها طبيعة الخطاب القرآني، وهو ما أتيح ما يسمى بكتب معاني القرآن.

ومع التطور الذي شهده علم التفسير، تفرقت سبل العلماء في رسم استمرارية هذا العلم، بين منهج معجمي حافظ على خصائص تفسير الغريب وطورها، وبين منهج تفسيري، سار نحو توسيع دائرة البيان، لتشمل اللغة والقراءة والمعاني والأحكام، مع ما صاحب هذا التوسيع من ضرورات جمع الأقوال وتوثيقها والترجيح بينها، وما صاحبها أحيانا من حجاج ومحاورات علمية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد بدت آثار ثقافة المفسر وطبيعة العلوم والمعارف السائدة في عصره، على مسار التفسير، فظهرت نزعة التخصص والمذهب التي كان تفسير القرآن الكريم -لأسباب مختلفة- مجال عرضها واستعراضها، ومآل استمداد الحجية والشرعية لها.

### **التوجيه المذهبي ومقاصد التفسير**

في تتبعنا لهذا المسار الذي تدرج فيه علم التفسير، نلاحظ بوضوح أن غاية التفسير، التي كانت في البدايات الأولى متمركزة حول النص المفسر تروم بيانه للناس، وإخراجه من دائرة الحفاء إلى دائرة التجلي، ومن دائرة الفهم إلى دائرة التطبيق، قد زاغت عن ذلك لتتمركز حول المفسر، وآرائه ومذهبه وثقافته، وهذا ما نلمحه في التفسير المتخصص أو المذهبي بأنواعه وأوانه.

فالتفسير الفقهي، متمثلاً في كتب الأحكام، لم يركز على بيان مراد الله، عز وجل، من كتابه، والكشف عن مقاصده. وإنما كان همه الأساس بيان الأحكام الفقهية والتدليل عليها، حتى وقع التعسف في تفسير الآيات بتحميلها من الأحكام الفقهية وفروعها ما لا تحتمله سياقاتها، ولا تعبر عنه دلالاتها القرآنية مما جعل هذا التفسير مدخلاً للفقه، والقرآن الكريم خادماً للمذهب الفقهي وليس العكس. وقد تنبه أصحاب مدرسة المنار إلى خطورة هذا المنحى في التفسير، وفي تفسير المنار إشارات بليغة في نقد هذا المنحى، من ذلك ما جاء في معرض تفسير الآية: 173 من سورة البقرة: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم): “ويذكر بعض المفسرين في هذا المقام مسائل خلافية في الميتة كحل الانتفاع بجلودها وغير ذلك مما ليس بأكل، وقد قلنا إننا لا نعترض في بيان القرآن إلى المسائل الخلافية التي لا تدل عليها عبارته إذ يجب أن يبقى دائماً فوق كل خلاف” ويعلق رشيد رضا على كلام أستاذه الإمام هنا بقوله: “إنه رحمه الله كانت خطته الغالبة في ترك المسائل الخلافية التي لا يدل عليها القرآن وهذا غير الخلاف في مدلول عباراته... وقد زاد المفسرون على هذه الحرمات تبعاً لفقهاءهم محرمات أخرى استدلوا عليها بأحاديث آحادية في دلالتها نظر وبعموم تحريم الخبائث وهي معارضة بما في هذه الآية وغيرها من الحصر. وقد حققت هذه المسألة في تفسير: (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم) (الأنعام: 140) إلخ، وفندت ما قيل في تأويلها بما ظهر به أن القرآن فوق كل خلاف”.

أما التفسير الكلامي، فقد كانت مقاصده الكبرى تتحدد في التدليل على صحة المذهب الكلامي للمفسر، والبحث عن شرعية الآراء والاجتهادات الكلامية في الآيات القرآنية، معتمداً في ذلك على آية

التأويل المجازي تارة وعلى ثنائية المحكم والمتشابه تارة أخرى. فلم يقصد هذا التفسير بيان القرآن للناس، وتفهم مراده عز وجل الذي قصده من كلامه، بل جعله مجالا لعرض مسائل وجزيئات وتفريعات لا علاقة لها بالآيات القرآنية دلالة وسياقا، فكان بذلك تفسيرا مذهبيا موجها للنخبة خادما لمقاصدها، ولنا في تفسير الفخر الرازي "مفاتيح الغيب" خير مثال على ذلك، حيث يأخذنا في مآهات التفريعات من مسائل ووجوه وأمور وأقوال، وكلها في استطرادات علمية لا علاقة لها بتفسير الآية المقصودة بالتفسير أما التفسير الصوفي أو الإشاري، فإن بناءه على أساس تقسيم الخطاب القرآني إلى ظاهر وباطن، وتقسيم المتلقين للقرآن إلى عامة وخاصة، وأن الوصول إلى الباطن لا يتأتى إلا للخاصة عن طريق التأويل الإشاري، المبني على آيات عرفانية كالإلهام والكشف والتجلي والرؤيا... لم يدع مجالاً لاعتبار قواعد الخطاب في العملية التفسيرية من سياقات لفظية ومقامات تداولية. وهو إلى ذلك تفسير ينطلق من القرآن الكريم باعتباره مصدرا للإشارات العرفانية، فيفهمها بحسب ما تمليه عليه التجربة الصوفية الخاصة، وهو بهذا المعنى يتقاطع مع أنواع من التفسير المتخصص الذي جعل تخصصه المعرفي يهيمن على فهم القرآن وليس العكس، وكما كانت تلك الأنواع من التفسير تلي حاجة المتخصصين في تلك المعارف (نحوية أو فقهية أو كلامية)، فإن التفسير الإشاري يلي أيضا حاجة خاصة ويعرض معرفة من نوع خاص موجّهة لطبقة خاصة.

إن جنوح التفسير بكل اتجاهاته وأطيافه، إلى خدمة المفسر على حساب المفسر، والتمكين للمذهب والثقافة الخاصة للهيمنة على القرآن، لا لهيمنة القرآن على ذلك المذهب وتلك الثقافة، يجعل قيمة هذا التفسير اليوم، -بالنظر إلى المقاصد التي يجب أن توجهه وهي بيان القرآن للناس- تنحسر لتصبح مجرد

قيمة تاريخية، لا تأثير لها في واقع الناس، ولا في تلقي معاني القرآن الكريم الملائمة لهذا الواقع. وفي أحسن الحالات هي قيمة علمية وثقافية محضة بحيث أغنت مكتبة التراث بالعلوم والمعارف التي وُظفت في التفسير كاللغة والبلاغة والفقه والكلام وغيرها...

والسبب في ذلك يرجع أساساً إلى المنهج الذي اتجهه هذا التفسير عموماً في التعامل مع القرآن الكريم، منهج جعل المذهب، كلامياً كان أو فقهياً، هو الموجه الأساس لعملية التفسير: فهما واستنباطاً، فُسر القرآن بمقتضى ما يريده المفسر ويقصده، لا بما يدل عليه القرآن الكريم ويقصده، والقرآن الكريم إنما يمنح التجدد والاستمرارية لمفسره إذا جعل المفسر الدلالة القرآنية وسياق الخطاب هما المنطلق للتفسير، والفهم لمقاصده وتمثل هداياته هو الغاية منه.

هذا الوصف لحال التفسير لا يعني خلوك كتب التفسير مطلقاً من بيان القرآن للناس، كما لا يعني غياب مسارات أخرى في التفسير لم تتأثر بالتوجيه المذهبي، وجعلت التفسير جامعاً لبيان القرآن خادماً لما للناس به حاجة.

وإذا كان الأمر على ما وصف، فكيف نحدد مواصفات التفسير الذي ينفع الناس، فيفهمهم كلام ربهم ومراده، وكيفية تنزيل ما يفهمون؟ وإذا كان التأثير المذهبي قد أعاق تحقيق هذه الأهداف، فكيف يمكن الرجوع إلى ذلك المدخل الآمن للتفسير الذي تبيننا بعض ملاحظته من خلال تعامل السلف مع القرآن الكريم، المدخل المفضي إلى تفسير يقرب القرآن إلى الأذهان والقلوب والعقول، فيجعلها تتمثله كما لو كانت قرآناً يمشي على الأرض؟

اهتمام القدماء باللفظ القرآني مدخلا للتفسير

ليس بدعا من القول الدعوة اليوم إلى الالتفات إلى الألفاظ والمفردات والمصطلحات، واعتبارها مدخلا للتفسير، فقد ألمح الراغب الأصفهاني رحمه الله، منذ القرن الخامس الهجري إلى أهمية تحقيق المفردات القرآنية، في فهم معاني القرآن الكريم، وفهم العلوم المحيطة به، حين قال في مقدمة كتابه "المفردات": (إن أول ما يحتاج أن يُشْتَغَلَ به من علوم القرآن، العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة فتحصيل معاني مفردات أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ في كونه من أوائل المُعَاوَنِ لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن: هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمتهم، وإليها مَفْرَعُ الشعراء والبلغاء في نظمهم وثرهم...).

وكما تطور تفسير القرآن الكريم في المسار الذي وصفنا آنفاً، كان هنالك مسار آخر، لمجالات وعلوم اعتبرت من أهم المداخل إلى التفسير، وكان محورها اللفظ القرآني، وتحقيق دلالاته، وتبع سياقاته، كعلم الوجوه والنظائر الذي ظهر منذ القرن الثاني الهجري عند جلة من أتباع التابعين ألفوا في وجوه القرآن ونظائره، وهم يقصدون بذلك: الألفاظ الدائرة في القرآن الكريم على وجوه -أي معان- متعددة. وكعاجم المفردات القرآنية، التي تعتبر الامتداد الطبيعي لكتب الغريب.

إن كتب الوجوه والنظائر، تعكس لونا خاصا من دراسة الألفاظ القرآنية، تتقاطع مع كتب المفردات في الغايات، وتباين معها في المنهج والأدوات. فقد كان هم الدارسين لهذه الوجوه والنظائر ملاحظة دلالات الألفاظ في سياقاتها المختلفة، واقتناص هذه الدلالات من النصوص القرآنية مباشرة. ورغم اختلاف

الدارسين في تصنيف "علم الوجوه والنظائر" ضمن فروع اللغة أو فروع التفسير، فإن ارتباط هذا العلم بالقرآن الكريم وبالتفسير ظاهر بَيّن، لكن الذي يميز كتب الوجوه والنظائر أساسا هو منهج عرض المادة، والمقاصد العلمية التي تكمن وراء هذا النوع من التأليف، فقد كان اهتمام المؤلفين في هذا الفن متجها صوب إحدى الظواهر الدلالية في القرآن الكريم المرتبطة بالألفاظ في علاقتها بسياقات ورودها، حيث يكون للفظ في كل سياق معنى غير معناه في سياق آخر.

والحقيقة أن هذا الأمر هو ما يجعل كتب الوجوه والنظائر تمثل جانبا مهما من اهتمام علمائنا بالمصطلح القرآني، جمعا ودراسة، ويجعلها أيضا مصدرا مهما لمن أراد تحقيق المفردات والمصطلحات القرآنية واعتماد ذلك مدخلا لتفسير الآيات التي وردت فيها، ومن ثم تفسير القرآن الكريم كله، أما معاجم المفردات القرآنية، فهي تعكس وعي العلماء، ممن ألفوا فيها، بأهمية دراسة ألفاظ القرآن الكريم وبيان معانيها التي استعملت فيها في القرآن الكريم؛ خاصة في ظل تشعب العلوم المرتبطة بالوحي، وحاجة المتخصصين فيها إلى الاستمداد من القرآن الكريم، وتأصيل الكثير من المفاهيم والمصطلحات انطلاقا منه، هذا فضلا عن حاجة المفسرين للقرآن الكريم أنفسهم إلى معرفة دلالات الألفاظ القرآنية التي تتعلق بها الأحكام والمعاني.

لكن هل تفي كتب الوجوه والنظائر، ومعاجم المفردات القرآنية بالغرض؟ وتكفي لبيان القرآن الكريم للناس؟ وهل يكفي الرجوع إليها لتحقيق المقاصد المرجوة من التفسير؟

إن تلك المصادر تمثل جهود السابقين في خدمة علم التفسير، وتعكس حسا منهجيا بضرورة الالتفات إلى هذا المدخل المصطلحي للتفسير، وهي جهود تستحق الدراسة والتحصيص، والاعتماد عليها منطلقا -

لا منتهى - للبحث في سبل ومناهج أكثر ملاءمة لثقافة العصر، ولخدمة الأغراض التي تتوخاها من التفسير، دون الخروج عن الثوابت والضوابط التي تحكم العملية التفسيرية برمتها، أنى كان منهجها وأدواتها. حتى لا تصبح دعواتنا هاته، ملتبسة بدعوات مجانية للتجديد والتحديث لا تميز بين أصيل ودخيل، ولا بين ثابت ومتغير.

### مقاربات جديدة للتفسير اليوم

لقد تبين اليوم لكثير من الدارسين المهتمين بالدراسات القرآنية، والتفسير على وجه الخصوص، أهمية اعتبار الألفاظ والمصطلحات مدخلا للعملية التفسيرية، وسأعرض في عجالة نماذج لمقاربات اعتمدت، بشكل أو بآخر، هذا المدخل لتفسير القرآن الكريم .

### المقاربة الموضوعية

تعتبر فكرة التفسير الموضوعي من أهم مظاهر التجديد في التفسير في العصر الحاضر والغالب على نظرية التفسير الموضوعي، حسب ما تشير إليه تسميته، هو الانطلاق من الموضوع الواحد لدراسة الآيات المتعلقة به، لكن هذا التفسير يتوسل في إحدى صوره بالكلمة القرآنية لتفسير القرآن الكريم، حيث يتبع المفسر الكلمة من "كلمات القرآن الكريم، ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها، يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها". وقد بينت الدكتورة بنت الشاطي ملامح هذا المنهج تحت ما أسمته "بمنهج الدراسة



القرآنية” ضمن كتابها “مقدمة في المنهج” ، وطبقته في دراسات لها كان أبرزها دراستها عن “الإنسان” في القرآن .

ورغم أن المميّز في هذا اللون من التفسير هو انطلاقه من النص القرآني نفسه لتفسيره، إلا أنه مع ذلك لم يمتلك من الأدوات المنهجية ما يجعله وفيًا للبنية الداخلية للنص المفسّر أكثر من الرؤية الخاصة للمفسّر، ولذلك فهو لم يختلف عن نمط التفسير “التقليدي” إلا في الشكل، ومن ثم لم يؤمن فيه الانفصال عن النزعة المذهبية، أو البعد عن المعالجة الإنشائية الأدبية لموضوعات القرآن وقضاياها.

كما أن هذه الفكرة لم تتبلور في شكل مشروع متكامل، يمكن تبين ملامحه بوضوح، فمع تعدد الرؤى والمناهج والأدوات لدى أصحاب الفكرة، وظهور مدارس واتجاهات داخل هذا النوع من الدراسات، أصبح من الصعب الركون إلى اتجاه بعينه، والرجوع إلى نموذج تطبيقي كامل وشامل وواحد، يفسر القرآن الكريم كله من منطلقات هذه الفكرة.

### المقاربة الدلالية

وتقوم هذه المقاربة على محورية اللفظ في فهم النص القرآني، ولا يتم التعامل مع اللفظ هنا من زاوية معجمية محضة، أي من حيث دلالاته اللغوية قبل النزول، بل التركيز يكون على دلالاته المكتسبة من الاستعمال القرآني له، ومن أهم من كتب في هذا الموضوع المستشرق الياباني (توشيكو إيزو تسو) . وكانت أول دراسة له بهذا المنهج تلك التي صدرت في منتصف القرن الماضي بعنوان (بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن)، ثم الدراسة المتميزة التي صدرت في الستينات (1964) عن (الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم)، والتي ترجمت مؤخرًا إلى اللغة العربية، وقد درس الباحث

في هذا الكتاب عدة مفاهيم عقدية (منها: الله، الغيب والشهادة، الأمة، الدنيا والآخرة، الوحي، الدعاء...) وأهم ما خلص إليه في دراسته: أن القرآن أعاد استخدام المفاهيم وأضفى عليها قيما جديدة من خلال سياقها القرآني، وهذه القيم هي التي تكشف عن الرؤية الكونية للقرآن الكريم.

### المقاربة السياقية

والمقصود تحديدا بالمقاربة السياقية هنا، ما نشهده عند بعض المهتمين بالدراسات القرآنية، والمعنيين بتطوير مناهج التفسير، من اهتمام متزايد بضرورة استثمار النظرية السياقية عند علمائنا القدامى، بعد تطويرها وتجليتها في الصورة المناسبة للثقافة المعاصرة، في بناء منهج متكامل لتفسير القرآن الكريم ردا على من يحاول إخضاعه لكل القراءات والتأويلات الممكنة.

وحين نقول السياق، فإن المفردة تشكل أحد أهم مكوناته اللفظية، ورصد المفردات في علاقتها ببعضها، وتعلق دلالاتها بدلالات بعض، هو ما يجعل المقاربة السياقية تدخل ضمن ما نتحدث عنه هنا من اعتبار الألفاظ والمصطلحات مداخل للتفسير، وقد ربطت الدكتور بنت الشاطئ ربطا دقيقا بين السياق والمفردات لتأسيس نظر جديد في كلام الله عز وجل، فقالت شارحة المنهج الذي تقترحه: (إن ضوابط منهجنا الالتزام بصريح النص وحكم السياق، والالتزام بدلالات الألفاظ كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ في المصحف والاحتكام إلى توجيه صريح السياق).

والسبب في عدم انفكاك الكلمة عن السياق هو طبيعة وضع الكلمة في القرآن الكريم فالكلمة قرآنية كما تقول بنت الشاطئ (لا تقوم مقامها كلمة قرآنية أخرى في غير سياقها... ومن ثم لا تعلق في فهم الكلمة القرآنية بالتماس كلمة أخرى تفسرها، وإنما همنا أن نفهم سر الكلمة في سياقها).

وقد ربط أحد الباحثين المعاصرين ، بين السياق ودراسة الألفاظ والمصطلحات القرآنية حين دعا إلى تأسيس علم جديد أو إحيائه بأدوات معرفية جديدة، يمكن تسميته (علم النص القرآني) ويكون همه تحديد دلالات الألفاظ القرآنية وفق الخبرات العلمية الجديدة وضبط المناهج التفسيرية والتأويلية، ومن ثم وضع الحدود المفاهيمية للمصطلحات القرآنية ولنظومة القرآن المعرفية . ونظرا لخطورة مثل هذه الدعوة إذا تركت على إطلاقها، فقد نبه الباحث إلى أن هذا العلم النصي القرآني المنشود لا يحق له أن ينبت عن أصوله ومصادره التاريخية، ويهمل التراث الإسلامي المتمثل في الكثير من مباحث علوم القرآن والمباحث النحوية والبلاغية والأصولية.

ويبدو أن هذه المقاربة السياقية، لا تضع المدخل المصطلحي في صلب اهتمامها، فاهتمامها بالألفاظ والمصطلحات مدخلا للتفسير تحكمه فكرة السياق عموما، بحيث تصير المفردات والمصطلحات وسيلة من الوسائل المعينة على الوصول إليه وكشفه وتعيينه . ولذلك لن نستطيع التعويل كثيرا على هذه المقاربة في إعادة النظر في مداخل التفسير التقليدي، وإبراز أهمية المدخل المصطلحي، خاصة مع غياب نماذج تطبيقية على النص القرآني، وتبقى للسياق مكانته المعروفة، منذ القدم، ضمن أدوات التفسير، وخاصة أثره في تعيين دلالة اللفظ على المعنى .

### **المقاربة المصطلحية**

المقاربة المصطلحية هنا نسبة إلى "الدراسة المصطلحية"، وليس إلى "علم المصطلح" المهتم أساسا بوضع المصطلح وتوحيد استعماله وتعريبه وترجمته وتقييمه وتنميته، وأول ما يتبادر إلى الذهن من مسمى "الدراسة المصطلحية" أن المقصود بها: "الدراسة التي تجعل من المصطلح موضوعا لها".

وتطبيق هذا الضرب من الدراسات على مصطلحات العلوم المختلفة موجود قديما وحديثا، لكن الجديد فيها هو تطبيقها على النص القرآني .

والمقاربة المصطلحية بهذا المعنى تحتاج إلى تعريف بأصولها النظرية، وأدواتها المنهجية، وقواعدها، وأهدافها . لكننا سنوجز القول في كل هذه الأمور بما يخدم القصد الأول في هذا المقام، وهو المدخل إلى التفسير وخدمة مقاصده .

وقد أصبح من المعلوم اليوم، وقديما أيضا، عند علمائنا الذين وضعوا أصول تفسير القرآن الكريم وقواعده، أن أسلم الطرق إلى معرفة مراد المتكلم من كلامه وأحكامها، هي معرفة لغته أولا ثم سياقات استعماله لها، ومقامات خطابه للمتلقين لها في زمن الخطاب، والأحوال المصاحبة لكل ذلك، وذلك فعلا هو ما تقوم به الدراسة المصطلحية في دراستها لنصوص المصطلحات، وبذلك حقا قد تلتقي مع التفسير، وتصحح بعض منزلقات أهله .

ولما كان تعريف المصطلحات والمفاهيم هو المقصد الأعلى للدراسة المصطلحية، فإنها بذلك تخدم أحد أهم مقاصد التفسير، وهو مقصد البيان الشافي لمراد الله عز وجل من كلماته التي تشكل نفسها المدخل لبيان القرآن الكريم كله . وهل هناك أسمى بيانا من التحديد والتعريف؟

لأجل ذلك كان التعريف زبدة الدراسة المصطلحية، وكان قيامه على أساس متين من المراحل والخطوات المنهجية [18]، لأنه في النهاية يقدم لنا خلاصة ما يطلبه المتلقي من القرآن الكريم وهو: الفهم الصحيح

الذي يكون مقدمة للعمل السديد . وإذا كان تحديد المصطلحات والمفاهيم في مجال الفهم والتفاهم والتحاور والتناظر في مختلف المعارف والعلوم، هو السبيل الأسلم للوصول إلى نتيجة مثمرة، فكيف لو

كان في مجال القرآن الكريم، وهو الذي يتشكل من نسق من المفاهيم "إذا حصلت حصلت كليات الدين، وإذا لم تفقه لم يفقه الدين؟".

لقد سيطرت الرؤية المذهبية على التفسير قرونا طويلة، فحجبت عن المتلقين استمداد هدايات القرآن الكريم الربانية الخاصة، فأخذوا إلى متاهات التأويلات، ومهالك الإسقاطات بعيدا عن وحدة القصد وصفاء النبع، لذلك لم تغب يوما عن العلماء المجددين في سائر العلوم الإسلامية، عموما، والمهتمين بشأن التفسير، على وجه الخصوص، الدعوة إلى تطوير هذا العلم، وإخراجه من ضيق الرؤية المذهبية إلى سعة الرؤية القرآنية... وليست هذه المقاربات الجديدة، إلا محاولات للخروج بالتفسير من المأزق الذي وصل إليه حين حُكِّم الفهم الخاص والتصوير المسبق للمفسر في العملية التفسيرية.

وإن إثارة هذا الموضوع اليوم، وتقريب هذه النظرات الجديدة، في مجال معرفي مهم وخطير (وهو علم التفسير)، هو محاولة ودعوة للتفكير في تجديد النظر في هذا العلم، على أسس علمية متينة وطرق منهجية رصينة، وهي صورة من صور أعمال سنن الله في الكون: سنن التطوير والتجديد. وعلم التفسير من أكثر العلوم حاجة إلى التطوير والتجديد؛ لأنه المجال الذي تعرض فيه دلالات القرآن الكريم المستمرة في الوجود والكون والمتجددة مادام الوجود والكون.

### أسباب الاختلاف في التفسير

لا يخفى على أحد الخلاف الواقع بين المفسرين، ومن طالع في كتبهم يدرك ذلك، ولكن الخلاف بينهم على نوعين اختلاف مدموم واختلاف سائغ وبعضهم يسميه "خلاف محمود"، ولكليهما أسباب، وقبل الكلام على الأسباب لا بد من الكلام على بعض المقدمات، وهي تعريف الاختلاف، فالاختلاف هو ضد

الاتفاق، وقال الراغب: "الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة"، الاختلاف: لغة ضد الاتفاق، قال بعض العلماء: إن الاختلاف يستعمل في قول بني علي دليل، والخلاف فيما لا دليل عليه".

ونبدأ بالاختلاف المذموم وهو اختلاف التضاد قال السيوطي: "الاختلاف على وجهين اختلاف تناقض وهو ما يدعو فيه أحد الشئيين إلى خلاف الآخر"، وهذا الاختلاف محمول على الاختلاف في الأصول دون الفروع.

فهذا النوع مثل اختلاف الفرق المبتدعة المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنهم يفسرون القرآن بما يوافق أهوائهم ومعتقداتهم الفاسدة، كما هو الحال في تفاسير الرافضة والباطنية والصوفية والمعتزلة والأشاعرة، يقول محمد السيد الذهبي رحمه الله: "الكتب التي جدت بعد ذلك -يعني بعد الصحابة والتابعين- فإن كثيراً منها، كتفاسير المعتزلة والشيعة، مليئة بأخطاء لا تغتفر، حملهم على ارتكابهم نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة.

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ في الغالب فهما ما يأتي:

الجهة الأولى: أن يعتقد المفسر معنى من المعاني، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذي يعتقده.

الجهة الثانية: أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب . وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به .

فالجهة الأولى: مراعى فيها المعنى الذي يعتقده المفسر من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من

الدلالة والبيان

والجهة الثانية: مراعى فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به والمخاطب، وسياق الكلام .

ثم إن الخطأ الذي يرجع إلى الجهة الأولى يقع على أربع صور:

الصورة الأولى: أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يُراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي المعنى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول، وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة في ذاتها ولكنها غير مرادة .

الصورة الثانية: أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويُراد به، ويحمله على ما يريده هو، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول أيضاً، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة في حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعاني الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية .

الصورة الثالثة: أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأً، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يُراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعاني الباطلة، وذلك كالتفسير المبني على القول بوحدة الوجود، كما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي عندما عرض لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [سورة المزمل:8] من قوله في تفسيرها: واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي اعرف نفسك ولا تنسها فينساك الله . . . إلخ.

الصورة الرابعة: أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأً، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويُراد به، ويحمّله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ في الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع، والمذاهب الباطلة، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلى معنى ليس في اللفظ أي دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة: "الجبّ والطاغوت" بأبي بكر وعمر، وتارة يجتالون على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى فيه تكلف غير مقبول، وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآني يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ "إلى" في قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ \* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاصِرَةٌ﴾ بالنعمة، ذهاباً منهم إلى أن "إلى" واحد الآلاء، بمعنى النعم، فيكون المعنى: ناصرة نعمة ربها، على التقديم والتأخير، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله في الآخرة.

**وأما الخطأ الذي يرجع إلى الجهة الثانية فهو يقع على صورتين :**



الصورة الأولى: أن يكون اللفظ محتملاً للمعنى الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يُطلق في اللغة على معنيين أو أكثر، والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد، وذلك كلفظ "أُمَّة" فإنه يُطلق على معانٍ، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: 22] غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة.

الصورة الثانية: أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى بعينه، ولكنه غير مراد في الآية، وإنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقريئة السياق مثلاً، فيخطئ المفسر في تعيين المعنى المراد، لأنه اكتفى بظاهر اللغة، فشرح اللفظ على معناه الوضعي، وذلك كتفسير لفظ "مبصرة" في قوله تعالى: ﴿ وَأَثَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: 59] بجعل "مبصرة" من الإبصار بالعين، على أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذ المراد: آية واضحة".

ومن أسباب الاختلاف اعتماد بعض المفسرين على الأحاديث الموضوعية والضعيفة، وكذلك الروايات الإسرائيلية التي تخالف العقل والنقل واعتبار ذلك أصلاً في التفسير وهو مناقض لما ثبت في تفسير القرآن.

ومن أسباب الاختلاف اعتماد البعض على مجرد المعرفة باللغة وتفسير القرآن بظاهر العربية دون الرجوع إلى أصول التفسير وأدواته.

وأما الاختلاف المحمود فهو اختلاف التنوع، وهو الذي يمكن الجمع بين الأقوال فيه، كأن يعبر كل مفسر عن المعنى الواحد بعبارات شتى تدور كلها حول هذا المعنى، أو تكتمل بها صورته ويستقر المعنى في

الأذهان، أو أن يفسر بعضهم اللفظ بمعان متنوعة لكنها تدور في محور واحد: وبعض المفسرين قد يفسر المعنى بمثال عليه أو بلازمه، ومن أسباب الاختلاف هذا:

I- أن يكون في الآية أكثر من قراءة فيفسر كل منهم الآية على قراءة مخصوصة.

2- ومنها الاختلاف في الإعراب، فإن للإعراب أثره في تفسير الآية: ومثاله اختلافهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة آل عمران:7]، فقد اختلفوا في ﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ فقيل: عطف نسق على لفظ الجلالة، وقيل: مبتدأ والخبر في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ فعلى القول الأول أن الراسخين يعلمون تأويله وعلى القول الثاني لا يعلمون، وسبب هذا الاختلاف، الاختلاف في الإعراب.

3- ومن أسباب الاختلاف احتمال اللفظ أكثر من معنى كالأشترك اللغوي، فإن بعض الكلمات لها أكثر من معنى في اللغة كلفظ "قسورة" الذي يطلق على الرامي وعلى الأسد، ولفظ "النكاح" الذي يطلق على العقد وعلى الوطاء، ولفظ "القرء" الذي يطلق على الحيض وعلى الطهر، وهناك أسباب أخرى غير ذلك.

4- ومن أسباب الخلاف أيضاً الخلاف في تصحيح رواية وتضعيفها، وكذلك الاختلاف في سبب نزول بعض الآيات بحيث قد يكون في سبب نزول آية قولين أو أكثر.

5- ومن أسباب الاختلاف هذا هو مذهب المفسر الفقهي.

### رؤية منهجية

كان التفسير في حوض علم الحديث، ثم استقل عنه للضرورة المنهجية المتعلقة باختلاف آليات العلمين وماخذهما وضوابطهما، لكن التفسير لم يحافظ على آليات علم الحديث الذي يقوم على توثيق مصادر الأقوال، ويحكمه سؤال رجال الآثار: من قال ومن أخبر؟ ولو بقي الأمر على ما كان لتخففنا من كثير من الخلافات غير المعبرة التي تضج بها أمهات كتب التفسير، والتي غالبا ما ترد عن أهلية التأويل.

ف نجد نسبة الخلاف غير المعبر في أصول الفقه والفقه مثلا أقل مما عليه الحال في التفسير، لما يبني على الأقوال من أصول تشريعية وأحكام عملية، أما التفسير فمداً القول لا يؤصل أصلاً ولا يبني حكماً، تطلق فيه الأقوال والخواطر وتناقض على أنها أقوال في تفسير الآية، وأحياناً تناقض على أنها ضمن التفسير النقلي كما نجده بالنسبة لآراء بعض التابعين وتابعيهم رحمهم الله تعالى.

ولهذا لا يصح القول: "اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على خمسة أقوال أو ستة فذهب بعضهم إلى أن معناها كذا وذهب الآخر إلى كذا"، إلا في حال ارتكاز القول على الدليل، وإلا فإننا لا نجد في الواقع إلا قولين أو قولاً واحداً، والباقي لا يمكن عده ضمن الأقوال التي يعتد بها خلافاً، ولمن هنا تكسبي الجهود التفسيرية لبعض المحدثين والمعاصرين أهمية قصوى في تخليص التفسير من كثير من الحشو والخلاف غير المعبر.

من المعلوم أن التفسير هو: بحث في القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية<sup>2</sup>، فالنص القرآني إذن له مقاصد معينة محددة على المفسر إبرازها، لأن الحقيقة في النص واحدة

لا تتعدد ولا تختلف و"اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والقياسات المركبة عليه، والحق في نفسه واحد".

ولهذا فالوفاق في فهم النص القرآني هو الأصل، والاختلاف عارض، ومن تم كان طلب أصح الأوجه في تفسير كلام الله تعالى من أهم مقاصد طلب العلم، ومع هذا فالكثرة الكثيرة من الآيات قد وقع الاختلاف في تفسيرها، أحيانا لأسباب علمية موضوعية وأحيانا لغيرها من الأسباب.

ويمكن تصنيف أسباب الاختلاف في التفسير في ثلاثة عناصر على الشكل الآتي: أسباب تعود إلى طبيعة النص، وأسباب تعود إلى ما يحف بالنص، وثالثة تعود إلى شخصية المفسر.

المحور الأول: أسباب الاختلاف في التفسير العائدة إلى النص:

ويدخل ضمنها:

الاختلاف بسبب القراءات القرآنية المتعددة للنص:

سأكتفي بالإشارة إلى بعض من تناول هذا الموضوع دون تفصيل القول فيه، لأن الاختلاف في القراءات مدعاة للاختلاف في كم كبير من الآيات القرآنية<sup>4</sup>، إضافة إلى ما يلحق بذلك من الاختلاف بسبب الوقوف، وقد فصل القول فيه في بحوث متعددة<sup>5</sup>.

الاختلاف بسبب ما يحف بالنص من مرويات:

أي مرويات أسباب النزول والنسخ والإسرائيليات، فقد يقع الاختلاف في التفسير بسبب الاختلاف في اعتبار سبب نزول معين من عدمه، أو القول بالنسخ أو عدم القول به أما جملة أو تفصيلا و الاختلاف

بسبب اعتماد الآثار الإسرائيلية من عدمه، فالاختلاف في مثل هذه المرويات كان ولا يزال له أثر مهم في الاختلاف في التفسير. الذي كان له بدوره آثارا علمية في باقي حقول العلوم الشرعية مثل العقائد والأصول والفقه...

الاختلاف بسبب تعدد طرق دلالة النص على المعنى:

لأن النص إما أن يكون؛ "نصاً بالمفهوم الأصولي حيث يفيد معنى واحداً، وإما أن يتراوح بين الظهور والتأويل، أو بين الإجمال والبيان، أو بين العموم والخصوص، أو بين الإطلاق والتقييد، أو بين المنطوق والمفهوم، أو بين الحقيقة والمجاز، كما أن النص يدل على معناه إما مطابقة أو تضمناً أو التزاماً، إلى غير ذلك من الاصطلاحات المبسوطه في مباحث الدلالة، وهذه الأسباب العائدة إلى طبيعة النص تشمل التفسير بالقرآن الكريم والتفسير بالحديث النبوي وأقوال الصحابة وغيرها من الآليات التي يتم بها كشف دلالة النص.

وفيما يلي تفصيل القول عن المسوغات المنهجية التي تسمح بالاختلاف في تفسير القرآن بالقرآن نفسه، والاختلاف في التفسير بالسنة النبوية، والاختلاف في التفسير بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم.

أسباب الاختلاف في تفسير القرآن بالقرآن:

تفسير القرآن بالقرآن منهج لازم لكل متأمل في كتاب الله تعالى بمقتضى الوحدة البنائية للنص القرآني، وضرورة النظر في الآيات بمنهج التكامل والربط بين الجزئي والكلبي، والعام والخاص، والمحمل والمبين، والمطلق والمقيد..

لكن مع أن عملية التأويل في تفسير القرآن بالقرآن تتم بالقرآن نفسه، يعني أن النص المفسر والمفسر لهما نفس قوة الثبوت، إلا أن تدخل العنصر الثاني في العملية التفسيرية أي الذات المفسرة؛ يضفي صبغة الظنية على هذا التفسير، من خلال استعمال المفسر للآليات المعرفية والمنهجية المتاحة له في سياقه التاريخي في الربط بين الآيات، مما يعني أن الاختلاف وارد في تفسير القرآن بالقرآن كما يرد في التفسير بأي مصدر آخر، بل إن هذا الاختلاف قد يصل إلى درجة الانحراف.

فعندما تصفح فهرس أحد أهم التفاسير التي قامت على منهج تفسير القرآن بالقرآن مثل: "أضواء البيان" نجد أنه عنون كثيرا من الفصول بالإشارة إلى الاختلاف في هذا المنهج، وقد ارتأيت التمثيل للاختلاف في تفسير القرآن بالقرآن كالاتي:

الاختلاف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾<sup>9</sup> بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

فرغم أن أضواء البيان من التفاسير التي احتوت قدرا كبيرا من الالتزام المنهجي، إلا أن بعض الأمثلة في تفسير الآيات والآيات أغفل فيها رحمه الله تعالى التزامه المنهجي، ومنها هذا المثال، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ﴾، هذه الآية إذا ضمت لها آية أخرى حصل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، والآية المذكورة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

هنا تساءل أين غابت قاعدة التفريق بين إذا ما كان الكلام حكاية لله تعالى وبين أن يكون محكما لغير الله عز وجل؟ لأنه إن كان لله فلا شك في صحة هذا الحكم، وإن كان محكما لغيره فهو يحتمل الخطأ.

ولأن الكيد هو التدبير الخفي إما لضرر أو منفعة فقد استعمل في القرآن الكريم إما مذموماً إذا نسب للشيطان أو الكفار أو المشركين، أو محموداً إذا نسب إلى الله تعالى، كما في قوله: وأملي لهم إن كيدي متين<sup>12</sup>، ولهذا فالكيد كفعل إنساني يكون مذموماً إذا لم يكن موجهاً بقيم الصلاح ومحموداً إذا كان موجهاً بها، وكيد النساء لا يخرج عن هذا الوصف، ثم إن أول كيد تعرض له يوسف عليه السلام هو كيد إخوته من الرجال: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيُكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)<sup>13-14</sup>.

قد يقع الاختلاف بسبب عدم الأخذ بمنهج تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما عبر عنه الإمام الشنقيطي بقوله: "أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول"<sup>16</sup>، والملاحظ في هذا السياق المفارقة الواقعة بين التنظير للمنهج وبين الالتزام التطبيقي به عند بعض العلماء، وهو ما مثلت له بتفسير مفهوم "القوامة" في القرآن الكريم.

لأنه من القضايا الشائكة التي تم فيها الإخلال بمنهج تفسير القرآن بالقرآن، والتي انطلقت من التفسير لتمتد آثارها المعرفية والاجتماعية إلى الأسرة والمجتمع؛ قضية مفهوم القوامة، من خلال قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)<sup>17</sup>، فقد وقع الكثير من المفسرين في محذور منهجي يتجاوزهم لتفسير القرآن بالقرآن في هذه الآية، كالإمام ابن عطية، فبعد أن ذكر الدلالات اللغوية للقيام، بما فيها: الاستبداد بالنظر والحفظ، قال: "فقيام الرجل على النساء هو على هذا الحد، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة يقتضي أن للرجال عليهن استيلاء وملكا ما"، وهو تقريبا نفس المعنى الذي ذكره الإمام ابن جزري في تفسيره.

وحتى الإمام الشنقيطي الذي تألق في تفسير القرآن بالقرآن، خانه المنهج في تفسير هذه الآية فقال: “معناها أن الرجل أفضل من المرأة، ذلك أن الذكورة شرف وكمال والأنوثة نقص خلقي طبيعي، والخلق كأنه مجمع على ذلك، لأن الأثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي وذلك لجبر النقص الخلقى الطبيعي الذي هو الأنوثة، بخلاف الذكر؛ فجمال ذكوره يكفيه عن الحلي ونحوه!”.

والواقع أنه لو فسر القرآن بالقرآن في نفس الآية، بحيث يفهم قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بربطها بقوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لكانت النتيجة المساواة بين الرجال والنساء؛ فبعضهم على بعض تعني أن الرجال قوامون على النساء بحيث يختص الرجل ببعض المسؤوليات تميزه عن المرأة في أمور، ويتحمل عنها مسؤوليات أخرى تميزها هي عليه في أمور أخرى، فالرؤية القرآنية واضحة في هذه الجزئية إذا تجاوزنا آفة تجاوز تفسير القرآن بالقرآن، لكن الإمام الشنقيطي يقول: ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بعض الرجال على بعض 20، ومعلوم أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، مما يعني: بما فضل به بعض النساء على الرجال، وبعض الرجال على النساء، والله تعالى أعلم.

### أسباب الاختلاف في التفسير بالحديث النبوي:

هناك فرق وبون شاسع من الناحية المنهجية بين التفسير النبوي للقرآن والتفسير بالحديث النبوي، فالأول قليل من حيث الكم، وهو يفيد القطع إذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أما التفسير بالحديث النبوي فيمكن القول بأنه مثل تفسير القرآن بالقرآن عملية اجتهادية في الربط بين الآية القرآنية والحديث النبوي، يقوم بها المفسر بما تسمح به أدواته المعرفية والأفق العلمي لعصره والأسئلة الراهنة التي يفرضها سياقه الحضاري والكوني.



ولذلك قد تفسر الآية الواحدة برأين بحسب حديثين نبويين، فيتشبه كل بتفسيره لانتسابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويغفلا معاً أن التفسير لهما وإن كان الحديث للنبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا عندما لا يتم التمييز بين التفسير النبوي والتفسير بالحديث النبوي باعتباره عملية اجتهادية يشهد الاختلاف، الذي قد يصل إلى التعارض المستدعي إما الجمع أو الترجيح بحسب قوة ثبوت الحديث أو بحسب مدى خضوع التفسير للضوابط والأصول المسطرة في أصول التفسير، والأمثلة على هذا النوع من الاختلاف كثيرة لا نود الاستطراد في ذكرها في هذا السياق.

### الاختلاف في التفسير بأقوال الصحابة:

من المعلوم أن أقوال الصحابة رضي الله عنهم في الرويات كموضوع أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ومبهمات القرآن إذا صحت فهي في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، تكتسي قوتها من مدى صحتها وثبوتها، ولأقوالهم في التفسير فيما عدا ذلك حكم الموقوف الذي يكتسي قوة الحجة أيضاً من احتمال سماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكذلك أقوالهم في الجانب اللغوي أقوى من قول غيرهم لسلامة السليقة، وهذا لا يعني أن أقوالهم في اللغة قطعية، إذ يمكن لأفراد المجتهدين الاختلاف مع تفسير لغوي معين لصحابي معين، مع العلم أن بعض العلماء يعتبر أقوالهم في اللغة كأقوال سائر اللغويين إلا أن يكون فيها زيادة عن مقتضى اللغة، قال صديق القنوجي: "فأما ما كان ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم: فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع، فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم، فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا

بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب العرباء، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم  
وساير الأئمة».

### أشهر مفسري الصحابة

أبي بن كعب الأنصاري وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم،  
وهؤلاء الأربعة أكثر من نُقل عنه التفسير من الصحابة، ونُقل أيضاً كثير من التفسير عن عمر بن الخطاب  
وزيد بن ثابت وأبي موسى الأشعري وعائشة وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن  
الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم  
أجمعين.

أشهر مفسري التابعين: أبو العالية الرياحي وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم  
ومجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح وقتادة السدوسي  
ومحمد بن كعب القرظي وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير.

أشهر مفسري القرن الثاني من غير التابعين: مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان وعبد الملك بن عبد  
العزيز بن جريح وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وعبد الله بن وهب المصري ويحيى بن سلام البصري.  
أشهر مفسري القرن الثالث: محمد بن إدريس الشافعي ويحيى بن زياد الفراء وأبو عبيدة معمر بن المثنى  
وعبد الرزاق الصنعاني والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة وآدم بن أبي إياس وابن قتيبة الدينوري.

أشهر مفسري القرن الرابع: شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري والزجاج وابن المنذر وابن أبي حاتم  
وأبو منصور الماتريدي وأبو جعفر النحاس والجصاص وأبو الليث السمرقندي وابن أبي زمنين.

أشهر مفسري القرن الخامس: الثعلبي والحَوْفِي ومكي بن أبي طالب القيسي والماوردي والواحدي وأبو المظفر السمعاني.

أشهر مفسري القرن السادس: الكيا الهراسي والبغوي والزحشري وابن عطية وابن العربي المالكي وابن الجوزي.

أشهر مفسري القرن السابع: الفخر الرازي وأبو عبد الله القرطبي والبيضاوي.

أشهر مفسري القرن الثامن: التّسفي وابن تيمية وابن جُزّي والطبي والحازن وأبو حيان وابن قيم الجوزية والسمين الحلبي وابن كثير وابن عادل وابن رجب.

أشهر مفسري القرن التاسع: ابن عرفة والنيسابوري والحلي والبقاعي.

أشهر مفسري القرن العاشر: الإيجي والسيوطي والعلمي والشربيني وأبو السعود.

أشهر مفسري القرن الحادي عشر: شيخ زاده والخفاجي.

أشهر مفسري القرن الثاني عشر: إسماعيل حقي والقونوي.

أشهر مفسري القرن الثالث عشر: سليمان الجمل وابن عجيبة والمظهري والشوكاني والأوسي

أشهر مفسري القرن الرابع عشر: القنوجي والجاوي والقاسمي والفراهي ومحمد رشيد رضا وابن باديس

والمراغي والسعدي وفيصل المبارك وابن عاشور ومحمد الأمين الشنقيطي ومحمد أبو زهرة وعبد القادر

حويش وعبد الرحمن الدوسري.

أشهر مفسري النصف الأول من القرن الخامس عشر: إبراهيم القطان ومحمد دروزة وحسنين محمد مخلوف وأحمد الكومي وإبراهيم الأبياري ومحمد المكي والشعراوي ومحمد المنتصر الكثاني وابن عثيمين ومحمد سليمان الأشقر ومحمد طنطاوي ووهبة الزحيلي وأبو بكر الجزائري ومحمد الأمين الهرري وحكمت بشير ياسين ومحمد خير بن رمضان يوسف ومصطفى العدوي ومجد مكي وعبد الرحمن القماش وطه عابدين ومحمد راتب النابلسي وعبد الكريم الخضير وعبد العزيز الراجحي وعبد الرحمن الشهري وخالد السبت ومحمد الربيعة ومحمد الخضير ومحمد بن علي الشنقيطي، وغيرهم.

### النتيجة والخلاصة

لقد تبين مما تم ذكره أعلاه ان تفسير كتاب الله قد لحق به من الباطل والاسرائيليات والدسائس ما لحق بالآحاديث النبوية فلقد كان مذاهب أكثر المفسرين وعقائدهم الفكرية هي الدافع من وراء ما بينوه ولقد كان لهذا الأمر نتائج سلبية كثيرة فلقد حوت كتب التفسير الكثير من الأحكام والفتاوى والتشريعات التي كونت وعبر الأجيال عقيدة او مذهب وكذلك فلقد كانت وراء نشوء التيارات السلفية والأصولية وخاصة الاجتهادية المتشددة .

والخلاصة أنه يجب على من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن يعتمد في تفسيره على القرآن الكريم نفسه؛ لأن ما أجمله القرآن في موضع قد يفصله في موضع آخر، ثم على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنها شارحة للقرآن الكريم وموضحة لما جاء مجملاً فيه، ثم على أقوال الصحابة؛ لأنهم هم الذين شاهدوا عصر التنزيل وسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما خفي عليهم، ثم على أقوال تلاميذهم من كبار التابعين، كما يجب على الذي يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن يكون راسخ القدم في

معرفة قواعد اللغة العربية وعلومها المتنوعة من نحوٍ و صرفٍ و بلاغَةٍ، وفي علوم الفقه والأصول والقراءات والتاريخ وغير ذلك من العلوم التي لا غنى عنها لمن يتعرَّض لتفسير كتاب الله تعالى.

ولا يجوز إطلاقاً أن يعتمد المفسر للقرآن الكريم على رأيه الشخصي الذي لا سند له من الكتاب أو السنة أو قواعد اللغة العربية؛ فإنَّ التفسير بالرأي والاجتهاد لكي يكون مقبولاً لا بدَّ أن يكون مستنداً إلى ما يؤيده من القواعد الشرعية ومن أساليب اللغة العربية، فإذا لم يكن كذلك كان تفسيراً مبتدئاً على الجهالة والضلالة، وبعيداً عن الحق الذي أمرنا الله تعالى باتباعه.

أولاً: لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَلْيَبْوَأْ مُقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وفي رواية: الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله: قال "مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بغيرِ عِلْمٍ فَلْيَبْوَأْ مُقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" وفي رواية: "من قال في القرآن بغير ما يعلم جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار".

وروى الترمذي أيضاً عن جندب بن عبد الله عن رسول الله قال " من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ " وإن أصاب لأنه يكون من باب القول على الله تعالى بغير علم، ومن باب تأويل كلام الله عز وجل بغير علم حتى وإن أصاب الحق؛ وذلك لأنه يحكم على كل إنسان أن يتكلم وأن يتأول وأن يفسر كلام الله عز وجل بغير علم، فمن تكلم بالقرآن برأيه واجتهاده، وليس من أهل الاجتهاد، ولا من أهل النظر والدراسة والبحث؛ فإن هذا معتد متجرب على كلام الله عز وجل، حتى وإن أصاب.

وإن ظن أن هذا ظاهر لكل أحد، وفسره بغير رجوعه لكلام أهل العلم، أو لسنة النبي عليه الصلاة والسلام؛ فإن هذا مخطئ وإن أصاب المراد من الآية، أو من الحديث النبوي؛ وذلك لأنه لا يجوز له أن يتكلم في دين الله عز وجل إلا ببينة قوية، وعلم أكيد متين.

ثانيا : توقف الصحابة وإحجامهم عن ذلك " فقد سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس/31]. ما الأب؟ فقال: أَيُّ سَمَاءٍ تُظَلِّلُنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّلُنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟ لقد توقف الصديق في تفسير أمر من عالم الشهادة، فالأب ليس من أمور الغيب، إنما هو من النعم التي أنعم الله بها على عباده، لهذا كان التفسير بمجرد الرأي حراما وبقوله تعالى: " قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

ثالثا: توقف التابعين وإحجامهم عن ذلك أيضا ولقد قال مسروق: " اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله " عن ابن مجاهد قال: قال رجل لأبي: أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: إني إذا لجريء . لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم . وكيف يُفسرُ كتابُ الله بغير إمام بعلم اللغة ، وآدابها والبلاغة وأنواعها ، والصرف والاشتقاق ، ومعرفة النَّاسِخِ وَالْمُنْسُوخِ وَأَسْبَابِ التَّنْزِيلِ ، وسائر أنواع علوم القرآن الكريم ، وعلوم الحديث ، ولعل السبب الذي دفع بهؤلاء العلماء إلى القول بذلك سد الذريعة لمنع الأوهام التي وجدت بتفسير بعض الإمامية ، والإسماعيلية ، والباطنية ، فقد رويت تفسيرات سموها باطن القرآن وجعلوا للباطن باطنا ، حتى وصلوا إلى سبعة بواطن ، فكان منع التفسير بالرأي دفعا لهذه الأوهام الباطنية التي أفسدت المعاني القرآنية بتأويلات لا برهان عليها .

فإذا كان الإسرائيليون قد أدخلوا على التفسير ما ليس بمعقول ولا مقبول، فالباطنيون قد أدخلوا بتأويلاتهم وبواطنهم ما ليس من التفسير في شيء، والله حافظ كتابه من الفريقين، وهو بنوره الساطع يلفظ الخبث كما يلفظ الفلز خبثه في كير النار.

مما سبق يتضح لنا بجلاء كل الوضوح شناعة هذه الجريمة التي يستخف بها البعض، وتتبيء النصوص عما يرتقب مقترفها من سوء العاقبة وقبح المآل، سواء في ذلك المخطئ فيما تهجم به على حرمة كلام الله والمصيب، لأن موافقة ما قاله وجه الصواب لم تنف عنه تهمة التهجم والقول في دين الله تعالى بغير علم فهو آثم، وهو والمخطئ قرينان في جهنم وبئس القرار، فليحذر كل مسلم من السقوط في هذه المهاوي، وعليه ألا يفسر آية من كتاب الله إلا إذا كان مستنداً فيما يقول إلى ما سمعه في معناها من عالم أمين على شرع الله تعالى، أو يكون قد اطلع على ما كتبه المفسرون المحققون، أو يكون له من الاطلاع على اللغة وأساليب العرب وما أشبه ذلك من الوسائل المساعدة، وما يُسمى علوم الآلة بالقدر الذي يُمكنه من التعرض لتحمل هذا العبء، وإلا كان مخاطراً بنفسه، معرضاً لها لسخط الله في الدنيا، وعذابه في الآخرة، وقانا الله تعالى من ذلك وحفظنا.

## خامسا

### الحدائيب والعقلانيين و القرآنيين

#### مدخل وتعريف

علينا أن نعلم أولاً ان هذه المصطلحات الثلاث هي مصطلحات حديثة لم تكن تعرف تاريخياً ولقد ظهرت ما بدء ما يسمى بعصر النهضة ولكل مصطلح تعريفه الخاص ورؤيته وفلسفته وفهمه للنصوص الدينية .

## الحدائين

وهو مذهب فكري علماني، بُني على أفكار الغرب وعقائده .

تطور مفهوم الحدائة

إن المتأمل لمسار العلاقة بين الإسلام المعاصر وقيم الحدائة الغربية، سرعان ما يلاحظ أن تلك العلاقة لم تكن ثابتة ونهائية بقدر ما كانت متغيرة ومتبدلة بحسب تبدل الظروف والأحوال . فهي علاقة تتأرجح بين الرفض المطلق والقبول الجزئي، وصولاً إلى البحث عن قواسم مشتركة وقراءات معمقة .

فكيف سار تاريخ العلاقة بين الإسلام والحدائة؟ وما هي سياقات التطور ونضوج العلاقة؟

ومنهم من يعتبره (من أخطر التيار الفكرية الهدامة التي توجهت إلى الإسلام وثوابته .

فالحدائة تتحمل في ظاهرها بريقاً، وعلماً كبيراً، ولكنها في الحقيقة تتحمل داخلها عمار شامل، للشعوب،

والمجتمعات، والأديان، مما يدعو إلى القول بأن الحدائة هي الصورة المتقدمة والمتطورة لبعض التيارات

الفكرية الجامعة الهدامة "كالليبرالية" و"العلمانية"، وذلك لأنه عندما شعر الغرب أن مقاوم يرتابون من

"العلمانية" و"الليبرالية" بدأوا فيكرون في بديل لهم، فابتكروا فكرة "الحدائة" .



وهذا بدأ فكرته الجمعة في الغرب، ثم ما لبث أن انتقل إلى بلاد المسلمين والعرب، وقد كانت بداية ظهور هذا التيار في مجال اللغة العربية، وعلى الأخص في الشعر والنثر، على اعتبار أنه أسرع طريق للإحساس والقلب، الذي إن فسد بعده كل شيء، فدعا الجمعة لتحرير الشعر والنثر من الوزن والقافية، ثم بدأ بعد ذلك يحارب القائد والأخلاق والدين والعادات في صورة، أدبية، أو شعرية، متخفياً في الألفاظ والكلمات، ثم بدأ يصرح عن وجهه القبيح، ويبدأ أفكاره ومبادئه علانية، وفي شتى الصور والمجالات. تحت اسم التطوير والتجديد والحداثة.

على الرغم من عدم فساد هذا التيار وبطلانه، إلا أنه قد يرحب به ويقبله كبيراً عند الكثيرين من المجتمعات الشرقية، سواء أكانوا من المثقفين اليهود أم من الشباب والعقيدة المبهورين بثقافة الغرب وفكره، والذين يحاولون أن يتراجعوا عن الغرب في كل تحركاته .

يعتقد أصحاب هذا التيار أن القرآن هو نتاج عقل محمد، وهذا ما يقوله المفكر الإصلاحي الإيراني عبد الكريم سروش في كتابه (بسط التجربة النبوية)، ومن هذا المنطلق يتعاملون معه ككتاب فيزياء، يقول أحدهم: «ودون أن نعتبر القرآن كلاماً آتياً من فوق، وإنما فقط كحدث واقعي تماماً كوقائع الفيزياء والبيولوجيا التي يتكلم عنها العلماء، إن القرآن يتجلى لنا كخطاب خاص له مادته وبنيته» محمد أركون: تاريخية الفكر العربي، ص 284، ولما كان القرآن منتجاً بشرياً حسب زعمهم كان لابد من التحرر من هيمنته، والتي تصطبغ معها كل سلطات الدين بترائه صرح بذلك أحد أقطابهم حيث قال: «قد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفوراً قبل أن يجرفنا الطوفان» ( نصر حامد أبو زيد، الإمام

الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، ص146)، يعني ذلك أنهم يدعون إلى التحرر من سلطان التدين والعمل بما في القرآن، وحاولوا وصولاً لهذا الهدف اتهام القرآن بالبنية الأسطورية (علي حرب، نقد النص، ص211)، ووصفوا قصصه أيضاً بالأسطوري تركي علي الربيعو، العنف المقدس، ص47 متأثراً في هذا بالتوراة وأساطيرها، وقد رد القرآن الكريم هذه الفرية مدافعاً عن نفسه «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا \*» الفرقان: 5.6.

ولم تسلم السنة هي الأخرى من طعن الحداثيين حيث أكد أحدهم أنها ليست وحيًا (محمد شحرور، دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، ص22)، ومن ثم لا يُحتج بها، لذا قال فرج فودة: «إن عهد الرسول مرتبط به، ولا يقوم حجة على اللاحقين» (حوار حول العلمانية، ص12)، وأخرجت مداد أقلامهم مكون صدورهم فراحوا يشككون في جمعها حيث قال سيد القمني: «إن البخاري جمع الأحاديث في صحيحه وفق انشراحات مزاجية (شكراً ابن لادن، ص251)، كما صوّبوا سهامهم نحو التراث الديني برمته بحجة التجديد (حسن حنفي، التراث والتجديد، ص179). إن الفكر الحداثي لا يقصد سوى تقويض الإسلام والانتفاض على تراثه، واستبدال منهجه بالمناهج العقلية، وتغليب العقل على النقل، مدعيًا الحرية والتجديد الفكري، وإعادة قراءة التراث بمناهج مستوردة من الغرب بغية تشويه حقيقته، بزعم الوصول إلى فكر يواكب التطورات ومستجدات العصر، وهي في حقيقتها لم تكن إلا خطة لتغريب عقول العالم الإسلامي، لتصبح العقيدة الإسلامية هي سبب الانتكاسة العربية، في نظر هؤلاء المارقين، وتصبح الماركسية التي يدينون بها وفلسفات الغرب هي الحل والأمل للخروج من التردّي والرجعية، ويصبح الدين

هو الخطر العظيم، لهذا ينبغي على الأمة أن ترتمي في أحضان الحضارة الغربية لتستلهم منها سبل النجاة. هذا وقائمة رواد التيار الحداثي في عالمنا العربي تضم الكثير ممن باعوا عقولهم ومن قبل باعوا دينهم، فمنهم المصري والجزائري والسوري واللبناني والليبي والسوداني (انظر: القراءة المعاصرة لقصة نوح عليه السلام: ص54) . . . الذين يبشرون سمومهم في أوساط المثقفين والمراكز العلمية، فضلاً عن اهتمامهم بالوصول إلى مراكز صناعة القرار واتخاذها، بحيث يؤثرون في المجتمع من قاعدته إلى قمته.

إننا أمام خطر حقيقي يسمم أفكار أجيال من الشباب، لإيمانهم أن الإسلام قام وانتشر في مراحل الأولى على أكثاف الشباب، لهذا أهيب بالمؤسسات الإعلامية، والأروقة البحثية، والمنابر الدينية أن تحذر من هذا الخطر الفكري الذي يهدد أمن المجتمع المسلم.

من المعروف أن حركة التحديث والتأثر بالمستجد من الفكر العالمي ليست جديدة على الفكر الإسلامي، فقد اتخذ ذلك أشكالاً متعددة عبر التاريخ، فنذكر من ذلك مثلاً ظهور علم الكلام الإسلامي، وحديثاً -قبل نحو قرن من الزمان- اجتهادات وضعت في هذا السياق من أمثال أفكار الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد إقبال وغيرهم، إلا أن هذه الحالة أو المدرسة لم تتواصل أو تتطور بشكل ملموس بعد ذلك، وكل ما وضع في هذا السياق لاحقاً كان يعد من الشذوذات الخارجة عن السياق العام، أو خارج نطاق الصحة الإسلامية الحركية.

تساعد دروس التاريخ على توقع حدوث تحولات مهمة ومفصلية في الفكر والسياسة إثر الأحداث التي عصفت في العالم وكان الفكر الإسلامي بمشاربه واجتهاداته المتعددة في القلب منها، والذي أنتج الكثير

من الأسئلة المفتوحة والمقاربات الساعية للإجابة، مما يمكن وصفه بصيرورة، لا يُعلم ما يذهب منها جفاءً وما يمكث منها في الأرض.

إذا كان الموقف الأول للإسلام المعاصر تجاه الحداثة يقوم على مواجهة الغرب ورفض قيمه وأساليبه في الحياة والحكم، فإن هذا الموقف انتقل إلى الأخذ من الحداثة الغربية بغية مواجهتها والحصول على أسباب قوتها

فإذا كان الموقف الأول للإسلام المعاصر تجاه الحداثة يقوم على مواجهة الغرب مواجعة كلية ورفض كل قيمه وأساليبه في الحياة والحكم، فإن هذا الموقف انتقل على يد خير الدين التونسي إلى الأخذ من الحداثة الغربية بغية مواجهتها والحصول على أسباب قوتها، وصولاً إلى اكتشاف الحركات الإسلامية المعاصرة أن قضايا الديمقراطية وفصل السلطات والانتخابات والنقابات -وهي منجزات للحداثة بامتياز- من الأمور الأساسية القادرة على إيصالهم إلى سدة الحكم بغية تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة دولة العدل والمساواة وتخليص الأمة من الطغاة

### **موقف محمد عمارة من مفهوم الحداثة ودعاتها في العالم العربي:**

تعامل التيار الحداثي مع القرآن الكريم والسنة النبوية بنفس المنهجية التي تعامل بها العقل الغربي مع المرجعية الدينية إلا أن الحداثيين ليسوا على نسق فكري واحد من حيث الطروحات، وقد انتهج الحداثيون مع القرآن الكريم منهجاً غريباً النشأة والاستخدام ألا وهو مبدأ التحرر من سلطة النص، ويتضمن هذا المصطلح طروحات عدة، منها دعوى أن النص القرآني نصاً غير مكتمل، وبعضهم يدعي

أنّ النصّ القرآني جزءٌ من التراث الإسلامي البشري بقولهم أن القرآن إلهي المصدر بشري التشكيل،  
ومنهم من يطعن في لغة القرآن الكريم (٥).

أولاً: الحداثة في رؤية محمد عمارة

لقد كان محمد عمارة من الذين تقدوا هذا التيار من خلال كتبه ومجوثه ومقالاته، كما فصل في نقده  
لبعض الكتاب والمفكرين، في مثل كتاب (ردّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم) (٦)، وكتاب (التأويل  
العبي للوحي والدين والنبوة) (٧)، وكتاب (خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام) (٨).

اهتمّ محمد عمارة بإشكالية الحداثة والتراث والتجديد والاجتهاد نقداً وتحليلاً وتنظيراً في أعماله  
وسلكت أغلب أعماله توجّهاً مضاداً للحداثة بالمفهوم الغربي، وقد دخل في سجلات فكرية مع بعض  
أقطاب الفكر العربي الداعين إلى تبني الفكر الغربي.

سمّى محمد عمارة التيار الذي ينطلق من المرجعية الفلسفية للحضارة الغربية، تيار التغريب والحداثة  
الغربية، وينطلق هذا التيار معتمداً مناهج النظر الوضعية العلمانية وأحياناً المناهج المادية، فتتطر هذه  
المناهج إلى الدين وحقائمه وعوالمه وعلومه ومعارفه باعتباره فكراً غير علمي، وتعدّ هذه المناهج الدّينَ  
بأنه يمثّل مرحلةً من مراحل تطوّر العقل الإنساني، وهي مرحلة طفولة هذا العقل، التي تلتها ونسختها  
مرحلة ما وراء الطبيعة، وتلتها ونسختها المرحلة الوضعية، التي جعلت الكون المادي والواقع الدنيوي  
فقط هو مصدر المعرفة الحقّة والعلم الحقيقي، كما جعلت العقل والتجربة -وحدّهما دون النقل  
والوجدان- الطرق المعتمدة والمأمونة لتحصيل المعرفة، فكانت القطيعة المعرفية مع الموروث، وبالذات  
الموروث الديني.

وبعارة مختصرة يعرف محمد عمارة الحداثة بقوله: "الحداثة بالمعنى الغربي هي قطيعة معرفية مع

الموروث، وبالتالي لا علاقة لنا بها بل هي تقيض للتجديد".

لعل السياق الذي تبلور فيه مفهوم الحداثة الغربي، هو الذي جعل منها مفهوماً غير مستساغ لدى محمد

عمارة، والذي لم يتوان في انتقاد الطبيعة الجهرية اللادينية للحداثة الغربية، التي أحلت مقولة: العلم دين

البشرية بدل من المقدس أو الوحي السماوي، ولا سلطان للعقل سوى العقل، أما الحرية فلا سقف

يحكمها، ويعبر محمد عمارة عن هذا الوضع بقوله: "إن الحداثة الغربية هي التي أعلنت أنها قد أقامت

وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الدين، وأنها إذا استخدمت مصطلحات القاموس الديني فإنها تجرد هذه

المصطلحات وتفرغها من مضامينها الدينية والإيمانية، وذلك بتأويل الدين لأسنته، وتحويله إلى نسق

فكري إنساني لا علاقة له بالغيب والسماء".

يرفض محمد عمارة مفهوم الحداثة القائم على القطيعة مع الموروث وتبني العقل الإنساني كبديل عن

الوحي، ويعتبر أن هناك إشكالية وتناقض إذ أن الحداثة الغربية لم ترفض كل موروثها كما يدعي الحداثيون

العرب، بل إنها استثنت الموروث الأرسطي والفلسفة اليونانية من هذه القطيعة، كما أن موقف الحداثة

والحداثيين من التراث فضلاً عن الخلاف في المرجعية الفكرية في هذا الكون هل تكون لله؟ حسب المفهوم

الديني أم تعود للعقل الإنساني؟، هل يكون المرجع لنصوص الوحي لوحدها أم للعقل لوحده؟ أم

لكليهما؟.

العقلانية التي يدعو إليها محمد عمارة ليست العقلانية المنفلتة من حدود الشريعة على طريقة فلاسفة الأنوار، وإنما هي العقلانية التي تتحرك داخل إطار النص الديني، حتى أسماها العقلانية المؤمنة، يقول محمد عمارة في هذا المجال: "إن للتجديد الإسلامي منهاجاً في سبيل المعرفة، يجعلها أربع هدايات، وليست فقط كما هو حالها في التنوير الغربي اثنان العقل والتجريب... لذلك آخى ويؤاخي التجديد الإسلامي بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، بل لقد رفض المقابلة بين العقل والنقل لأن المقابل للعقل هو الجنون وليس النقل، من هنا كانت الاستنارة تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل" (٥).

ينقل محمد عمارة على لسان أنصار الحداثة ودُعائها بأن مقصد الحداثة وغايتها لديهم هو إحلال نظام الطبيعة بدلاً من نظام النعمة الإلهية، وإحلال هيمنة العقل بدلاً من مملكة الله وجعل الإنسان وحده المقياس للإنسان (٦) أو كما وصفها أحد دعائها أنها "القول بمرجعية العقل وحاكميته وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون".

يوضح محمد عمارة كيف أن مفهوم الحداثة وعلم التأويل الغربي (الهيرمينوطيقا) والمناهج الوضعية العلمانية الغربية منذ عصر التنوير الأوربي في القرن الثامن عشر الميلادي تسعى إلى "أنسنة" الدين بإحلال الإنسان محلّ الله ﷻ، وإحلال القارئ محل الوحي، وجعل الوحي - في النص الديني - هو ما توحيه القراءة الذاتية للقارئ، وما توحيه كينونة عالم القارئ إلى النص - بدلاً من العكس - كما سعت هذه الهيرمينوطيقا إلى عزل القيم والأخلاق والأحكام الدينية عن مصدرها الإلهي (اللاهوت)، وإقامة قطيعة

معرفية كبرى مع الموروث، والموروث الديني على وجه الخصوص، وبذلك أحلت الدين الطبيعي محل الدين الإلهي، بعد أن جعلت الإنسان طبيعياً وليس ذلك الرباني الذي نفخ الله فيه من روحه.

كما يؤكد محمد عمارة أنّ تيار الحداثة نجح في جعل المرجعية الوضعية الغربية تُزاحم المرجعية الإسلامية، وأنّ هناك أسباباً عدة لهذا الأمر منها تبني نفر من المتغربين الذين يصفهم محمد عمارة "الذين ضربت عقولهم وصيغرت رؤاهم وفلسفاتهم وفق المناهج الوضعية الغربية، ومن هذه المرجعية الوافدة، فبشروا بالمقولات والرؤى الحداثيّة الذين قدّوا سلفهم الغربي من فلاسفة التنوير الغربيّ متحدّين ثوابت الأمة، وخارجين على نسقها الإيماني، بإقامة القطيعة المعرفيّة مع ثوابت الإسلام".

ويرجع محمد عمارة تعامل تيار الحداثة مع مصادر الفكر الإسلامي وفق منطلقات غربيّة، إلى استخدامهم لمباحث التّأويل الغربيّ المسمّى الهيرمينوطيقا، كما شبّه عملهم هذا بعمل الفرق الباطنيّة القديمة في تأويل النصوص.

ويذكر في موضع آخر أنّ دعاة الحداثة الغربية، ممّن يتبنون نظرية "موت المؤلف" و"أنسنة" الدين والقرآن الكريم والوحي والنبوة، قد انطلقوا إلى ألوان من التّأويل الماديّ للوحي والنبوة والدين بلغث في الغلو والغرابة والشذوذ الحدّ الذي نافست فيه التّأويلات الباطنيّة القديمة.

وعلى الرغم من أنّ المادية تمثل تقيض الباطنية لكن يرى محمد عمارة أنّ هناك تشابهاً بين النزعة المادية والباطنية في تناول النصوص الدينية، فالمادية تفرّغ النصّ الديني من حقيقته الروحية، والباطنية تفرّغ النصّ الديني من حقيقته اللفظية وتغرقه في الغلو بالتّأويلات الروحية الباطنية، وفي الحالتين يتمّ تفرّغ



النص الديني من المعاني الوسطية الجامعة للمنقول والمعقول، للحقيقة والمجاز، ويؤكد محمد عمارة أن الحضارة الغربية قد عرفت مباحث التأويل منذ حضارة اليونان التي يغلب عليها الطابع المادي، والتي عملت على تفرغ ألفاظ النصوص الدينية من روحها، وذلك للتخلص من قداسة هذه النصوص.

وقد وصف محمد عمارة فكر التيار الحداثي وجعل لمدرسته الفكرية تعريفاً فيقول: "هي مدرسة التأويل لحقائق الدين، وتحويلها إلى مجازات غير مضبوطة بقواعد التأويل العربي والإسلامي، حتى ليفرغ هذا التأويل الدين من حقيقة الدين وثوابته التي تعارفت عليها مختلف الفرق الإسلامية، باستثناء الباطنية في تراثنا القديم... ومعهم فلاسفة التنوير الوضعي المادي العلماني في الفكر الغربي"، ويصف محمد عمارة هذه المدرسة بأنها تجعل لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، وتنفي وجود أية حقائق أو معانٍ ثابتة في النص الديني، كما وصف محمد عمارة تعامل تيار الحداثية مع مصادر الفكر الإسلامي بالتأويل العبثي، ووصفهم في موضع آخر بالدهرية واللا دينية، كما ذكر إن فعلهم هذا هو انحراف ونوع من أنواع الهرطقة) حسب قوله.

ثانياً: محمد عمارة ودعاة الحداثية الغربية

يرى محمد عمارة في الحداثية مفهوماً دخيلاً على منظومتنا الفكرية، بل يجد الحداثية مُضَلَّة في تعاطيها مع الطبيعة والإنسان والدين والمجتمع، فلا بد أن يُستعاض عنها بمصطلح آخر يعبر بشكل أفضل عن منظومتنا القيمية الحضارية، ولا يوجد مصطلح أفضل من التجديد.

انتقد محمد عمارة التيار الحداثي والذي تبنت المناهج الغربية في فهم النص القرآني، فلقد عمدوا إلى تطبيق منهج التأويل الغربي وأنسنة وتاريخية النصوص على آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم يعتمدوا

مناهج علمائنا الأوائل في تفسير القرآن، وأبرز من مثل هذا التيار: محمد أركون، وحسن حنفي، وعبد  
الكريم سرور، فضلاً عن محمد عابد الجابري.

يرى محمد عمارة أن جوهر مشروع محمد أركون هو أنسنة الدين الإسلامي، أي تحويل الدين إلى فكر  
إنساني وتفريغ الإسلام من الغيب والعقائد الدينية، ووصف مشروعه الفكري أنه يطبق على الإسلام ما  
صنعه التنوير الغربي مع النصرانية واليهودية عندما تأولوا ما فيهما من دين وحوّلوهما إلى رموز وقوالب  
لفكر إنساني وفي ذلك قطعية مع الدين، وذكر محمد عمارة أن أركون بدأ مشروعه المسمى الإسلامي  
برسالته للدكتوراه فحاول علمنة الثقافة الإسلامية في عصر ازدهارها في القرن الرابع الهجري.

يقول محمد عمارة: "فالقرآن عند أركون ذو بُنية أسطورية متعالية، وهو نصّ خالٍ من الحقيقة...  
وقابل جميعه للتأويل الذي يحوّله إلى رموز ومجازات، ولقد أجاد علي حرب في معرض شرح مشروع محمد  
اركون فقال: (إنه يريد تحقيق السيادة المطلقة والمنفردة للعقل لتحرير الإنسان من إمبريالية الذات الإلهية)،  
وهو وصف يدلّ على ما لدى الرجل من سوء في الأدب يوازي ما لديه من التجديف!"

أما حسن حنفي من وجهة نظر محمد عمارة فهو يدعو إلى تاريخية الدين الإسلامي، ويركّز على  
القطيعة المعرفية مع الإلهيات وعقائدها، فالمهمة الملحة عنده هي القطيعة مع الإلهيات وإحلال  
الإنسانيات محلّها، أي أنسنة كلام الله والدين، وكذلك القطيعة مع عقيدة الوحي، بتأليه العقل وإحلاله  
محلّه.

ويعتقد محمد عمارة أن الخطاب القرآني لا يخضع للتاريخية أو التاريخانية، فتكون له وقتيته المحددة التي تُصلح فيه آياته وتتحقق، إنه خطاب فصلت نصوصه كلياً ومقاصد التشريع بينما تفصيلاته أوكلت لأهل الاجتهاد الفقهي تتجدد تبعاً لمتطلبات العصر ومستجداته، إنه بذلك وعاء تشريعيّ قابلة مقاصده وأحكامه للتكيف والتجديد حسب مقتضيات الواقع الحضاري المتجدد والمتغير وبفضل هذه الميزة وخصائص النص الديني والقرآني خاصة، تكون أحكام الشريعة في المعاملات والعبادات والقيم الأخلاقية خارجة عن نطاق وحدود التاريخية وكلها ميزات تطبع مسيرة الفقه الإسلامي وحضارته الإسلامية (١).

وقد فصل في توضيح معاني التأويل في الفكر الإسلامي، ومعاني التأويل في الفكر الغربي رغم تشابه التسمية إلا أن التأويل في الفكر الإسلامي يختلف عن المعنى المقصود في الفكر الغربي ومن تبعهم من التيار الحدائثي، وتعجب كيف لهذا التيار أن يحتفي بابن رشد الفقيه الفيلسوف، ولا يتبنوا رأيه في قضية تأويل النصوص لهذا نجد محمد عمارة ذكر تعريف ابن رشد للتأويل وشروطه في كتابه (قراءة النصّ الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي) (٢) فضلاً عن ذكره لأقوال علماء الإسلام بمختلف عصورهم، فيقول نقلاً عن ابن رشد: "معنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يحلّ ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنة، أو غير ذلك من الأشياء التي عدّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي" (٣).

وفي العودة إلى بدايات العلاقة بين الإسلام والحداثة نجد أنها كانت معقدة وتقوم على الرفض المطلق، حتى أن مفتي الديار العثمانية في نهايات القرن التاسع عشر رفض طباعة القرآن الكريم بالآلة صنعها شخص كافر، وحجته في ذلك أنه لا يجوز لأحرف القرآن أن يدنسها الكفار.

بل إن هناك من أفتى بتحريم الكهرباء في الريف لأن الريفيين يتلهون عن أعمالهم بمشاهدة التلفاز، حتى وصل الأمر إلى رفض بعض نتائج ومشاهدات ومنجزات الكثير من العلوم التجريبية المعاصرة.

أما على المستوى السياسي فقد وصفت الديمقراطية بأنها «بدعة غربية»، وأن الأحزاب لا تجلب إلا التفرقة والتحاسد، وأن فصل السلطات غريب تماماً عن نظام الحكم في الإسلام، وأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ما هو إلا مؤامرة يهودية. بل إن غالبية المسلمين كانوا يظنون أن تطبيق الديمقراطية سيؤدي إلى نهاية الإسلام وضياعه وانتشار الرذائل والإباحية الموجودة في الغرب.

غير أن الموقف لم يبق على هذا الحال. إذ سرعان ما استقر الرأي لدى غالبية المفكرين والفقهاء الإسلاميين على ضرورة الأخذ بالمنجزات الصناعية والآلات الغربية، بما أن استخدامها يصب في مصلحة المسلمين وتنمية حياتهم الصناعية والزراعية، وتقوية جيوشهم بالآلات والمعدات الحديثة، التي تمكن المسلمين من مواجهة التحديات الاستعمارية الحديثة. مع التأكيد على رفض كل القيم الحداثية من علوم وأنظمة حكم وطرق اقتصادية واجتماعية في الحياة، بحجة بعدها ومخالفتها لقيم حضارتنا الإسلامية.

ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، أخذ الموقف الإسلامي من قيم الحداثة، يميل باتجاه المرونة والاستيعاب والبحث عن قواسم مشتركة، بما يفيد المسلمين ولا يتعارض مع شريعتهم، ويساعد على نهوضهم وحصولهم على حياة كريمة. وقد شمل هذا التوجه: الفقه، علم الكلام، نظرية الحكم الإسلامية، العلاقة بين العلوم الغربية والعلوم الشرعية.

ففي مجال الفقه نجد أنه أخذ يناقش قضايا حديثة لم يتطرق لها الفقهاء في التاريخ الإسلامي -إلا في حدود ضيقة- ويتخذ منها موقفاً إسلامياً وحداثياً في الوقت نفسه. فإذا أخذنا مسألة «الذميين» في الدولة الإسلامية نجد أن الفقه الإسلامي المعاصر جعل منهم «مواطنين لا ذميين»، والمواطنة كما هو معروف مفهوم حديثي غربي.

وصل الموقف الإسلامي الإيجابي من إعلان حقوق الإنسان أن وصف محمد عمارة تلك الحقوق بأنها ضرورات وليست حقوقاً فقط، بل وقدم الإسلاميون إعلاناً إسلامياً خاصاً بحقوق الإنسان أما التعددية السياسية فتم القبول بها على اعتبار أن الدين الإسلامي يحترم الاختلاف ويقرّ به. وقد وصل الموقف الإسلامي الإيجابي من إعلان حقوق الإنسان بأن وصف محمد عمارة تلك الحقوق بأنها ضرورات وليست حقوقاً فقط، بل وقدم الإسلاميون إعلاناً إسلامياً خاصاً بحقوق الإنسان.

وعلى مستوى تكثيف العمل السياسي لم تجدد الحركات والأحزاب الإسلامية المعاصرة حرجاً من التحالف مع أحزاب علمانية وليبرالية، والمشاركة في تشكيل هذه الحكومات.

وفيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية فقد عمق الفقه الإسلامي من مناقشاته لحقوق المرأة وعمل الأطفال وشرعية النقابات والعقوبات القاسية التي فرضها الإسلام على المخالفين. وقد استقر رأي الفقهاء على تحريم عمل الأطفال والقبول بعمل النقابات وإعطاء المرأة الكثير من حقوقها ودورها التربوي الذي يضمنه لها الإسلام نفسه.

كما سار الفقه باتجاه التخفيف من العقوبات القاسية حتى لا يعطى الذين يريدون تصوير الإسلام بأنه دين عنيف أية فرصة، سيما وأن هناك أنواعاً من العقوبات تفي بالغرض الذي يريد الإسلام تحقيقه من وراء تلك العقوبات .

أما على صعيد علم الكلام، فقد كشف هذا العلم -في نسخته المعاصرة وبتأثير من الحداثة الغربية التي تهتم بالواقع المعيش- عن مناقشة قضايا الإلهيات والميتافيزيقا، من قبل صفات الله وخلق القرآن وغيرها، والتفت إلى القضايا التي تربط المسلم بعالمه الذي يعيش فيه .

فقد بين هذا العلم أن لا تعارض بين الإسلام من جهة والعقل والعلوم الوضعية من جهة ثانية -كما بين ذلك محمد عبده- ومن جهة ثانية، فقد ركز هذا العلم على رفض الأيديولوجيات المخالفة للقيم الإسلامية، ولا سيما الشيوعية والدارونية، بطرق علمية واجتماعية ومنطقية، وعلى تكوين موقف منهجي للإسلام من منجزات الحداثة وعلومها ونظرياتها وأيديولوجياتها التي تتصارع في العالم المعاصر .

أما في مجال السياسة فقد وصل تحمس التيارات والحركات الإسلامية للديمقراطية حداً، أن وصفها العقاد بأنها تمثل جوهر الإسلام، وأكد آخرون أن كل من يرفضها باسم الإسلام فإن الإسلام بريء منه، وذهب جودت سعيد إلى حد اعتبار الديمقراطية مخلصه للمسلمين في محنتهم الطويلة، لأنها تمنع أن يأتينا الحكام بالقهر والإكراه .

أما الأحزاب فأصبح ينظر إليها على أنها تنظيم لحق الاختلاف الذي منحه الإسلام للجميع . في حين اعتبرت مسألة فصل السلطات أمراً ضرورياً للحد من جور الحكام واستفرادهم بالسلطة بشكل مطلق، وهو أمر عانت منه الشعوب الإسلامية لقرون طويلة .

أما بالنسبة للرأي الذي كان يذهب إلى أن الأخذ بالعلوم الإنسانية الغربية، من علوم اجتماع ونفس واقتصاد وتاريخ، ستحوّل مجتمعاتنا إلى صورة ممسوخة عن المجتمع الغربي، والمخاوف على التعليم الديني من التعليم الذي يعتمد على العلوم الغربية في مناهجه، فقد اتضح أنها آراء ومخاوف ليس لها ما يبررها. فقد تعايش التعليم الديني والعلوم النقليّة مع العلوم الغربية في الجامعات والمدارس من دون أي مشاكل ومخاوف، ولم يعد للعلوم الغربية أية صبغة أرسقراطية أو استعمارية.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن هذا التعايش والتقارب والتلاقح بين الإسلام المعاصر وقيم الحداثة الغربية، لم يمنع المفكرين الإسلاميين من التنبه للنزعات الاستعمارية الجديدة ورفضها، والبحث عن وسائل فعالة لمواجهةها، ومواجهة آلة الإعلام الغربية التي تهاجم الإسلام في كل مكان وزمان، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001.

منهج التحليل الاجتماعي والسياسي، أقدر على فهم آليات التفاعل والتناحر بين الإسلام والحداثة، وفهم أسباب التقارب والمواجهة، الأمر الذي يسمح لنا برؤية المواقف والأفكار بعيداً عن الأحكام المطلقة ما نريد أن نقوله في هذا المقال الموجز، أن منهج التحليل الاجتماعي والسياسي، أقدر على فهم آليات التفاعل والتناحر بين الإسلام والحداثة، وفهم أسباب التقارب والمواجهة، الأمر الذي يسمح لنا برؤية المواقف والأفكار في سياقها الاجتماعي والسياسي الذي تعيش فيه، بعيداً عن الأحكام المطلقة والترسيمات النهائية.

فالحركات الإسلامية المعاصرة تتحمس اليوم للديمقراطية لأن الشارع العربي هو شارع إسلامي، متذمر من الأنظمة السياسية الفاسدة، وبالتالي فإنها ستكسح أية انتخابات ديمقراطية وهذا حقها. كما أن هذه الحركات تعادي الغرب السياسي، لأنها تعرف أن هذا الغرب هو أكبر داعم لهذه الأنظمة وهو الذي يشكل أكبر خطر على الهوية الإسلامية.

أما الغرب فيهاجم الإسلام بشكل دائم لأنه يعرف أن الإسلام يشكل أكبر منظومة من القيم في المنطقة، ولأنه يبحث بشكل دائم عن أعداء يريد أن يمارس الاستقواء عليهم ونهب ثرواتهم.

## العقلانيين

فإن نسبة هذه المدرسة إلى العقل، وتسميتهم عقلانيين هي على سبيل ما اشتهرت به بين المحافل العلمية، وإلا، فإنني أرى ابتداءً أن هذه التسمية ليست من حيث الشكل صحيحة، فهي أجدر أن يُتوهم من ورائها أمور غير صحيحة؛ ومن ذلك: احتكارهم للفهم دون غيرهم، أو التقليل والتهوين من شأن العقل عند من يُخالفهم في المنهج أو الرأي، أو إنصافهم للعقل في حين معاداة غيرهم له

## عوامل ظهور المدرسة العقلية

في العصر الحاضر ظهرت اتجاهات ومدارس عقلانية متعددة ما بين ليبرالية وعلمانية وفلسفية ويجمع بينها المغالاة في تعظيم العقل، والقول بأوليته على غيره من مصادر المعرفة.

ومن بين هذه الاتجاهات: ما اصطلح على تسميته بالمجددين العقلانيين للسنة، التي تعد - إلى حد كبير - امتدادًا للفرق العقلانية القديمة، ولا سيما المعتزلة، وقد واجهت هذه المدرسة مشكلة تعارض العقل مع النقل بزعمها، وانضاف إليها واقع الأمة الإسلامية المتأخر - في مجالات الحياة المختلفة - عن الأمم



الأخرى ولا سيما الغرب، فارتأى أصحاب هذه المدرسة العقلية أن طريق النهضة للأمة لا يكون إلاً بسلوك سبيل الأمم المتقدمة، فلاحظوا وجود شيء من التعارض بين النصوص الشرعية والمقررات العقلية والمكتشفات العلمية الحديثة، وتحت ضغط الواقع وبداعي المصلحة أصبحوا ينادون إلى تجديد الأفكار والمفاهيم الإسلامية بما يتماشى مع هذا العصر، وبما يتفق مع العقل البشري والنظريات العلمية؛ مما أدى إلى ظهور تأويلات عصرية لأحكام الإسلام لا يُراعى فيها النصوص الشرعية، ولا إجماع علماء المسلمين، ولا دلالات اللغة العربية .

### المقصود بالمُجدِّدين العقلانيين

يُقصد بالمجددين العقلانيين هم الذين يُقدِّمون العقل في الجملة على نصوص الشرع عند توهم التعارض، وهم ممن يتبنى المرجعية الإسلامية في الجملة، ويسعون إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الفكر الغربي المعاصر؛ وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلاً جديداً يُضاهي المفاهيم الغربية، والمكتشفات العلمية الحديثة.

وتفاوت رموز هذه المدرسة تفاوتاً كبيراً في موقفها من النص الشرعي، ولكنها تشترك في الإسراف في تأويل النصوص سواء كانت في العقيدة أو الأحكام أو الأخبار المحضنة، وفي رد ما يستعصي من تلك النصوص على التأويل.

وأيضاً رموز هذه المدرسة ليسوا على درجة واحدة، ففيهم الداعية الفقيه الذي طغت عليه فكرة تقريب الإسلام للغرب، وأخذته الحمية لدفع الشبهات عن الإسلام، فزلت به الأقدام باسم مصلحة الدعوة تارة، والدفاع عن الإسلام تارة أخرى، وهم أيضاً متفاوتون فيما بينهم بين مُقلِّ ومُكثِّر في ذلك، وفيهم

الصحفي الذي يفتقر إلى العلوم الشرعية، ويُعرف بوصفه كاتبًا إسلاميًا لدى عامة القراء، وفيهم المُغرَق في عقلانيته، الذي يحكم فكره وتصوّره اتجاهات المدارس الغربية الحديثة، أو المدارس الكلامية، خاصة المعتزلة.

ومن الأهمية بمكان؛ وبعيدًا عن العاطفة سيكون النقد موجّهًا للأقوال التي صدرت عن أصحاب هذا الاتجاه وليس لأشخاصهم؛ وعند ذكر قول أحدهم فلا يلزم من ذلك موافقة الآخرين له في قوله، بل ربما يوجد من يرده؛ فهم ليسوا على درجة واحدة.

يقول "د. محمد عمارة": (لقد أصبح الواقع الفكري للحياة العربية يتطلّب فرساناً غير النصوصيين، ويستدعي أسلحةً غير التّقول والمأثورات؛ للدفاع عن الدين الإسلامي، وعن حضارة العرب والمسلمين . . . ويُسلم الكثيرون بأنّ المعتزلة هم فرسان العقلانية في حضارتنا).

وهذه هي القاعدة التي ينطلق منها معظم أصحاب هذا الاتجاه الفكري، وهي: الواقع الفكري للحياة العربية؛ وكأنّ المطلوب هو تطويع الدين للحياة والواقع الفكري، وليس العكس؛ إذ إنّ النظرة والفكرة لدى الاتجاه السلفي المنضبط بضوابط الشرع إنما هي تطويع الحياة والفكر بما يوافق الدين ويُراعيه.

وقد يتناسى أصحاب هذه الاتجاه الفكري أنّ الحضارة العربية الإسلامية لم تزدهر وتنمو وتسود العالم إلاّ في ظلّ هذا التطويع للحياة والفكر لصالح الدين.

ويبيّن "د. محمود الطحان" خطورة منهج التجديد العقلاني، فيقول: (ظهرت فنة في هذا العصر، أتجهت في معنى التجديد وجهةً غير التي عرفها المسلمون على مر العصور، وحملت التجديد الوارد في السنة ما

لا يَحتملُه، وقامت بعرض أفكار للتجديد بعيدة عن المنهج الإسلامي السوي، وقامت بنشر مقالات فيها كثير من المغالطات كما يحلو لها، ودعت في مقالاتها إلى تجديد الفكر الإسلامي، وتجديد أصول الفقه، وتجديد أصول الحديث، وتجديد العلوم الإسلامية، لا بطريقة عرض تلك العلوم عرضاً سهلاً، أو إيجاد بعض الأحكام الشرعية لمواجهة بعض المشكلات التي جدت؛ كالتأمين والبيع بالأجل على أقساط وما إلى ذلك، وإنما انصبّت الدعوة على تغيير الأفكار الإسلامية، وتغيير أصول العلوم الإسلامية... . رغبة مسيطرة العصر الذي نعيش فيه، وعابوا في مقالاتهم اعتماد المسلمين على أحكام قال بها الأئمة الفقهاء الأقدمون، وزعموا أنها أحكام بليت وذهبت مع عصرهم كما بلي أصحابها، وقالوا: يجب على المسلمين المعاصرين أن يأتوا بأفكار جديدة، وأصول جديدة للعلوم الإسلامية تناسب المسلم المعاصر).  
ويُفهم من كلام "د. محمود الطحان" أن أصحاب منهج التجديد العقلاني إنما أرادوا أن يُبدلوا الأصول الثابتة المستقرّة التي أنتجتها العبقريّة الإسلاميّة مُتمثلة في علمائها الأفاضل في أصول الفقه وعلوم الحديث وغيرها من العلوم الأصيلة، وبدلاً من أن يبنوا عليها ويُضيفوا إليها بضوابط منهجية، فيشاركوا في صرح العلم، عمدوا إلى هدم أساسه وتقويض أركانه.

ويُشير "د. محمود الطحان" إلى أن الأولى بهم صرف جهودهم وتفكيرهم إلى مواكبة المستجدات والمستحدثات ودراستها وبيان الرأي فيها.

وهم بتصرفهم هذا خالفوا قواعد العلم الرّصين؛ فمن المعلوم ضرورة أن العلوم - النظرية منها والبحثية والتطبيقية - تراكمية، فكلُّ جيلٍ يبني على ما سبق، وإذا كان العلم قائماً على النقض والهدم، فالجيل التالي يهدم ما بناه الجيل السابق لتوقف بنا العلم عند نقطة الصفر، ولما حدث أيُّ تطورٍ أو تجديدٍ.

فكان الواجب عليهم أن يبنوا على ما ذهب إليه أسلافهم العلماء لا أن ينقضوه، وكان يجب عليهم أن ينطلقوا من حاجاتهم الضرورية والمتوافقة مع دينهم وفكرهم لا أن يسايروا الأمم الأخرى فقط، ويُقلدوها فيما ذهبت إليه، وهذا هو سر التَّميُّز الذي يُميِّز الشخصية المسلمة والفكر الإسلامي عن غيره، فنصبح فاعلين ومتفاعلين مع غيرنا لا مُجرِّد مُقلِّدين مُنهزمين لغيرنا .

### أبرز معالم المُجدِّدين العقلانيين

من أبرز معالم المدرسة العقلية المعاصرة والمجددين العقلانيين ما يلي:

I- رد السنة النبوية كل الرد أو بعضه؛ فمنهم من يردُّها مطلقاً، ومنهم من يقبل المتواتر العملي فقط، ومنهم من يقبل المتواتر مطلقاً عملياً كان أو قولياً .

وأما حديث الأحاد - الذي لم يبلغ حد التواتر - فقد يقبلون منه ما يُوافق روح القرآن، وما يتفق مع العقل، أو التجربة البشرية، وقد يرده بعضهم مطلقاً، فلا يقبل منه شيئاً .

2- التوسُّع في تفسير القرآن والسنة على ضوء العلم الحديث لكافة جوانبه، ولو أدَّى ذلك إلى استحداث أقوالٍ مُجانبة لتركيب الآيات والأحاديث من الناحية اللغوية، وغير موافقة للمنقول عن السلف الصالح؛ كما في تفسير "محمد عبده" وهو من أقطاب تلك المدرسة .

3- التهوين من شأن الإجماع؛ إما برفضه رفضاً كلياً؛ كما هو عند "أحمد خان الهندي" وإما بوضع قيودٍ جديدة للإجماع؛ كما هو عند "محمد عبده" وغيره .

4- الحرية الواسعة في الاجتهاد مع غض النظر عن الشروط المطلوبة في المجتهد، ومع غض النظر أيضاً عن الأطر العامة التي يجب أن تضبط هذا الاجتهاد .

5- الميل إلى تضييق نطاق الغيبيات ما أمكن؛ تأثراً بالتيار المادي الذي يسود الحضارة المعاصرة، ومن هنا جاء إقحام العقل في المسائل الغيبية، وتأويل الملائكة والجن والشياطين .

6- تناول الأحكام الشرعية العملية تناوياً يستجيب لضغوط الواقع ومتطلباته .

### الشيخ "محمد رشيد رضا" نموذجاً

مثّل الشيخ "محمد رشيد رضا" اتجاهاً فكرياً عقلياً، بدأ مع بدايات ما يُسمّى "عصر التنوير" في مصر والعالم العربي؛ ويُعتبر امتداداً لأستاذه وشيخه "محمد عبده"، من حيث متابعته في الكثير من القضايا والمسائل المتعلقة بالكتاب والسنة وظل الشيخ "محمد رشيد رضا" محسوباً على هذا الاتجاه سواء من قبل العقلانيين أو الحدائين أنفسهم، أو من قبل أدياء التجديد الديني، أو من قبل بعض العلماء والباحثين حيث اعتبروه كذلك امتداداً لهذا التيار، دونما مراعاةٍ لمراحل تطوّر وتغيّر حياته العلمية وموقفه من السنة النبوية .

وهذا الصنيع قد جعل العقلانيين والحدائين يستشهدون بأقواله، ولا سيما أنه يُمثّل قيمةً علميةً كبيرة . ولكن الحقيقة التي يجب أن تنكشف هي أن الشيخ "محمد رشيد رضا" قد حدّث له تغيّر في آرائه ومواقفه، تراجع من خلاله عن كثير من المسائل العلمية حول السنة النبوية، ولا سيما بعد وفاة شيخه "محمد عبده"، وقد أشار إلى ذلك د . مصطفى السباعي رحمه الله بقوله: (أمّا السيد رشيد رضا

رحمه الله، فيظهر أنه كان في أول أمره متأثراً بوجهة أستاذه الشيخ "محمد عبده"، وكان مثله قليل البضاعة من الحديث، قليل المعرفة بعلومه، ولكنه منذ استلم لواء الإصلاح بعد وفاة أستاذه "محمد عبده"، وأخذ يخوض غمار الميادين الفقهية والحديثية، وغيرهما، وأصبح مرجع المسلمين في أنحاء العالم في كل ما يعرض لهم من مشكلات، كثرت بضاعته من الحديث، وخبرته بعلومه، حتى غدا آخر الأمر حامل لواء السنة، وأبرز أعلامها في مصر خاصة...).

### أهم وأبرز أصول منهج المذهب العقلاني في دراسة الإسلام

كثيرة هي الأسئلة التي تراود الباحث وهو يقرأ في كتب ومؤلفات أتباع المذهب العقلاني، وهم يتحدثون عن الإسلام، ويتناولون أحكامه وقضايا العقيدة والتشريعة. ولعل من أهم تلك الأسئلة: الطريقة والأسلوب الذي اتبعه هؤلاء في معالجة قضايا الإسلام؛ ونوعية الأدلة التي استندوا عليها ومصادرها، ومدى علمية وموضوعية هذه الأدلة وتلك المصادر... الخ. والحقيقة أن دراسة متأنية لما كتبه أتباع المذهب العقلاني عن الإسلام وقراءة واعية لما أودعوه في الكثير من مقالاتهم وأبحاثهم، تكفي لبورة حكم عادل على طريقة تلك الدراسة ورؤية واضحة عن ذلك المنهج الذي اتبعوه.

إن الواضح في ذلك المنهج أنه تجاهل الأدلة الشرعية، وأعرض عن الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، واتبع طريقة انتقائية غريبة وعجيبة في الأخذ ببعض تلك النصوص وترك بعضها الآخر، وتعتمد على اتباع الهوى والمزاجية؛ ناهيك عن تأويل النصوص -التي لا تنسجم مع أفكارهم- تأويلاً لا يحتملها النص القرآني أو النبوي.

ويمكن استعراض أهم وأبرز أصول منهج المذهب العقلاني في دراسة الإسلام فيما يلي:

تقديم العقل والهوى على النص الشرعي: وهي في الحقيقة من أهم أصول منهج المذهب العقلاني في دراسة قضايا وأحكام الإسلام. فمن المعلوم أن تحكيم العقل وتقديمه على النصوص الشرعية منهج ثابت في تعامل العقلانيين مع دين الله. بالإضافة لتحكيم الهوى في أصول العقيدة ومقررات الدين الثابتة.

وكمثال على ذلك يقول أحدهم -الشيخ عبد المتعال الصعيدي: "لا شك أن إخضاع دليل النقل لدليل العقل فيه من الحرية العلمية بكل ما تتسعه هذه الكلمة من معنى، وما يعطي العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلاً، ولا يكون لهم أن يسلكوا سبيل التعسف معهم، إنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد". ويرى أنه لا بد أن يكون للعقل سلطان على النقل حتى يهيئه الحكم الذي يسعد الناس.

والحقيقة أن تأويلات العقلانيين لقضايا عقديّة غيبية، كأويل معجزات الأنبياء وقصص القرآن والملائكة والجن وما شابه، إنما كان بسبب منهجهم في تحكيم العقل في كل شيء، وتقديمه على النص الشرعي والنقل.

ومن مفارقات المذهب العقلاني وانتقائته وعدم منهجيته في قواعد الاستدلال أنه في الوقت الذي يرد فيه حديثاً صحيحاً مجرد معارضته أهواءهم، فإنه في الوقت نفسه يستدل بحديث ضعيف أو حتى موضوع يوافق أهواءهم، ويدعم مذهبهم

الانحراف والخلل في منهج الاستدلال والتلقي في العقيدة: ومن أبرز مظاهر الانحراف في منهج الاستدلال على العقيدة وأصول الإسلام وثوابته الاستدلال بنصوص التوراة والإنجيل المحرفة على أنها أدلة ثابتة صحيحة، وفي منزلة القرآن والسنة؛ ناهيك عن استدلالهم بالأحكام والقوانين البشرية الوضعية -

كالنظريات الفلسفية، وإعطائها قوة الأدلة الشرعية، بل ربما تتقدم الأدلة الوضعية الظنية على نصوص الكتاب والسنة.

فها هو أحدهم يستدل على ضرورة التسامح الديني بين أتباع الأديان بما ورد في التوراة والإنجيل المحرفين، معرضاً عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله في هذا الموضوع، وغير آبه بما ورد من نهي فيهما عن طاعة اليهود والنصارى وتصديقهم.

وكذلك فعل علي عبدالرزاق، حين أراد الاستدلال على فصل الإسلام عن الحكم، فرأى أن عيسى - عليه السلام - تكلم في حكومة القياصرة، ومع ذلك أمر بأن يعطى ما لله الله وما لقيصر لقيصر! مدعياً أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - حين تكلم عن الحكم في ذكره للإمامة والخلافة، فلا يعني أنه أمرنا بأن نلتزم ذلك في الحكم.

لقد قاس أحكام الإسلام على ما في الإنجيل المحرف. وهو انحراف واضح في منح الاستدلال، فشرعية محمد - صلى الله عليه وسلم - أشمل وأبقى، ومتضمنة لما جاء به عيسى - عليه السلام - من عند الله، ناهيك عن حقيقة وقوع التحريف في الإنجيل بينما القرآن محفوظ بحفظ الله.

وإذا تحدثنا عن الخلل والانحراف في التلقي عند العقلايين فحدث ولا حرج، فالمذهب العقلاني يتلقى من الغربيين أكثر مما يتلقى من مصادر الإسلام أثناء دراسته لهذا الدين. ولعل أكثر ما يتلقى هؤلاء عن المستشرقين، ثم عن الإرساليات التبشيرية، والجامعات والمؤسسات الغربية التي تعنى بالدراسات الإسلامية، ناهيك عن الجامعات العلمانية في الدول العربية.



كما أن أحد العقلانيين في الفكر الإسلامي الحديث وهو د. محمد حسين هيكل يرد روايات البخاري ومسلم وكتب السنة المعتمدة التي تناول المعجزات النبوية وأحداث السيرة؛ ويعتمد روايات المستشرقين في السيرة، ويفضل نصوصهم على نصوص كتب السيرة والسنة، بل ويدافع عن هذا النهج المنحرف بقوله: “ذلك قولهم أنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج في التعبير عن مختلف الحوادث نهجها، ولقد كان يكفيني ردا على هذا أنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة، وأكتبه بأسلوب العصر”. والطريقة العلمية برأيه هي طريقة العلم التجريبي القائم على الحس والمشاهدة!

التحويل من شأن العلم المادي: حيث إن العقلانيين يقدسون العلم الحديث القائم على التجربة والحس، ويجعلونه حكما على الدين والغيب. فقول ورأي العلم الحديث أو أحد أقطابه من المستشرقين في أي قضية إسلامية عقديّة أو تشريعية مقدم على المصادر الإسلامية الأصلية -الكتاب والسنة.

وتأكيدا لهذا المنهج يقول أحدهم بشكل جازم وقاطع: “لقد أصبح القول الفصل للعلم -يقصد العلم الغربي المادي الحديث، العلم الذي انفق قادة الفكر الإنساني على تسميته بهذا الاسم، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته، مما سرت عليه أصول الدستور العلمي، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم، أو على الأقل لا يماشي أسلوبه ويرتسم حدوده، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التي يراد أن تكون له. وقد رفض هذا العلم كل ما عرض عليه من أساطير الأولين، حتى العقائد التي بادت في سبيل الدفاع عنها أمم برمتها. وهذا العلم واقف لها بالمرصاد، ليفعل بعقائدنا مثل ما فعل بعقائد الذين سبقونا إليه، والأمم الإسلامية اليوم محفوزة إليه بحكم التربية العصرية”.

بل إن بعض العقلانيين يقدر العلم الحديث، ويقارنه بدين الله الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- من عند الله؛ بل ويطلب المسلمين ينزع كل عقيدة سابقة ودراسة أي قضية على أساس العلم الحديث! وهي قمة المغالاة فيما يسمى "العلم الحديث" وفي ذلك يقول: "فهذه الطريقة -العلم الحديث- تقتضيك إذا أردت مجثاً أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث".

ان منهج دراسة الإسلام عند العقلانيين . في الحقيقة مبدأ علماني , فماذا سيبقى للمسلم إذا محا من نفسه كل رأي وعقيدة سابقة؟! ثم من قال: إن الإسلام ونصوص الكتاب والسنة تعارض مع ما يسميه هؤلاء العلم الحديث؟! إن من خصائص دين الله الخاتم أن نصوصه النقلية الصحيحة لا تعارض أبداً مع العقل الصريح .

التنكر للتراث الإسلامي: والانقطاع المتعمد عن كتب الشريعة الإسلامية، من عقيدة وسنة وتفسير وفقه وأصول، ووصفها بأوصاف مذمومة للتغيير منها: ك"الكتب الصفراء". واتهامها بأنها لم تعد صالحة ومسايرة لعصر التقدم والعلم الحديث -حسب زعمهم، وهو ما يعتبر في الحقيقة تنكر للإسلام مجد ذاته.

وتبعاً لذلك يرى الدكتور زكي نجيب محمود، في كتابه "تجديد الفكر العربي"، أن "التقيد بالتراث الإسلامي بمثابة سلطان للماضي على الحاضر، وسلطان الماضي على الحاضر هو بمثابة السيطرة التي يفرضها الموتى على الأحياء، وقد يبدو غربياً أن يكون للموتى مثل هذه السيطرة، مع أنه لم يبق لنا منهم إلا صفحات مرقومة صامته".

وهكذا يعتبر المذهب العقلاني التراث الإسلامي بما فيه كتب تفسير كتاب الله تعالى، وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم، وما يتعلق بالعقائد والأحكام الشرعية، وكتب السلف الصالح الذين نقلوا لنا الدين

وفسروه بل ووضعو لحفظه من التبديل أو التغيير علم الجرح والتعديل وعلم دراية السند، يعتبرون ذلك كله صفحات مرقومة صامئة!

التركيز على إبراز الجوانب السلبية والبدع والانحرافات العقيدية في تاريخ الأمة، ومحاولة اختزال الإسلام ببعض الآراء الشاذة والمذاهب المنحرفة، ومن ثم الحكم على دين الله الخاتم من خلال ذلك.

ويلاحظ في كتب العقلايين تركيزهم على الفتنة التي وقعت في زمن الصحابة الكرام، ومحاولة التهويل من هذه الأحداث لتكون منفذا للطعن بالصحابة والتابعين والإساءة إليهم، وهو ما فعله طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى"، وكما فعل العقاد في كتابه "معاوية في الميزان"، وغيرهما كثير.

كما أن من سمات منهج العقلايين في دراسة تراث الإسلام تمجيده للفرق المنحرفة عن منهج أهل السنة قديما وحديثا، والسعي لإحيائها من جديد، وتبني آرائها تحت شعار حرية الفكر والبحث والاعتقاد. ومن هنا يعتبر رموز المذهب العقلايين المعزلة أبطال الحرية والفكر العقلايين، ويزعمون أنهم الجديرين بالبقاء، وأن انقراضهم وانحسار أفكارهم وبدعهم يعتبر خسارة للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء، ولذلك تراهم يحاولون إحياء هذا الفكر وتلك البدع، ويعتبرون ذلك هدفا ساميا وعملا مجيدا.

## القرآنيين

القرآنيون اسم يطلق على طائفة منتسبة إلى الإسلام يزعمون أنهم أهل القرآن، ويرون أن القرآن هو مصدرهم الوحيد للإيمان والتشريع في الإسلام، وأن السنة لا يُحتج بها؛ لأنها إنما كُتبت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بمدة طويلة، فهم لا يعترفون بالأحاديث ولا الروايات التي تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم على أساس أن الله قد وعد بحفظ القرآن فقط، ولا ذكر للسنة في هذا الحفظ.

وأول ظهور لهذا الفكر في نهاية القرن التاسع عشر بعد الاستعمار الأجنبي الغربي لكثير من البلدان الإسلامية، الذي عمل جاهداً في تغذية ودعم كل فكر منحرف مادياً ومعنوياً، لزعزعة ثوابت الإسلام، فبدأت تلك الأفكار في الانتشار خاصة في بلاد الهند ومصر ثم انتشرت في العراق وليبيا وإندونيسيا وماليزيا وغيرها .

### ماهي أهم ملامح رؤيتهم الفكرية

**أولاً :** قولهم : إنَّ القرآنَ الكريمَ كافٍ في بيان قضايا الدين وأحكام الشريعة، وقد اشتمل على الدين كله، بكلياته وجزئياته، وأنه يحتوي جميع الأحكام التشريعية بتفصيلاتها، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: **مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام: 38)**

**ثانياً :** قولهم : أن السنة النبوية ليست وحياً من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكنه اجتهاد وتصرف من النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى بشرته، فهو يصيب ويخطئ،

**ثالثاً :** أن الله تعالى لم يتكفل إلا بحفظ كتابه من التبديل أو التغيير، والزيادة والنقصان، قال تعالى: ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ) (الحجر: 9)، لذلك ظل القرآن هو الحق الوحيد في دين الله الإسلام، فلم يجرّف ولم يبدّل، ولم تدخله كلمة ولا خرجت منه كلمة، ولم يرو بغير لفظه ومعناه، أما السنة فلم يتكفل الله سبحانه بحفظها، ولذلك دخلتها الموضوعات فضاعت ألفاظها ورويت غالبها بالمعنى،

**رابعاً :** قولهم : أن سنة النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال، ليس لها صفة العموم الزماني والمكاني، إذ هي أحكام أصدرها في زمانه وفقاً لظروف أصحابه الذين كانوا معه، وقد انقضى ذلك

الزمان بأشخاصه وظروفهم وأحوالهم، وتغير ومن ثم لم تعد تلك الأقوال والأفعال الخاصة بذكلم الزمان  
صالحة لزماننا ومكاننا،

### ماهي الإنتقادات الموجهة لهم من بقية الفرق الإسلامية ؟

لقد ذكرنا ان القرآنيون اسم يطلق على تيار إسلامي يسمي أصحابه أنفسهم أهل القرآن، ويرون أن القرآن  
هو المصدر الوحيد للإيمان والتشريع في الإسلام، فيردون كل حديث لم يطابق القرآن أو لم يذكر بالقرآن  
فتراه يقول: الله لم يذكر ذلك في كتابه فلماذا نصدق ؟

يعتقد القرآنيون أن رسالة الله في القرآن واضحة وكاملة كما هي، وبالتالي يمكن فهمها تمامًا دون الرجوع  
إلى الحديث. يؤكد القرآنيون أن أدب الحديث الموجود اليوم هو ملفق، كما كتب بعد ثلاثة قرون من وفاة  
النبي محمد؛ وبالتالي، لا يمكن أن يكون لها نفس وضع القرآن.

ويقول البعض في الرد عليهم ( ترى بعض من ينتمون لهذا التيار يُنكر على استحياء فتجده لا يرد كامل  
السنة والأحاديث بل يرد بعضها مما لا يتوافق مع هواه أو منطقته ويحاجك بقوله هذا باطل ولم يذكر  
بالقرآن، كمن ينكرون الآن المهدي والدجال بدعوى أنهم لم يذكروا بكتاب الله، وهذا حكمه نفس حكم  
من رد كامل السنة.

لا يعترفون بالسنة النبوية ولا الأحاديث ولا الروايات التي تُنسب للنبي محمد على أساس أن الله قد وعد  
محفظ القرآن ويستدلون على ذلك بأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي اجتمع كافة المسلمين على  
صحته، بينما الأحاديث فيها اختلاف كثير على صحتها بين الفرق الإسلامية المتعددة).

كما لا يعتمد القرآنيون على علماء أهل السنة لأنهم يستعينون في استدلالهم بمصادر غير القرآن.

بهذه الآية القرآنية التالية ينبغي كل منهاج أهل القرآن حيث يقول الله تعالى:

( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )

فمنهج القرآنيين يعتمد في تدبر القرآن على المنهج العقلي بفهم القرآن بالقرآن؛

ويرفضون كلمة تفسير القرآن حيث يعتقدون أن التفسير يكون للشيء الغامض أو المعقد بينما القرآن

ميسر للفهم والتدبر كما هو مذكور في القرآن نفسه.

كما يرفض القرآنيون روايات أسباب النزول أو التفسيرات المذكورة في كتب التراث، فهم يرون أن عامة

المسلمين يقدسون تفسيرات التراث وروايات أسباب النزول حتى وإن تعارضت مع القرآن فيقدمون كلام

البشر المشكوك بصحته وسنده على كلام الله المقطوع بصحته.

وحول فهم القرآن بالقرآن فيعمل القرآنيون على فهم مصطلحات القرآن في المواضع المختلفة منه لفهم وتدبر

ما تشابه منه. كما لا يعتمد القرآنيون بأقوال السلف أو إجماع العلماء أو القياس وغيرها من مصادر

التشريع الإسلامي.

ويقول آخر في الرد عليهم: (من هذا المنطلق فإنهم يخالفون الفكر الإسلامي السائد منذ عصر الإمام أبي

حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل فيرى القرآنيون أنه فكر حربي متطرف ومخالف للإسلام

الصحيح القرآنيون لا يعترفون بوجود وحي ثاني مع القرآن وكلام النبي خارج القرآن ليس وحيًا من الله

وبالتالي غير ملزم للمسلمين ولا يعترف القرآنيون من جهة أخرى بنسبة ما يسمى الأحاديث النبوية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

هنا مثال على ما ذكرته سابقاً ممن ينكرون على استحياء يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

مثال آخر، يخادعونكم ويدعون حبهم للرسول ولو هم أحبوه حقيقةً لآمنوا بكلامه وبكل ما جاء به ولم يشككوا في صحته، في الحقيقة هم لم يؤمنوا لا بالقرآن ولا السنة فلو أن إيمانهم بالقرآن صحيح فالله يقول: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ويقول: (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)

ويقول القرآنيون أن المنهجية التي اتبعت في تصحيح الأحاديث النبوية كانت تفتقر للموضوعية ومخالفة للمنهج العلمي السليم؛ لذلك خرج العديد من الأحاديث في الصحاح التي يختلف فيها المسلمون حتى اليوم، إضافة لقولهم أن من اعتمد تصحيح هذه الأحاديث النبوي هم مجرد أفراد وتصحيحهم قابل للصواب والخطأ

إضافة لاعتمادهم على نهي الرسول محمد عن تدوين السنة بأحاديث هي الآن في الصحاح، وأن هذه السنة المروية أو الأحاديث لم تدون إلا في القرن الثالث الهجري أي بعد ما يزيد عن المئتين والثمانين عاماً على وفاة الرسول ) .

وتعتقد بقية الفرق الإسلامية على اختلافها أن القرآنيين بهذا قد خالفوا القرآن نفسه حيث جاء فيه أمر من الله للمسلمين فقال:

( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا )

وترى الفرق الإسلامية إنه امر واضح من الله بطاعة النبي وقد تكرر قول الله في القرآن: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾، مرات عديدة في القرآن، فقرن الله طاعته، بطاعة النبي، حيث ذكر القرآن هذا أكثر من مرة .

( من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا )

( يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم )

( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله )

( ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً )

وخلاصة الانتقادات الموجهة لهم من بقية الفرق الإسلامية هي أن الله قد قرن في القرآن أوامر النبي بأوامره، كما في قوله تعالى: ويروى حديث عن النبي محمد: «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي»

والحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن المقدم أن محمد قال: «يوشك أن يتعد الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول بيننا، وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله» .

ومن رد على القرآنيين: ابن حزم الأندلسي، حيث قال: "ولو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن، لكان كافراً بإجماع الأمة، ولكن لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حد للأكثر في ذلك .



## **سادسا**

**الواقع الإسلامي المفتت والمنقسم اليوم**

**الحركات التي انبثقت من التيارات الإسلامية المتافضة**

تعدد الاتجاهات الإسلامية داخل المشهد السياسي العربي برؤى ومذاهب فكرية مختلفة، وتنقسم إلى اتجاهين سُني وشيعي، ولا تخل الحركات السُنية ممن يتبنى في بعض مكوناته السياسية خطأ شيعيا مثل حركة الجهاد الإسلامي، كما أن هناك في الاتجاه الشيعي من يتبنى بعض الخطوط الفقهية السُنية في أدبياته وذلك مثل التيار الخالصي.

الأحزاب والتيارات السنية

الأحزاب والتيارات الشيعية

الأحزاب السُنية

وفي ما يلي الأحزاب السُنية:

الإخوان المسلمون

حركة حماس وإن كانت تنتمي مرجعيا إلى خط الإخوان المسلمين، فإنها تحولت إلى تجربة خاصة بأولويات مختلفة، ارتبطت بظروف محلية وإقليمية جعلت خيارها العسكري ذا أولوية بدأت حركة الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة في مصر كحركة شبابية أسس الشيخ حسن البنا بناءها الفكري سنة 1928.

وتحققت كتنظيم عملي سنة 1944 ثم تمددت الحركة ليصير لها فروع في البلدان العربية مثل سوريا وفلسطين والأردن والسودان والجزائر واليمن.

يدعو الإخوان المسلمون الأنظمة العربية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وأن سبب تأخر المسلمين وانحطاطهم هو عدم تطبيقها، وقد ظهرت هذه المبادئ في الإنتاج الفكري للإخوان وكتابات منطري الجماعة الذين أثروا في مسارها كسيد قطب وعبد القادر عودة ومعاصرين مثل يوسف القرضاوي وقتحي يكن ومحمد أحمد الراشد وفيصل مولوي.

ساهم تنظيم الإخوان في حرب 1948 في فلسطين كما ساندوا حركة يوليو/تموز 1952 ليصطدموا بعد ذلك معها. وعرف تاريخ الإخوان مواجهات أخرى غيرت مسار الجماعة في بلدان أخرى مثل أحداث حماة في سوريا.

وللإخوان المسلمين وبعض من يتبنى أفكارهم الإصلاحية حضور بارز في المشهد السياسي العربي في عدد من البلدان كمصر والمغرب والأردن وغيرها.

ويعرف الإخوان في سوريا خلال الآونة الأخيرة حالة من الحراك ضمن خط المعارضة لتغيير النظام في سوريا.

## حركة حماس

حركة المقاومة الإسلامية (حماس) نموذج وتجربة لها ظروف مختلفة. نشأت من عمق الإخوان المسلمين في فلسطين، وشكلت الانتفاضة الأولى بين 1987-1993 إطارا برزت فيه الحركة، وقد كانت قبل ذلك التاريخ ناشطة في الواقع عبر التركيز على المساجد والجامعات وبناء المؤسسات الاجتماعية.

حركة حماس وإن كانت تنتمي مرجعياً إلى خط الإخوان المسلمين، فإنها تحولت إلى تجربة خاصة بأولويات مختلفة، ارتبطت بظروف محلية وإقليمية جعلت خيار العمل العسكري عبر كُتاب عز الدين القسام الذراع العسكري ذا أولوية، وهي رقم مهم في معادلة الصراع مع إسرائيل.

وتدخل تلك الحركة حالياً مرحلة جديدة من العمل السياسي تضعها أمام استحقاقات جديدة بعد فوزها في الانتخابات واستلامها السلطة.

### حركة الجهاد الإسلامي

حركة الجهاد الإسلامي تنظيم فلسطيني يتبنى خيار المقاومة وسيلة لتحرير كامل فلسطين، عبر ذراعها العسكري سرايا القدس.

وتقول الحركة إن بداياتها التأسيسية كانت أواخر السبعينيات خارج فلسطين، لتشهد بدايات الثمانينيات بناء الحركة تنظيمياً في فلسطين بعد عودة فتحى الشقاقي ومجموعة من المؤسسين معه من مصر.

وحركة الجهاد حالة تنظيمية سنية تتبنى خطاً شيعياً على المستوى السياسي حيث تأثرت بثورة الخميني في إيران، وكان تصف نفسها في مراحلها المبكرة بـ "أنصار الثورة الإسلامية في فلسطين".

وكان فتحى الشقاقي الأمين العام السابق للحركة يرى أن الخميني أطلق الصحوة الإسلامية في المنطقة وفي العالم.

والحركة لم تشارك في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة.

السلفية الوهابية

يطلق مصطلح الوهابية على الدعوة التي أطلقها محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية أواخر القرن الثاني عشر الهجري. والمحور الأساس للسلفية الوهابية هو قضية التوحيد وتنقية عقائد المسلمين وسلوكهم مما تعتبره خرافات وبدعا دخيلة.

وتنادي تلك الدعوة بضرورة الرجوع إلى مذاهب السلف في فهم العقيدة والقضايا المستجدة، وتعتبر تراث ابن تيمية وابن القيم أكبر دعامة لبنائها الفكري.

وانتشرت دعوة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بسبب تبني ابن سعود لها كمذهب لحركته. وأحييت السلفية الوهابية النقاش في كثير من قضايا الاعتقاد عند المسلمين، واتخذت مواقف مخالفة للكثير من التيارات الإسلامية التي اعتبرتها مخالفة لمنهج الإسلام.

وتحدد السلفية الوهابية لنفسها قواعد علمية من قبيل تقديم النقل على العقل، ورفض التأويل، واعتماد أقوال السلف. ولها وجود في عدد من البلاد العربية، وهي أقرب إلى كونها دعوة ذات طابع علمي لها أقطابها ممن يشتغلون بعلوم الشريعة، أمثال ابن باز والألباني.

السلفية الجهادية (القاعدة)

تبلور هذا الخط مؤخرا في تنظيم القاعدة الذي يحيط الغموض الكثير من من طبيعته التنظيمية، إلا أنه يتمتع بمرونة أتاحت له الوجود في أكثر من دولة، مثل السعودية والعراق إضافة إلى مجموعات صغيرة في عدد آخر من الدول.

ويتزعم التنظيم أسامة بن لادن إضافة إلى أيمن الظواهري الذي كان سابقا قائدا لحركة الجهاد الإسلامي في مصر. وبعد سقوط بغداد برز اسم أبو مصعب الزرقاوي كأحد أبرز قادة التنظيم في العراق، ويقود حربا ضد الأميركيين ويتهم بأنه أحد الأطراف التي تسببت بالحرب الطائفية في العراق.

وقد شكل غزو العراق للكويت وما أعقب ذلك من بروز الوجود الأميركي والأجنبي في المنطقة ملمحا هاما في مسار القاعدة وفكره الرفض للوجود الأجنبي في الجزيرة العربية، وما يصفه التنظيم بالأنظمة الداعمة له.

وتشارك القاعدة مع التيار السلفي في مرجعيتها الثقافية، حيث يعتبر تراث ابن تيمية أحد أهم أعمدتها إضافة إلى تميزها بقراءة خاصة لكتابات سيد قطب.

ويقولون بتكفير الحكام وفرضية الجهاد والحاكمية لله ويؤمنون بالقوة خير سبيل للتغيير والتحرير.

#### الأحزاب الشيعية

أما الأحزاب الشيعية فهي كالآتي: حزب الله : بعد سقوط بغداد عاد التيار الصدري إلى الواجهة ونظم ما عرف بجيش المهدي الذي أصبح منافسا لمنظمة بدر، وانخرط الجيش في عدد من المواجهات مع القوات الأميركية، خاصة وأنه لا يزال يعتبرها قوة احتلال ويطالب بجلاتها

حزب الله أسس كأحد فروع الثورة الإسلامية الإيرانية في لبنان، وذلك في الوقت الذي رفع فيه الخميني شعار تصدير الثورة إلى العالم. ويرتبط حزب الله بالولي الفقيه في إيران ويستمد شرعية وجوده وممارسته عمله منه.

ويقول الحزب إن عمله في البدايات عام 1982 كان عبارة عن عمل تنسيقي بين مجموعات دينية وطلاب  
ولجان ثقافية تعمل ضد الاحتلال الإسرائيلي للبنان. وأثمرت لاحقاً صيغة التنسيق تلك في تشكيل حزب  
الله بشكل رسمي سنة 1985.

ومنذ اتفاق الطائف عام 1989 أصبح حزب الله العمود الفقري للمقاومة اللبنانية، وأثمرت جهوده تحرير  
آخر جزء مأهول من الجنوب اللبناني.

وحالياً حزب الله موجود بقوة في الخريطة السياسية للبنان وله تمثيل نيابي، ورغم كونه حزباً محلياً فإن له  
دوراً إقليمياً كبيراً بالنظر إلى كونه طرفاً في الصراع مع إسرائيل. وهو نشيط على مستوى الخدمات في  
جنوب لبنان.

#### المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق

تشكل المجلس الأعلى عام 1982 من طرف عدد من نشطاء الشيعة ليكون مظلة للقوى الشيعية  
المعارضة، وأصبح محمد باقر الحكيم الذي ترك العراق سنة 1979 وأقام في إيران زعيماً للمجلس.  
حصل المجلس على دعم مكثف من إيران خاصة أن الحكيم كان يتبنى آراء الخميني في السياسة والفقهاء،  
ويؤمن بمبدأ ولاية الفقيه، وكان غالب أعضاء المجلس من العراقيين الفارين إلى إيران.  
ومن ضمن مكونات المجلس الأعلى الجناح العسكري فيلق بدر الذي أسسه محمد باقر الحكيم، بقيادة  
أخيه عبد العزيز الحكيم، وكان فيلق بدر يتخذ من إيران مقراً له.

وبعد سقوط بغداد، وقيام بول بريمر بحل الميليشيات الخاصة بموجب قرار 96، أعلن فيلق بدر أنه أصبح منظمة سياسية واتخذ مقرا له قرب وزارة الداخلية العراقية.

والجلس الأعلى موجود بقوة في السلطة ضمن الائتلاف الشيعي، وكذلك في دوائر مهمة مثل وزارة الداخلية.

### التيار الصدري

ولد التيار الصدري ولادة عراقية، وارتبط بأسماء كبيرة تشكل عمقه المرجعي كمحمد صادق الصدر، ومحمد باقر الصدر الذي يعتبر أستاذاً لمحمد صادق الصدر والد الزعيم الديني مقتدى الصدر. ينشط التيار الصدري في مدينة الصدر ببغداد التي تشكل رصيده الجماهيري ورافده السياسي والعسكري المرتبط بجيش المهدي المتشكل في تلك المدينة.

تعود بدايات الفكر الصدري إلى الدعوة التي أطلقها محمد صادق الصدر لإصلاح المجتمع وانتقاد الأوضاع العامة في العراق، ثم تأسيس الحوزة العلمية التي اجتذبت فئات عريضة من شيعة العراق.

كانت علاقة التيار الصدري بنظام صدام حسين متوترة، وكان من نتائجها إعدام محمد باقر الصدر ليليه مقتل محمد صادق الصدر فيما بعد سنة 1999.



وبعد سقوط بغداد عاد التيار الصدري إلى الواجهة مع بروز مقتدى الصدر، ونظم ما عرف بجيش المهدي الذي أصبح منافسا لمنظمة بدر، وانخرط الجيش في عدد من المواجهات مع القوات الأميركية، خاصة وأنه لا يزال يعتبرها قوة احتلال ويطالب بجلاتها.

أما المرجعية الدينية للتيار فما زالت تتمثل في مكتب "الشهيد الصدر"، وينتمي إليه عدد من العلماء والأتباع التاريخيين. وفي غياب مرجع ديني قوي من آل الصدر فإنهم يقلدون كاظم الخائري في إيران باعتباره أقرب إلى منهج محمد صادق الصدر.

أما على المستوى السياسي فإن الكتلة الصدرية متحالفة مع الائتلاف العراقي الموحد، وكذلك فإن زعيمه مقتدى الصدر يتمتع بفاعلية داخل المشهد العراقي ويعمل على بناء علاقاته الخاصة مع الخارج.

### التيار الخالصي

يرجع التيار الخالصي على مستوى المرجعية إلى الشيخ مهدي الخالصي أحد أبرز قادة ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق. والتيار له منهجه الفقهي الخاص الذي يقترب في كثير من تفاصيله من السنة.

مثل التيار الخالصي خطأ معارضا لفترة طويلة، وكان محمد مهدي الخالصي حفيد الخالصي الكبير من أوائل المعارضين لحزب البعث في العراق، حيث قاد حركة جماهيرية إبان عقد السبعينيات انتهت باعتقاله سنة 1979، ولم يفرج عنه إلا بعد الثورة في إيران، ليخرج بعدها من العراق ويحكم عليه بالإعدام غيابيا.

التيار الخالصي بمواقفه الفقهية والسياسية يعتبر حالة متميزة ضمن المشهد الشيعي في العراق، فمنذ بداية الدخول الأميركي إلى العراق أعلن رفضه للاحتلال وطالب بمقاومته.

وفي خطوة تالية اعتبر أن التصويت على الدستور العراقي خضوع لضغوطات خارجية وقبول بدستور يمهّد لتقسيم العراق وسلخه عن محيطه العربي. واعتبر سامي العاملي مدير مكتب الخالصي أن قرار المرجعيات في النجف غير ملزم لهم في هذا الشأن، وأن لديهم مرجعياتهم الخاصة.

التيار الخالصي وإن كان بعيداً عن العملية السياسية نتيجة لمواقفه السابقة، فإن الشيخ جواد الخالصي أحد رموز التيار يعتبر نشيطاً في الواقع من خلال قيادته للمؤتمر التأسيسي الوطني العراقي المشكل من سنة وشيعة.

## ثانياً

### الهجوم من الخارج

لماذا هذه الحرب على القرآن؟

عرف أعداء الله أهمية كتاب الله تعالى في نفوس المسلمين، ومدى تعلقهم به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحبي همته، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم. يقول المحام الأكبر لإسرائيل سابقاً مردخاي الياهو، مخاطباً مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: (هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتاباً يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! على حكام العرب أن يختاروا؛ إما القرآن أو السلام معنا). وفي بدايات هذا القرن كان الجنود الإيطاليون يتغنون بأشودتهم: (أنا ذاهب إلى ليبيا فرحاً مسروراً، لأبذل دمي في سبيل الأمة الملعونة ومحو القرآن، وإذا مت يا أمه فلا تبكي، وإذا سألك أحد عن عدم حداثك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام). ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: (إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية). ويقول وليم جيفورد: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه). ويقول اللورد كرومر في مصر: (جئت لأموح ثلاثاً: القرآن والكعبة والأزهر). يقول جون تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن -وهو أمضى سلاح- ضد الإسلام نفسه، بأن نعلم هؤلاء الناس -يعني المسلمين- أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحاً). ويقول غلادستون -وزير المستعمرات البريطاني سنة 1895، ثم رئيس الوزراء-: (لن تحقق بريطانيا شيئاً من غاياتها في العرب، إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب، أخرجوا سر هذا الكتاب -القرآن- مما بينهم تحطم أمامكم جميع السدود).

وقال أيضا: (ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون هي نفسها في أمان) إذن هم يعرفون أن القرآن مصدر قوة المسلمين؛ لذلك أعلنوا الحرب على كتاب الله، وهذه الحرب قديمة قدم نزول القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: 26] ؛ يعني أن الغلبة لهم على المسلمين إنما تكون باللغو والظعن في القرآن . ومن أهداف الظعن في كتاب الله:

حرب المسلمين؛ لأن الغربيين رأوا أن أهل الإسلام لا يمكن قهرهم بالسنان والحروب العسكرية؛ لأنهم قوم يحبون الموت كما هم يحبون الحياة، وإنما كان هذا الحب للشهادة في نفوس المسلمين، لما في كتاب الله من الثناء والحث على الشهادة في سبيله، لذلك توجهوا بالحرب إلى القرآن حتى ينتزعوا القدسية عن القرآن، ويشبوا أنه ليس من عند الله تعالى، بل من عند محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ثم يتم إبعاد المسلمين عن مصدر توحيدهم وسر قوتهم .

فتح باب النزاع والشقاق بين المسلمين على مصراعيه، يقول تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: 176] .

زرع الفتن بين المسلمين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . . . ﴾ [آل عمران: 7] .

هدم الإسلام: فقد روي عن الشَّعْبِيِّ عَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ، قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ: هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَا . قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُتَنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ).

وبهذا يتحقق لهم ما يريدون، ويصبح المسلمون صيدا سهلا، بل قد يصبح المسلمون في صفهم وأتباع ملتهم ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . . . ﴾ [البقرة: 120] . وللأسف فقد تحقق لهم الكثير من هذا، فقد عُزل الكتاب عن التحكيم بين الناس، واستبدل بقانون الغرب .

## الطعون في القرآن الكريم

الطعن في القرآن: هو أحد مباحث علوم القرآن، التي تبحث في الرد على من طعن في كتاب الله، أو زعم تناقضه، أو إشكاله، والرد عليها بالأدلة الشرعية والعقلية والحسية

فالقرآن هو دستور الأمة، ومنهاج الحياة الطيبة، وهو قطب رضى المسلمين الذي عليه يدورون، وهو العروة الوثقى التي بها يتمسكون، وهو المورد العذب الذي إليه يردون، ومنه يصدرون، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ومنهاجه القويم، إنه النور الساطع في ظلمات الجهل والتخلف، والضياء اللامع في بحار الشرك والانحطاط.

والطاعنون في كتاب الله هم المشككون فيه، الذين يوردون عليه الشبه والإشكالات والاضطرابات، يريدون بهذا إسقاط قدسية القرآن من قلوب المسلمين؛ لأنهم يعلمون يقيناً أن أعز ما يملكه المسلمون هو القرآن الكريم، وهو أعجز شيء في طريقهم المشؤم، وهو التحدي الواضح من الله تعالى للثقلين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]

وقد كثر الطاعنون في كل قرن، ولكن هذا القرن تميز بنوعين من الطاعنين، وهما:

الصنف الأول: المستشرقون.

الصنف الثاني: العلمانيون، أو تلاميذ المستشرقين، أو العقلايون.

وخطر هؤلاء أشد؛ لأنهم باسم الإسلام يطعنون في الإسلام، وبزعم الدفاع عنه يحاربونه، وأسماءهم كأسمائنا، وهم أبناء جلدتنا، فتلبسهم على عامة الناس؛ بل على بعض الخاصة شديد؛ لذلك كان الرد على هؤلاء، وكشف أباطيلهم وتلبساتهم من أعظم الواجبات، وأكد الفرائض، حتى تحذر الأمة منهم، وتسلم من شرهم.

لقد اهتم المستشرقون بدراسة الدين الإسلامي ومصادره وأصوله، وكل ما يتصل به من التراث الشرعي واللغوي والتاريخي والحضارة الإسلامية في أغلب كتاباتهم ومؤتمراتهم الاستشراقية، وبكثافة عالية؛ حيث يشكل غالب النتاج الاستشراقي؛ مما يلفت انتباه المهتمين، ويوجههم إلى الاطلاع على هذه الدراسات وتقدها؛ وذلك لما تحويه هذه الدراسات من الأخطاء والأغاليط الكثيرة المنسوبة للإسلام؛ مما يطعن في الدين الإسلامي ومصادره الأصلية وشرائعه الثابتة.

وأقدم نص وحدث فيه حدوث الإشكال على الفهم، والطعن في القرآن، واتهامه بالتعارض مع الحقائق، هو حديث المغيرة بن شعبة قال: «لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: (إنكم تقرأون: يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا)، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال: (إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)» (I).

وهذا الطعن الذي ذكر في الحديث، مع أن النبي أجاب عليه، إلا أنه لا يزال يردد إلى يومنا هذا .

بعضهم ادعى أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن: ﴿ إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [الأفقال:31]؛ فتحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا .

وبعضهم زعم أن هذا القرآن إنما هو من قصص الأولين وأساطير السابقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا نَزَّلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل:24]، وهكذا يصفون هذا القرآن الذي يعالج النفوس والعقول، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل، هكذا

يصفونه لما يحويه من قصص الأولين، وهكذا يؤدي بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول، ويصدونهم عن القرآن والإيمان، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته.

فقد كانت حرب دعاية منظمة تديرها قريش على الدعوة، ويديرها أمثال قريش في كل زمان ومكان، من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان؛ لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان، فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من ينكر، وليسوا أول من يمكر، والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم، ومصيرهم يوم القيامة؛ بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلتقوا في الآخرة جزاءهم، يعرض عليهم هذا كله في مشاهد مصورة على طريقة القرآن الماثورة:

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) ﴿ [النحل: 26-27].

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ والتعبير يصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف، إشارة إلى دقته وإحكامه وماتته وضخامته.

ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتديره: ﴿ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل، يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فالقواعد التي تحمل البناء تحطم وتهدم من أساسها، والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه، إذا هو



مقبرتهم التي تحويهم، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وهو الذي اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكين وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله، ويحسبون مكرهم لا يرد، وتديبرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط! وهو مشهد مكرر في الزمان قبل قريش وبعدها، ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون، ومهما يدبر المدبرون، وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذي رسمه القرآن الكريم:

﴿ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وبعضهم قال: إنه تعلمه من غلام نصراني، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: 103] .

عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قنًا بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: (إنما يعلمه بلعام)، فأنزل الله هذه الآية» .

وأما ما كان فقد رد عليهم الرد البسيط الواضح، الذي لا يحتاج إلى جدل: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمدًا هذا الكتاب العربي

المبين

واليوم، بعد ما تقدمت البشرية كثيراً، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات، وعن نظم وتشريعات يملك كل من يتذوق القول، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر.

وحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام 1954، كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد، هو محمد؛ بل من عمل جماعة كبيرة، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية؛ بل إن بعض أجزاءه كتب خارجها، دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد، وعلى علم أمة واحدة.

ولم يقولوا ما يوحى به المنطق الطبيعي المستقيم: إنه من وحي رب العالمين؛ لأنهم يتكبرون أن يكون لهذا الوجود إله، وأن يكون هناك وحي ورسول ونبوات! فكيف كان يمكن، وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين، أن يعلمه بشر لسانه أعجمي، عبد لبني فلان في الجزيرة العربية؟! ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

فهؤلاء الذين لم يؤمنوا بآيات الله لم يهدم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما، بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» بعد ذلك الضلال المقيم. وهكذا كلما قالوا شُبْهَةً وطعنوا طعنًا رد الله عليهم بحجة واضحة.

## الطعن الأول

## نفي نسبة القرآن لله تعالى

قالوا : القرآن ليس وحي الله، بل هو من إنشاء محمد وإبداعه ! .

ان طعنهم هذا يحتاج الى دليل اثبات ولما كان الموضوع الذين يريدون الطعن هو كتاب سماوي جاء منذ 1450 عاما تقريبا فالدليل يجب أن يكون تاريخي والا فالطعن بلا دليل وبرهان لا قيمة له ويعد فعل من أفعال الكذب والافتراء .

ولأن كتاب الله قد خط بلسان عربي مبين فطلب منهم الله سبحانه وتعالى أمرين يستطيعوا بهما فقط اثبات ان الكتاب ليس من عند الله .

الأمر الأول : أن يأتوا بأية مثله لأثبت ان يمكن لبشر اليتاء بمثل القرآن وهذا ينطبق على الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام والذي يقر بأنه وحي يوحى .

الأمر الثاني : أن يجدوا فيه اختلافا كثيرا فالكتاب البشري من المستحيل أن يخلو من خطأ واحد مهما كان نوع هذا الخطأ اذن عليهم أن يثبتوا ذلك .

وهم لا في الحاضر ولا في الماضي استطاعوا فعل أحد الأمرين ولن يستطيعوا .

ولو فرضنا - جدلاً - صحة الخيار الثاني ، فإننا تتساءل: لماذا يؤلف مدعي النبوة هذا السفر العظيم وتلك اللوحة البيانية المذهلة ثم ينسبه إلى غيره .

ولماذا يتحدى العالمين أن يأتوا بمثله؟ وكيف له أن يحيط بأخبار الأولين وأن يتوصل إلى علوم الآخرين؟ وكيف تنبأ بالغيوب الكثيرة التي ملأت صفحات كتابه، ومنها ما تحقق في حياته، ومنها ما يشهد وقوعه بصدقه إلى قيام الساعة.

ثم لو كتب مدح ما كتاباً، فماذا ترانا نتوقع أن نجد فيه؟

لو أطلق الواحد منا خياله محاولاً تصور كتاب يكتبه مدح كاذب؛ فإنه سيجد الكثير مما ينبه العقلاء - ولو بعد حين إلى بشريته، وأنه من صناعة إنسان، وهذا ليس بالعسير، فالبشر يكتبون بمعايير البشر وقدراتهم، ووفق أحاسيسهم ورغباتهم وعلومهم وموضوعاتهم.

إن نظرة فاحصة لأي القرآن ستنبئ عن إلهية منزل القرآن؛ إذ هو في موضوعاته يتسامى بعيداً عن اهتمامات البشر وما يجول في أذهانهم، فحديثه يدور حول موضوعات لا يطرقها البشر عادة ولا يقدرّون على الإنشاء فيها، كالحديث عن صفات الله وأسمائه وأفعاله، وعن اليوم الآخر وأهواله وجنته وناره، والحديث عن التاريخ القديم والمستقبل البعيد.

وفي مقابل ذلك لا نجد أي مشاعر إنسانية يحملها القرآن في صفحاته، فلا يظهر فيه حزن الاستضعاف المكي، ولا نشوة النصر المدني، لا نجد فيه أي حديث يتعلق بالأم النبي عليه الصلاة والسلام وأفراحه وآماله وتطلعاته، فكما لا يتحدث القرآن عن موت زوجه خديجة وعمه أبي طالب في عام الحزن؛ فإنه لا يذكر شيئاً عن زواجه أو ميلاد أولاده أو وفاتهم أو غير ذلك من الأمور الشخصية المتعلقة بزوجاته أو أصحابه، فالقرآن غير معني بتسجيل السير والحكايات، لذلك لم يرد فيه ذكر اسم زوجة من زوجاته أو ابن من أبنائه وبناته، بل ولا اسم عدو من أعدائه، ولا صاحب من أصحابه، خلاً أباً لهب وزيداً<sup>t</sup>.

بل إن القرآن لم يذكر اسم النبي عليه الصلاة والسلام في صفحاته إلا خمس مرات، بينما ذكر عيسى عليه السلام باسمه خمساً وعشرين مرة، وذكر موسى بما يربو على المائة مرة؛ ليبرهن لكل قارئ أنه كتاب الله ، وليس كتاب محمد .

وفي مقابله يمكننا من خلال تفحص النص القرآني الوقوف على عشرات الشواهد التي تثبت أن هذا القرآن ليس من إنشاء الرسول الكريم ولا تأليفه، بل هو كلام الله تبارك وتعالى المنزل عليه .

وفي هذا الصدد نقف مع أربعة أنواع من الآيات الدالة على ذلك، وهي:

- آيات عتاب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

- آيات تتعلق بأحداث تشهد بوحى القرآن عليه .

- إعجاز القرآن الكريم .

- إخبار القرآن بالغيوب .

وفيما يلي تفصيل ذلك .

#### أولاً: دلالة آيات العتاب :

البشر حين يكتبون فإنهم يجدون أنفسهم ويعظمون عند الناس ذواتهم، فالبشر يكتبون ليخلدوا ذكراهم ومفاخرهم، وهم بالطبع يتعامون عن ذكر معائبهم وأخطائهم، فما لتخليد هذا يكتبون .

ولم يسجل التاريخ البشري عن كاتب ما سجله القرآن من عتاب الله نبيه على بعض ما فعله ، ولو كان القرآن من إنشائه لبرر له فعاله، وصوب خطأه، فأبي القرآن على خلاف ما نعتاده من البشر ونسقتهم وطرائقهم في التأليف .

والمواضع التي عاتب الله فيها نبيه عديدة ، منها أنه لما جاءه المنافقون بعد غزوة تبوك يعتذرون عن تخلفهم بأعدار كاذبة؛ قبل منهم أعدارهم، وعفا عنهم، فعاتبه ربه عز وجل: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة: 43) [[86]].

ومنها أنه لما جاء إليه زيد بن حارثة يستشيريه في طلاق امرأته زينب؛ أمره النبي عليه الصلاة والسلام بإمسакها، مع أن الله أعلمه أن زيدا سيطلقها، وأنها ستكون زوجة له وأماً للمؤمنين، فكشف القرآن سر نفسه: ﴿ وَإِذِ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب: 37)، تقول عائشة رضي الله عنها: (ولو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل عليه؛ لكتّم هذه).

ومنها أنه لما دخل على النبي نفر من سادات قريش، فجعل يعرض عليهم الإسلام وهو يطمع في إسلامهم، وفيما هم كذلك دخل عليه عبد الله بن أم مكتوم وهو أعمى يسأله، فأعرض عنه النبي وأقبل على السادة طمعاً في إسلامهم، فعاتبه ربه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ` أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ` وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكِّي ` أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ` أَمَا مِنْ اسْتَعْزَى ` فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ` وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ` وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ` وَهُوَ يَخْشَى ` فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (عبس: IO-I) [[88]]، ولو كان القرآن من كلام محمد، لما سطر فيه مثل هذا ، بل كتّمه .

وقد لفت هذا الموقف نظر المستشرق الإنجليزي الدكتور (لايتنر)، فقال في كتابه "دين الإسلام": "مرة أوحى الله إلى النبي وحياً شديداً المؤاخذة؛ لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى، ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذلك الوحي، فلو كان محمد كاذباً لما كان لذلك الوحي من وجود".

وكذلك عاتب الله نبيه لما حرم على نفسه العسل، حين أكله عند إحدى أزواجه، فأخبرته زوجتان أخريان أنهما تجدان منه ریح المغاير، وهو طعام حلو الطعم، سيء الرائحة، فحرمه الرسول الكريم على نفسه على نفسه، فقال له الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ (التحریم: I).

ولو كان محمد عليه الصلاة والسلام مؤلف القرآن لما قال فيما هو في ظاهره خطاب له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ (الإسراء: 74-75).

ولو كان من تأليفه لما قال عن نفسه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: 44-47)، فما هكذا يكتب البشر عن أنفسهم.

### ثانياً: أحداث تشهد بوحى القرآن :

إن آيات القرآن لم تعاتب النبي عليه الصلاة والسلام فحسب، بل جاءت أحياناً على خلاف ما يحبه ويهواه، ومن ذلك أنه لما توفي عبد الله بن أبي كبير المنافقين، كهنه النبي في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال له عمر: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما خيرني

رَبِّي فَقَالَ: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (التوبة: 80)،  
وسأزيده على السبعين» .

لقد كان حريصاً على أن تدرك رحمته كل أحد ، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ  
أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (التوبة: 84)، فترك الصلاة عليهم .

ولما حضرت الوفاة عمه أبا طالب؛ دخل عليه النبي وعنده أبو جهل فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله؛  
كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد  
المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب .

فقال النبي متحسراً على وفاة عمه على غير الإسلام: «لأستغفرن لك؛ ما لم أنه عنه» قال ذلك وفاء  
منه لعمه الذي كثيراً ما دافع عنه وآزره، فنزل قول الله على غير مراده: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ  
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: 113)، ونزل:  
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (القصص: 56) ([91]) .

وصلى الفجر يوماً، فرفع رأسه من الركوع، وقال والأسى يعتصر قلبه مما يصنعه كفار قريش بأصحابه:  
«اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ  
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران: 128) ([92]) .



كيف يصح فرض أن القرآن من إنشاء الرسول الكريم ، وفيه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۖ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: 86-87) .

وإن مما يدفع هذا الفرض ويدحضه تأخره عليه الصلاة والسلام في جواب أسئلة ملححة استلبت الوحي في جوابها ، مع مسيس حاجته إلى هذا الجواب .

ومن ذلك أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وطلبوا منهم العون في اختبار النبي للوقوف على صدق نبوته ، فأرشدهم اليهود إلى سؤاله عن أمور ثلاثة: عن قتيبة كانوا في الدهر الأول، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ما هو؟

### ثالثاً: الكتاب المعجز :

ولو عدنا ثانية إلى الفرض بأن القرآن من تأليف النبي وإنشائه؛ لتبين لنا استحالة هذا الفرض بمجرد النظر في نظم القرآن وأسلوبه ومقارنته مع أسلوب النبي في حديثه المدون في كتب السنة والحديث، ليقيننا أنه لا يمكن لأديب أن يغير أسلوبه أو طريقته في الكتابة بمثل تلك المغايرة التي نجدها بين القرآن والسنة .

ولو شئنا أن نضرب لذلك مثلاً، فنقارن بين بيان القرآن وأسلوبه وبين كلام النبي ، فكلاهما كلام بليغ ، لكن شتان بين كلام الباري وكلام عبده .

فقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . . .» ([96]) كلام عربي فصيح، لكن شتان بينه وبين قول الله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ

بَيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۚ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ  
لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۚ وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۚ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۚ كَلَّا  
سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۚ فَلَا  
تَعَجَّلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (مريم: 77-84)، فبين القولين من تباين الأسلوب وجزالته ما لا يخفى  
على العوام؛ فضلاً عن أرباب الفصاحة والبيان.

وإذا كان القرآن من تأليف النبي، فكيف نجح في تأليف هذا الذي ذهل لبلاغته أرباب اللغة ورواد  
الأدب والبيان؟ كيف جزأ على تحديهم بالإتيان بمثله؟ ولماذا لم ينسبه إلى نفسه فيحوز شرف تأليفه  
وإبداعه؟ أما كان من الأوفق له أن ينسبه لنفسه ويتحدى به الآخرين، ولن يعارضه أحد في أنه  
صاحبه؟!

وأما فيليب حتي فيقول في كتابه "الإسلام منهج حياة": "إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، إنه لا  
يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد، وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن . . فمن جميع  
المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى".

يقول الفيلسوف الفرنسي هنري سيرويا في كتابه "فلسفة الفكر الإسلامي": "القرآن من الله بأسلوب سام  
ورفيع لا يدانيه أسلوب البشر".

وأما المستشرق بلاشير فلم يأل جهداً في الطعن في القرآن ومعاداته في كتابه "القرآن"، لكن الحقيقة غلبته،  
فقال: "إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً يمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة  
أدبية رائعة؛ تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف".

وبهرت جزالة القرآن وروعة أساليبه المستشرق الشهير، الأديب غوته، فسجل في ديوانه "الديوان الشرقي للشاعر الغربي" هذه الشهادة للقرآن: "القرآن ليس كلام البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله، فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله".

وقال: "إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة . . فالقرآن كتاب الكتب . . وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسمي".

#### رابعاً : الإخبار بالغيوب

ومما يمنع نسبة القرآن إلى النبي ﷺ ما أخبر عنه من الغيوب التي لا تنكشف إلا بوحي من الله علام الغيوب، فالغيب سر الله لا يعرفه إلا هو ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۚ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ أَنْبَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن: 26-28).

والنبي ﷺ يكسائر البشر لا يعلم الغيب المطلق ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (الأنعام: 50)، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضِرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: I88)، فإذا ما أخبر ﷺ بشيء من الغيب؛ فإنما يجبر بغيب لا يعلمه إلا الله، وتحقق هذه الأخبار شهادة صادقة على نبوته، وآية باهرة على أن ما يقوله إنما يقوله بوحي من الله.

ومن الغيوب الدالة على ربانية القرآن ما أخبر عنه من انتشار الإسلام وظهور أمره على الأديان، وبلوغه إلى الآفاق ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

(الصف: 9)، فهذه الآية نزلت بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد، والنبى الكريم يقرأها في زمن الاستضعاف، وهي إخبار بأمر غيب لا مدخل فيه للتخمين ورجم الظنون، فإما أنه خبر كاذب صادر من مدع لغير ما يستحقه، أو هو خبر صادق أوحاه الله الذي يعلم ما يُستقبل من الأحداث والأخبار.

## الطعن الثاني

### القرآن منقول من الكتاب المقدس؟

**الطعن : أن القرآن منقول عن الكتاب المقدس في كثير من معارفه ونصوصه التي شابته ما في الكتاب المقدس من أخبار السابقين .**

من الطبيعي أن يحتوي القرآن الكريم الذي هو آخر الكتب السماوية ومهيمنة عليها وبه أكمل الله دين الإسلام للناس وللبنية حتى تقوم الساعة ولقد صرح الكتاب الكريم في عدة نصوص قرآنية بذلك منها

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء: 105) .

ومثله في قوله: ﴿ بَلْ تُؤْتَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتُمْ إِنَّا هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى: 16-19) [I23] .

فوحدة المصدر تستلزم وجود التشابه، والتشابه بينهما يكون بقدر ما يشتمل عليه الكتاب المقدس من حق وما بقي فيه من هدي الأنبياء ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ

زُبُورًا ﴾ (النساء: 163) .

لكن التشابه بين الكتابين ليس مطرداً، فثمة فروق كبيرة بينهما سنعرض لبعضها بعد أن نبين أن الكثير مما يظنه البعض تشابهاً هو في حقيقته مشتمل على مفارقة كبرى تبطل زعم الزاعمين بالتشابه بين الكتابين.

فمثلاً لا تشابه ولا توافق بين ما جاء في الإنجيل وما جاء في القرآن عن المحرومين من دخول الجنة رغم ما قد يظن من تشابه السياقين، ففي الإنجيل أن المسيح قال لتلاميذه: "الحق أقول لكم: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله" (متى 19/23 - 25)، فهذا النص في تجريم الأغنياء وحرمانهم من الجنة؛ بينما القرآن ضرب هذا المثل في حديثه عن الكفار المكذبين الجرمين، لا الأغنياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: 40)، فالتشابه بين النصين ينطبق عليه تشبيه العلامة ديدات بالشبه بين الجبن والطباشير، وإن كنت لا أشك بتشابه القرآن مع ما أنزله الله على المسيح عليه الصلاة والسلام، مما أضاعوه وحرفوه .

ونود أن ننبه هنا إلى أن آيات القرآن بلغت 6236 آية، وأن التشابه بينها وبين النصوص الكتابية لا يزيد - مجال من الأحوال عن مائة آية، ونعتقد جازمين أن هذه الكتب قبل تحريفها كان فيها من صور التشابه مع القرآن ما هو أكثر من ذلك بكثير.

كما يلزم العلم بالاختلاف والبون الكبير بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس، فالعهد القديم (التوراة) في حقيقته هو تاريخ بني إسرائيل وأنسابهم وأعدادهم وسير ملوكهم وأنبيائهم وقصص حروبهم، فهو في الجملة كسائر كتب التاريخ المعروفة، كالبدائية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك للطبري، ولا يستثنى من ذلك إلا سفران فقط (اللاويون والثنية)، فهما معنيان بالأحكام التشريعية.

وأما العهد الجديد (الإنجيل) فيتكون من أناجيل أربعة، تضمنت سيرة المسيح من الولادة إلى الصلب المزعوم، فهي أشبه ما تكون بسيرة النبي ﷺ التي يرويها ابن إسحاق أو تهذيبها لابن هشام، كما يتضمن العهد الجديد أيضاً رسائل التلاميذ، وهي تحكي عن قصصهم ورحلاتهم وأعجوباتهم ووصاياهم الموجهة إلى أصدقائهم ومعارفهم لتوضيح بعض المفاهيم اللاهوتية أو لطلب بعض القضايا الشخصية.

أما القرآن الكريم فهو مختلف في تكوينه وموضوعه، فهو يحوي (شرح حقائق الإيمان - قصص السابقين - أحكام تشريعية - توجيهات للمجتمع المسلم - معالجة قضايا في العصر النبوي - وصف اليوم الآخر وما يتعلق به).

وينحصر المشترك بين موضوعات القرآن وموضوعات الكتاب المقدس في ثلاثة محاور (حقائق الإيمان - قصص السابقين - الأحكام التشريعية).

لكن نظرة فاحصة ستكشف التباين الكبير بين حديث القرآن وحديث الكتاب المقدس في هذه الموضوعات الثلاثة، ومن أمثلة التباين بين الكتابين أن القرآن يحرم الكثير والقليل من الخمر (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) (المائدة: 90)؛ فإن الكتاب المقدس يرى شربها وسيلة لعلاج مشكلات الفقراء، بنسيان أتعابهم وآلامهم: "أعطوا مسكراً لهالك، وخبزاً لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولا يذكر تعبته بعد" (الأمثال 31/7).

### الطعن الثالث

#### القرآن والعنف والآرهاب

ان أكثر ما شغل الاعلام والناس والعالم بأسره خلال العقود الثلاثة المنصرمة هي قضية العنف والإرهاب وخاصة بعد الأذى التي ألحقه التيار السلفي الجهادي بأمريكا على يد ابن لادن وماتبعه ذلك من أحداث وصولا الى تأسيس داعش كأحد ردود فعل التيار السلفي الجهادي على ملحق به من خسائر في أفغانستان والعراق واليمن وغير ذلك .

ان هذه الأعمال العنيفة الإرهابية وضعت الإسلام والمسلمين في خانة المشتبه بهم وقد انشغلت كل مراكز أبحاث الغرب وأكاديمياتهم وجامعاتهم ودراساتهم بدراسة ظاهرة العنف والإرهاب ولقد توصلوا الى قناعة معرفية عامة بأن وراء كل ذلك هو الدين نفسه وتعاليم الإسلام نفسه وبالتالي وصلت التهمة الى كتاب الله نفسه فأستخرجوا بعض النصوص القرآنية التي تدعو الى حرب المشركين والجهاد في سبيل الله وقالوا هنا يكمن منبع الإرهاب والعنف انه القرآن الكريم .

من النصوص القرآنية التي استندوا عليها في تثبيت ولصق تهمة العنف والإرهاب في كتاب الله :

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [توبة:5] .

وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً [توبة:36]

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [توبة:41] .

لم ترد كلمة السيف ولو مرة واحدة في القرآن لكن التيارات السلفية الجهادية تعتبر أن آية السيف كما يسموها توصل للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، فهي -حسبها- تأمر المسلمين بقتال المشركين أينما وُجدوا، في كل زمان ومكان.

### شهود اثبات منهم قالوا ان كتاب اللّٰه يدعو الى العنف والإرهاب

يُفسر بعض النقاد، مثل سام هاريس، أن آيات معينة من القرآن تجيز العمل العسكري ضد الكفار ككل خلال حياة محمد وما بعده. يقول سام هاريس إن التطرف الإسلامي هو ببساطة نتيجة لأخذ القرآن حرفياً، ويشك في الإصلاح الهام نحو "الإسلام المعتدل" في المستقبل.

وجادل المؤلف سيد كامران ميرزا أن مفهوم "الجهاد"، والذي يُعرف باسم "النضال"، تم تقديمه بواسطة القرآن. لقد كتب أنه بينما كان محمد في مكة، "لم يكن لديه الكثير من المؤيدين وكان ضعيفاً جداً مقارنة بالوثنيين" و"لقد كان في هذا الوقت قد أضاف بعضاً من "الآيات المسالمة" الهادئة"، في حين أن "جميع آيات الكراهية تقريباً والتخويف والقسرية في القرآن فيما يتعلق بالجهاد أضيفت في وقت لاحق عندما كان محمد في المدينة المنورة".

جادل جورج دبليو برازيل بأن القرآن يؤكد فكرة الجهاد للتعامل مع "مجال من العصيان والجهل والحرب" وجادل مايكل ديفيد بونر بأن "الصفقة بين الله وأولئك الذين يقاتلون يتم تصويرها على أنها صفقة تجارية، إما كعرض مع فائدة، أو على أنها بيع مريح لحياة هذا العالم مقابل حياة الآخرة"، حيث "يعتمد مقدار المكاسب على ما يحدث أثناء المعاملة"، إما "الجنة إذا قُتل في المعركة، أو النصر إذا نجح أحد".



جادل النقاد بأن القرآن "يمجد الجهاد في العديد من السور المدنيّة" و"ينتقد أولئك الذين فشلوا في المشاركة فيها .

يخلص سليمان نيجوسيان إلى أن "البيان القرآني واضح" بشأن مسألة القتال دفاعًا عن الإسلام باعتباره "واجبًا يجب تنفيذه بأي ثمن"، حيث "يمنح الله الأمن للمسلمين الذين يقاتلون من أجل وقف أو صد العدوان".

شاير أختران القرآن يؤكد أنه إذا كان الناس "يخشون محمد أكثر مما يخشون الله، فهم شعب يفتقر إلى المعنى" بدلاً من الخوف الذي يفرضه الله عليهم مباشرة.

تم تحديد العديد من الدعوات إلى السلاح في القرآن من قبل المواطن الأمريكي محمد رضا طاهري عازار، والتي تم ذكرها جميعًا بأنها "الأكثر صلة .

كتب دينيس براغر، وهو كاتب عمود ومؤلف، رداً على حركة تدعي أن الإسلام هو "دين السلام" أن "لم يكن الإسلام يوماً دين سلام. لقد بدأ كدين حربي وطوال تاريخه

ووصف الباحث جون ر. نيومان، الإسلام بأنه "معاداة مثالية للدين" و"نقيض البوذية".

وصف المستشرق ديفيد مارغوليووس غزوة خيبر بأنها "المرحلة التي أصبح فيها الإسلام خطراً على العالم كله".

يجادل مارغوليوت بأن اليهود في خيبر لم يفعلوا شيئاً لإيذاء محمد أو أتباعه، وينسب الهجوم إلى الرغبة في النهب ويصف السبب الذي قدمه النبي محمد للهجوم "لأن سكانها لم يكونوا مسلمين" وكتب أن هذا أصبح عذراً لغزو غير مقيد .

يصف فيليب دبليو سوتون وستيفن فرتيجانس وجهات النظر الغربية حول الإسلام على أساس صورة نمطية لها كدين عنيف بطبيعته، ويصفها بأنها "دين السيف" . ويصفون صورة الإسلام في العالم الغربي بأنها "سيطر عليها الصراع والعدوان و"الأصولية" و"الإرهاب العنيف العالمي

وكتب خوان إدواردو كامبو "لقد نظر الأوروبيون إلى الإسلام بطرق مختلفة: في بعض الأحيان كدين متخلف وعنيف، وأحياناً كخيال لليالي عربية، وأحياناً كمنتج معقد ومتغير للتاريخ والحياة الاجتماعية" وكتب روبرت جليف "في قلب المفاهيم الشعبية للإسلام كدين عنيف هي العقوبات التي تنفذها الأنظمة على أمل تعزيز قاعدتها الإسلامية المحلية والدولية"

أدى هجوم II سبتمبر على الولايات المتحدة إلى تصوير الإسلام كدين عنيف من قبل عدد من غير المسلمين وفقاً لكوريجان وهدسون "اشتكى بعض القادة المسيحيين المحافظين من أن الإسلام يتعارض مع ما يعتقدون أنه أمريكا مسيحية" . وأمثلة من المسيحيين الإنجيليين الذين عبروا عن مشاعر كهذه تشمل فرانكلين جراهام، وهو مبشر أمريكي، وبات روبرتسون، وهو قطب إعلامي أمريكي . [وفقاً لدراسة استقصائية أجرتها مؤسسة "لايف واي ريسيرتش" ، وهي مجموعة بحثية تابعة للجمعية المعمدانية الجنوبية، قالت إن اثنين من أصل ثلاثة من القساوسة البروتستانت يعتقدون أن الإسلام دين "خطير" . وقال إد ستيتزر، رئيس "لايف واي" ، "من المهم أن نلاحظ أن الاستبيان سألنا عما إذا كان الرعاة

يعتبرون الإسلام "خطيراً"، لكن ذلك لا يعني بالضرورة "عنفاً". الدكتور جونسون كتب مقالاً بعنوان "الجدور الدينية للعنف المسلم"، وناقش فيه بإسهاب جميع جوانب القضية وخلص بشكل لا لبس فيه إلى أن العنف المسلم يستند في معظمه إلى أوامر دينية إسلامية.

### تصنيف هذه الشهادات والأدلة

ان هذه الشهادات تقوم على أساس واحد وهي تكوين طعنهم وتشكيكه بالاستناد الى التأويل أو التفسير المغلوط للنصوص القرآنية وما يحزن النفس ان الكثير منها أستند على أقوال فقهاء التيار الأصولي السلفي ومفسريهم لذلك لا بد من وضع النقاط على الحروف هنا والرد على هذه الشهادات وبالتالي نفي هذه الشبهة التي ألصقت بكتاب الله ودينه .

### الرد على شبهة ان القرآن يدعو للارهاب والعنف

#### أولاً

#### القتال المشروع في القرآن الكريم

إن القتال المشروع في القرآن الكريم إنما شرع لرد العدوان ودفعه، وهذا أمر واضح من قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة/190]، فهذا النص القرآني قطعي وفيه تحديد لعلاقة المسلمين بالأخر فالقتال في سبيل الله واجب وفي سبيل الله تعني الدفاع عن قيم الله ورسالته ودينه ورسوله والمؤمنين بها وكذلك لرد العدوان عن الأنفس والأرض والعرض والمال اما ما سوى ذلك فهو اعتداء الله يقول لا تعتدوا فهو لا يحب المعتدين .

فهذا نص فسرهُ ابن عطية الغرناطي بقوله: "قاتلوا من قاتلكم، وكفوا عنكم كف عنكم" (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، طبعة قطر، ص 138)، وأضاف إلى هذا قوله: "ولا تعتدوا في قتالكم من لم يقاتلكم".

وبين محمد أسد في ترجمته للقرآن "أن هذه الآية وما بعدها تدل على أن القتال لا يُسمح به إلا في حالة دفع العدوان، فهذا وحده ما يبرر القتال، .

وأشار إلى تفسير الطبري، وابن كثير للآيتين 39-40 من السورة 22 أي سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

ويلاحظون ان النص القرآني بدأه الله سبحانه وتعالى بقوله اذن للذين يقاتلون بضم الياء أي الذين وقع عليهم القتال وفرض عليهم فرضاً فهؤلاء من حقهم القتال والدفاع عن النفس والمعاملة بالمثل .

أن المبدأ الأساسي للدفاع عن النفس هو فقط المبرر للحرب، وهو الذي ثبت في القرآن كمبدأ واضح،

وقوله تعالى: ﴿... فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

[النساء/90]، وإلى قوله تعالى: ﴿... فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

حَيْثُ تَقْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء/91].

وأن تفسير أي آية في القرآن يجب أن تُقرأ وأن تُؤوّل في ضوء الأرضية القرآنية ومجمل مقاصدها، ومجمل السور والآيات باعتبارها كلا واحداً، وهذا ما نبه إليه أكثر من مرة ومناسبة، وهو ما نسميه بالتفسير الموضوعي.

وأضيف إلى ذلك أنه يجب أن تُقرأ وتُفسّر آيات القرآن في السياق التاريخي وظروفه وأحداثه التي نزلت فيها آياته.

فهذه الآيات القرآنية لم تحرض على قتال أهل الكتاب وإنما على المشركين وهم من العرب وأكثرهم من قريش ومن أقرباء الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

إن سورة الأنفال مثلاً نزلت بعد معركة بدر (السنة الثانية من الهجرة/624 ميلادي)، ومعركة بدر هي أول معركة مسلحة حاسمة بين القوة الإسلامية وقوات المشركين، وهددت قريش، عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، كتبت إليه أنه عليه أن يُخرج المسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة، أو يقاتلهم، لما رأوا من زيادة المؤمنين عدداً وقوة، كما قال أحد الباحثين الغربيين "الإسلام قبل معركة بدر كان مجرد دين، وبعد بدر أصبح دين دولة، أو هو الدولة في ذاتها"، إن المسلمين قاوموا أغنى قبيلة عربية في الجزيرة وهي قريش، وحلفاءها، ومعنى هذا أن هذه القرية الصغيرة في عددها السكاني الذين لا يتجاوز بعض الآلاف من الأنفس، أرادت أن تولب عداوة الجزيرة العربية كلها ضد المسلمين للقضاء عليهم، ولكنها هُزمت شر هزيمة في بدر، سبعون من فرسان قريش وزعمائها قُتلوا، وسبعون آخرون وقعوا في الأسر، فهذا الانتصار الحاسم جعل الإسلام قوة، ذات سمعة في أنحاء الجزيرة كلها، ويقدر له قدره.

وكان كعب بن أشرف اليهودي ذهب إلى مكة ليحرض المشركين ضد المسلمين، كما هدد بنو قريظة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا ممن عاهدوه أن لا يحاربوه، ولا يعينوا عليه عدوا، ثم نقضوا عهدهم، وأمدوا المشركين بالسلاح والعدة يوم بدر، ثم اعتذروا واعترفوا بخطيئتهم، ثم عاهدوه أن لا يعودوا، إلا أنهم نكثوا عهدهم يوم الخندق، وأمدوا الأحزاب بالسلاح.

نقض عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين عهد النصر، في أحد، فانخذل ومن معه وكانوا ثلث الجيش، ولذلك جاءت سورة براءة، فبرأت من هذه العهود، التي نقضت من عدة فرق من المشركين والمنافقين.

وأشارت الأنفال إلى ذلك (الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ، فَمَا تَقَاتَلْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ بِمَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ)، ويرى ابن عاشور أن الأظهر أن هذه الآية نزلت

بعد واقعة بدر، وقبل واقعة الخندق، فلم يتقوا سوء السمعة، فإن الغدر بالعهد يعتبر من القبائح عند العرب، فأدى ذلك أن يحاربهم المسلمون نكالا لغيرهم متى ظفروا بهم في حرب يشنونها على المسلمين، أو يعينون عليهم عدوهم، ليكونوا عبرة لغيرهم، ولذلك نكل المسلمون بقريظة، فحوصروا وقوتلوا، وحكم عليهم سعد بن معاذ، ولذلك أمر المسلمون بالإغلاظ عليهم، وعلى أمثالهم من ناقضي العهود، وكل من سلك مسلكهم، يشرد بهم في الحرب إن ظفروا بهم ليكونوا عبرة ومثلا لغيرهم، فإنهم كانوا يستضعفون المسلمين، ويعتدون عليهم، والمقصود بقوله: (مَنْ خَلْفَهُمْ)، أي لعل من خلفهم، أي من يأتي بعدهم،

يتذكرون ما حل بمن نقض العهد، معناه: الاتعاظ والاعتبار لغيرهم (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص141)، إذا بدرت من قوم ما بادرة غدر وخيانة فإنهم يقاومون، ويرد عدوانهم، ودلت الأمارات والأخبار، على عدم وفائهم بالعهد بما يأتي به التجسس، فقد أمر الله أن يرد إليهم عهدهم، ومعنى

الحيانة نقض العهد، ويترتب على ذلك نبذ هذا العهد، لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية، لا يُنتظر فيها تحقق وقوعها، وإلا تعرض المسلمون للخطر، أو التورط في غفلة وضياع المصلحة، فسياسة الأمة لا تدار بما يدار به القضاء في الحقوق، إذا فاتت كانت بليتها على واحد، وأمكن تدارك ما فات، أما مصالح الأمة، إذا فاتت فإن عدوها يتمكن منها، ولذلك علق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء، ولخصت الآية هذا كله في قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال/58].

وسورة التوبة نزلت في ذي القعدة سنة 9 من الهجرة، وبعضها في رجب سنة 9 هجرية، ومحتوى السورة متعلق بالأحداث التي أعقبت معاهدة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة: 6 هـ / 628.

ويشير السياق التاريخي إلى وجود واجهتين أمام المسلمين؛ واجهة العرب وقيادتها من جهة، وواجهة الإمبراطورية البيزنطية على حدود شمال الجزيرة في الشام، وأهم حدث هو نقض قريش لمعاهدة الحديبية، بعدوان قبيلة بني بكر حلفاء قريش على قبيلة خزاعة حلفاء المسلمين، ويذكر ابن عاشور أنه: "يرى المحققون من مؤرخينا أن قتال المسلمين للمشركين إنما كان أوله دفاعاً لأذى المشركين لضعفاء المسلمين، والتصديق عليهم حينما حلوا، فتلك هي الفتنة التي أشار إليها القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ اتَّهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال/39]، أي "فإن يعودوا فقاتلوهم" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص99)، فإذا انتهت الفتنة انتهى القتال لتحقيق هدفه، وهو انتهاء ما كانوا يفتنون به المسلمين، والبراءة إنما كانت من المشركين الذين نقضوا العهد، ولا يشمل ذلك الذين لم ينقضوا العهد . (الرازي، ج8، ص232).

ولما خرج المسلمون إلى تبوك، وتخلف المنافقون وبثوا الإشاعة أن المسلمين سيُهزَمون، أخذ المشركون ينقضون العهد، لم يترك المسلمون الفرصة فبادروا بمهاجمة قريش في مكة وفتحوها سنة 8 هـ / 629.

وعند رجوعه من تبوك إلى المدينة، أخذت الوفود من مختلف القبائل تفتد إلى المدينة من أنحاء كثيرة، من الجزيرة العربية، تروي بعض الروايات أنه وفد سبعون وفدا من مختلف القبائل، رؤساء العشائر، وأمراء، وقد أشارت سورة النصر إلى ذلك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

واستثنت سورة براءة، الذين لم ينقضوا عهدهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ...﴾ [التوبة/4]، فهذا الفريق وأمثاله من المشركين باقون على حرمة عهدهم، وعلى السلم معهم لأنهم وفوا بعهدهم على أتم وجه، فلم يكيدوا للمسلمين بكيد، ولا ظاهروا عليهم عدوا لا سرا ولا جهرا، فهؤلاء أمر المسلمون أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدة التي عاهدوا عليها، وفهم من هذا أن الذين أمر الله بالبراءة منهم هم بخلاف هؤلاء، فهم قومٌ نقضوا ما عاهدوا عليه، فكادوا وغدروا سرا أو ظاهرا، وأمداوا العدو بالمدد والجوسسة، إخلالا بالعهد، ومن هؤلاء قريظة الذين أمداوا المشركين غير ما مرة بالسلح والعدة، وبنو بكر الذين اعتدوا على خزاعة، وهي قبيلة في حلف مع المسلمين. (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص20).

### الجهاد في سنوات الإسلام الأولى

في اللغة العربية، "الجهاد" يعني عموماً "الاجتهاد" أو بذل "جهد حثيث"، والمجاهد هو الشخص الذي يجتهد أو يشارك في الجهاد. وكثيراً ما يتسع معنى هذه الكلمة ليشمل الجهاد في سبيل الله، وذلك لأجل



تميز العبارة عن استخدامها ما قبل الإسلام والتأكيد على أن بذل "الجهد الحثيث" يتم بتوكيل من الله .  
غير أن الدلالات الدينية على نحو خاص للكلمة تحمل درجات مختلفة من المعاني حتى في القرآن الكريم،  
حيث أن معنى الجهاد يتغير بالتزامن مع البيئة الاجتماعية-السياسية المتغيرة التي طوّر خلالها النبي محمد  
عليه الصلاة والسلام .

فخلال الفترة "المكية" الأولى للإسلام، ركزت رسالة النبي محمد الكريم على نشر الإسلام مقابل نظام  
سائد اتسم إلى حدّ ما بالوثنية وعبادة الأصنام وتعدد الآلهة. وعقب هجرة النبي القسرية من مكة  
المكرمة إلى المدينة المنورة في 622 وتوحيد أمته، اتخذ الجهاد معنىً نشاطياً متخصصاً في الدفاع عن  
الدين ونشره. وبالفعل، يتعارض معنى الجهاد "السلي" في الآيات القرآنية المكية الأولى مع المعنى  
"الإيجابي" " للجهاد في الآيات القرآنية المدنية.

\* آيات الجهاد 26 آية منها 19 تاريخي و7 ديني .

\* آيات القتال 38 منها 24 تاريخي و14 ديني .

\* الآية 35 بالمائدة هي الآية المحكمه ولها 6 آيات تفصيل وبيان .

\* الآية 216 بالبقره هي الآية المحكمه فى القتال ولها .

13 آية تفصيل وبيان .

وهنا يجب أن نلاحظ أنه لا توجد لفظتان في القرآن لهما نفس الدلالة والمعنى وعليه فلا يجوز ان نعتبر

أن (الجهاد) هو (القتال) وأن (القتال) هو (الجهاد) .

قال تعالى (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا  
مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ لقمان 15 .

فالجهاد في هذا النص الكريم هو من قبيل الجهاد النفسي .

بينما القتال بدني ، وعليه فالجهاد أشمل بكثير وأعم من القتال، والقتال محدود للغاية في المعنى والدلالة  
وقاصر على المعارك البدنية المسلحة حصرا، وعليه ليس كل جهاد نفسى هو قتال طبعاً قال تعالى .

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة العنكبوت: (6) .

وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة العنكبوت: 69 .

وعليه تشير الآية إلى أن المجاهدين يصفهم الله بالحسنين والحسنين فى المصحف هم من يقومون بثلاثة  
أفعال حصرية الانفاق والعطاء فى اليسر والعسر وكظم الغيظ وعدم الانفعال ولجم الذات حالة تعرضها  
لاذى وعدم الانشغال او التفكير نهائيا فى الانتقام من من ألحق بهم الأذى والضرر لأنهم موقنون أن الله  
على كل شئ شهيد طبعاً وأن الحساب حقيقة مطلقه يؤمنون بها وعليه فالجاهدون محسنون طبعاً لكن  
هل المقاتلون محسنون لا طبعاً .

قال تعالى (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) البقرة 190

\*قال تعالى، (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ  
مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) البقرة 194

﴿قَالَ تَعَالَى . ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ

الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ سورة النساء:

وقال تعال . (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ

حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ

يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (41:39).

هذه النصوص كلها تعني القتال لرد العدوان والدفاع عن النفس وهو أمر مشروع في القوانين الدولية حتى

يومنا هذا .

وهناك سؤال جوهري يطرح نفسه وهو: لماذا تقاتل الكفار؟ أهو مجرد كفرهم؟ أو لعدوانهم على

المسلمين بصورة وأخرى؟ وبعبارة أخرى؛ هل العلاقة بين المسلمين وغيرهم مبني على السلم أم مبني

على الحرب؟

عندما رجعت إلى كتب الفقه لأستقي منا آراء الفقهاء رحمهم الله، وجدت أن الفقهاء قديماً اختلفوا في

علة الجهاد القتالي على قولين:

القول الأول: العلة هي الحراة، وهو قول جمهور العلماء من الحنفية والحنابلة والمالكية وقول عند

الشافعية .

أي نحن نحارب الكفار، لأنهم يجاروننا، من باب المقابلة بالمثل، وبناء على هذا فنحن لانحارب الكفار المسلمين، كما قال الإمام ابن القيم: «فلما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر أهل الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يجاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه، امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث يقول: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحداً على الدين».

هذا هو القول الصح في تفسير النصوص القرآنية ولا أدري يشذ البعض عن هذا المبادئ ويصنع لنفسه قولاً أو تفسيراً خاصاً به وبذلك يفتح المجال للفتن ولعمل الشيطان لناخذ مثلاً رأي الشافعي وقول ابن حزم الظاهري وهو من المالكية يقول أصحاب هذا الاجتهاد الغريب :

أي نحن نحارب الكفار من أجل كفرهم وليس من أجل محاربتهم إيانا، وبناء على هذا فنحن نحارب الكفار المسلمين حتى يسلموا أو يعطوا الجزية . بعبارة أخرى: «الجهاد فرض كفاية ابتداء وإن لم يبدأ الكفار بالقتال» .

مثل هذه الفتاوى يتلقفها بعض المسلمين لتكون سنداً لهم في عدوانهم على الآخرين ألم يعتمد التيار السلفي الجهادي على هذه الفتوى وغيرها وفعلاً ما فعلوا والنتيجة كانت كارثية على الدين والمسلمين ان أدلة الجمهور واضحة في تحريم القتال والعدوان على الآخرين المختلفين عنا بديانتهم وعقائدهم فلهم دينهم ولنا ديننا ومن هذه الأدلة :

أ: من القرآن الكريم:

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة: 190]

(الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) [التوبة: 13]

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى

إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [المتحنة: 9-8]

وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: 36]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنفال: 61]

فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) [النساء: 90]

ان هذه النصوص القرآنية تضع تشريعا دوليا للتعامل مع الدول ولا أدري أين كانت عقول وبصيرة الذين لم

يشاهدوها من المنقذين وأقتوا بما خالفها مرضاة لكبرياءهم الفقهي او لحبهم للمخالفة والاعتراض طمعا

في سمعة دنيوية .

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله، وباللغة، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا

شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا) وأحسنوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: 195]» [5]

عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «أخرجوا بِسْمِ اللَّهِ تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَمْلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»

ومناطق الاستشهاد في هذه الأحاديث أن رسول الله نهى عن مقاتلة من لا يواجهون المسلمين بالعدوان والقتل، وإن كانوا كافرين، ولذلك خلى رسول الله ٢ سبيل من عاهده أن لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، كما استثنى عليه الصلاة والسلام المرأة والطفل والشيخ الفاني وأصحاب الصوامع من مقاتلتنا إياهم.

هناك بعض النصوص القرآنية التي فسرها البعض على أنها تحض على قتال كل من لم يؤمن بالله بما فيهم أهل الكتاب ومن هذه النصوص :

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة: 193)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الأنفال: 39)

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (التوبة: 5)

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبة: 29)

فالنصوص الأربعة تتعلق بمجريات الحرب المشتعلة بين الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والمسلمين من جهة والمشركون من جهة ثانية لكن أضاف الله صنفا آخر وجب قتاله في النص الرابع وهم الذين أوتوا الكتاب وقد وضعهم الله في صنف المشركون لسببين أولهما انهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا

يدينون دين الحق الذي هو دينهم أيضا والسبب الثاني فهم ساعدوا المشركين وتدخلوا لصالحهم في هذه الحرب فمن الطبيعي أن يعتبروا معتدين فوجب محاربتهم .

أنظروا لهذا الحديث المقتعل الذي يتبين من منطوقه انه حديث كاذب مقتعل

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبَقُوا شَرْحَهُمْ» أَي: صغارهم

وقارنوه بهذا الحديث : عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ٢ إذا بعث جيوشه قال: «أَخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ

تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَمْشُوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ

الصَّوَامِعِ» .

هل من المعقول أن ينطق رسول الله عليه الصلاة والسلام بمجديئين متناقضين وهو كما يقولون وما ينطق

عن الهوى والغريب ان الشافعي وابن حزم استدل بالحديث الأول لترجيح اجتهادهم القائل بجواز قتال

الناس لمجرد أنهم كفار .

## نتيجة

يتبين لنا واضحا من ان كتاب الله الذي يدعو الناس كافة للإيمان بالله انقاذا ورحمة بهم لا يمكن أن يكون

داعيا لقتلهم لمجرد أن بعضهم قال لم تؤمن وهو قد ترك لهم الخيار : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

والتي جعلها المولى القدير قاعدة أساسية من قواعد الدين والسبب في ذلك لأن الله خلقهم للاختبار

ولحرية الاختيار فان عقابهم دنيويا وبالقتل يتنافى كليا مع حكمته وارادته .

لكم مصيبتنا تكمن في العقل الديني المجتهد والذي صار يتلاعب بتأويل وتفسير النصوص القرآنية كيفما أراد وخطر على باله والأدهى من ذلك قام بصنع الاحاديث النبوية وروايتها عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام زورا وبهتاناً .

## الطعن الرابع

### الطعون والأباطيل المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله

#### نسبة صفات النقص إلى الله تعالى

ادعوا واهمين ان القرآن نسب إلى الله صفات لا تليق به، وهي المكر والخداع والكيد والنسيان، وذلك في مثل قول الله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: 142)، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ (الأنفال: 30)، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق: 16)، وقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: 67) .

الجواب: يلزم التنبيه أولاً أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ينزه الله عن النقائص، فلا يوجد فيه ما في كتب الآخرين التي تتحدث عن مصارعة الله ليعقوب وتغلب يعقوب عليه، وأكله الزبدة واللبن واللحم عند إبراهيم، وغيره مما لا يليق بجناب الله العظيم .

فالقرآن يخلو عن مثل هذا، وهو لا ينسب إلى الله تعالى إلا صفات الكمال والجلال، ولا يسميه إلا بأحسن الأسماء ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180)، وكذلك: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (طه: 8) .



ومن أسمائه جل وعلا الحسنى ما ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۚ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ  
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ  
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: 22-24).

ولئن كانت أسماء المخلوقات جامدة معطلة لا تنفد معانيها، وتنحصر دلالتها في التعريف بالذات؛ فإن  
أسماء الله تدل على ذاته، وهي أيضاً أوصاف لذاته العلية تبارك وتعالى، وتدل على غاية الكمال في  
اتصافه بها، فهو الملك الذي لا ند له في ملكه، وهو الحكيم الذي لا يدانى في حكمته.

ووفقاً لما سبق فإن الله لا يسمى بأسماء تنتقص ذاته العلية؛ كالماكر والمخادع والكائد، فهذه الأسماء لا  
كمال فيها، فلا يسمى بها الرب تبارك وتعالى، كما لا يوصف بالمكر والخداع والكيد، وإن فعل تبارك  
وتعالى هذه الأفعال، فباب الأفعال أوسع من الصفات.

وهذا الأسلوب الذي عرفه العرب في كلامهم جاء في القرآن صور كثيرة منه، لنزوله بلسان عربي مبين،  
ومن صور المشاكلة اللفظية في القرآن قوله تعالى: [ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ] (الشورى: 40)، فسمى  
عقوبة السيئة وقصاصها سيئة؛ مع أنها ليست سيئة على الحقيقة، بل هي عدل وحق، فالمعنى: وجزاء  
سيئة عقوبة، واستخدمت كلمة سيئة للمشاكلة اللفظية، وليس المراد منها معنى السوء حقيقة.

ومثله قول الله تعالى: [ مَنْ اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ ] (البقرة: 149)، فرد  
الاعتداء ليس اعتداء، لكن جاز تسميته كذلك في باب المشاكلة اللفظية، ومثله [ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَضُوا عَنْهُمْ ] (البينة: 8)، فكل منهما على معنى، وأمثاله في القرآن كثير.

## الطعن الخامس

### هل يضل الله عباده؟

قالوا: أتى القرآن بالمنكر من القول حين ذكرت آياته أن الله يضل من يشاء، والإضلال عمل مشين، فكيف ينسبه القرآن إلى الله عز وجل؟! وكيف يعذب الله بناره من أضلهم وحجب عنهم هدايته؟ يجب أن نفهم بعض النصوص المتعلقة بفعل الشرك وهل هو بأمر الله ومشيتته كما يدعون أما هو من أنفسهم وهذه النصوص تتعلق بمشيئة الله في كونه وخلقته .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ [الكهف : 29]

ويقول : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : 30]

وقوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ - الأنعام

وقوله سبحانه وتعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكِيلٍ الانعام

فقوله تعالى وما تشاءون إلا أن يشاء الله تعني ان مشيئة الله هي الحاكمة المتحكمة في الكون ولا يمكن لأي شيء أو كائن أن ينفذ منها لأنه هو المهيمن والمسيطر وضمن هذه المشيئة فهو قادر على ان يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وقوله تعالى : من يشاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

أي قدر الله أن يترك للإنسان هذه المشيئة أي حرية الاختيار دون سواه من مخلوقات الله فله أن يؤمن وله أن يشرك لكن يبقى لله المشيئة العليا سنضرب مثالا على ذلك :

لو أنني شئت ونويت أن أقوم بأي عمل غدا كأن أسافر أو أكتب مقالا فأستطيع اذا جاء صباح الغد أن أفعل ذلك أو أن لا أعمله فلي حرية الاختيار لكن أبقى في الواقع والحقيقة تحت مشيئة الله وأرادته فيمكن أن يحدث أمرا يمنعني من تحقيق مشيئتي لتنفيذ مشيئة الله العليا من هنا يفهم قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ) أي لو شاء لأجبرهم أن لا يشركوا لكن الله ترك لهم ولنا حرية الاختيار ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

لذلك المشركين لعبوا على الألفاظ هنا وأدعوا وقالوا (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا )

وهو هذا منطق انسان قدرني اتكالي وحجة لنفي الفعل عن نفسه وتحميله لله لنفي المسؤولية عن نفسه بالتالي الخلاص من الجزاء .

وهذه القاعدة تطبق على الآيات التي يقول الله فيها ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : 39]

وهنا نعيد تطبيق ما ذكرناه أعلاه على هذا النص ونقول ان النص يتحدث عن الذين كفروا ويرجع ذلك انهم كانوا صم وبكم أي أنهم تقصدوا في أن لا يسمعوا كلام الله وهم يصرون على ذلك ومتعمدين فعله أي أنهم شاءوا فعل ذلك وهي مشيئة واختيار منحها الله لهم لكن الله سبحانه وتعالى ينبئ رسوله

الكريم بأن الله قادر على أن يجعلهم على الصراط المستقيم اذا شاء وأراد وهو قد منحهم مسبقاً حق السير في الضلال او السير في الطريق المستقيم .

وأما مسألة تعذيب الله لمن أضله وقول القائلين بأنه مناف لعدل الله، فإنما يصدق لو كان إضلال الله للناس ابتداءً، وهذا محال على عدل الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: II5)، فقد خلق الناس جميعاً على الفطرة موحدين

ولتقوم حجة الله على عباده فإنه وهبهم العقل؛ ليميزوا به بين سبيل الخير وسبيل الشر: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: IO)، ولأجل ذلك أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب، ولو كانت الهداية والإضلال جبرية حتمية لما كان من ضرورة لإرسال النبيين ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: IO65) .

والمأمل في آيات القرآن يرى جلياً أن إضلال الله لهؤلاء الذين أضلهم ، فقد أضلهم لاختيارهم العمائة ورفضهم الهداية وتنكبهم طرقها، فالله يضل من اختار الضلال، وفي المقابل هو يهدي من اختار الهدى والرشاد .

وقد نبه القرآن على هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: 5) [228] ، فكان إضلال الله لهم ومنعه الهداية عنهم بسبب زيغانهم، ومثله قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: IO) .

ومثله حال أولئك الذين صرف الله قلوبهم عن النور والهدى بسبب استكبارهم عن قبول الحق ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: 146).

ووفق هذه القاعدة أيضاً أضل الله من نقض عهده وميثاقه وأفسد في الأرض بالمعاصي: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: 26-27)، فهذا الفاسق يستحق الضلالة بسبب إفساده في الأرض وعمله المشين.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: 110)، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل: 37)، فكل هؤلاء الذين أضلهم الله لا يستحقون هداية الله بسبب فعالهم القبيحة: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (آل عمران: 86-87).

وكما أن الإضلال نتيجة للضلال ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى: 40)، فكذلك هداية الله إنما هي توفيق وجزاء لمن اختار طريق الطاعة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء: 175)، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ

بِالْحُسْنَى ` فَسُنِّيَسْرُهُ لِيُسْرَى ` وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْنَى ` وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ` فَسُنِّيَسْرُهُ لِّلْعُسْرَى ﴿  
(الليل: 10-5) .

ومثل هذه المعاني التي يستكرها أهل الكتاب على القرآن وردت في كتبهم ، ومنه قول بولس: " لأنهم لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا ، ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب ، لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق ، بل سرروا بالإثم " (تسالونيكى (2) 2/10-12) .

وبعد ثبوت براءة القرآن مما نسبوه إليه فإني أتساءل والعجب يلفني: هل جهل أصحاب هذه الشبهة وجود ما استكروه على القرآن في كتبهم؟ ألم يقرؤوا ما جاء في سفر حزقيال ، وهو من الأسفار المقدسة التي يؤمن بها الطاعنون في القرآن من اليهود والنصارى: "النبى إذا ضل وتكلم بكلام ، فأنا الرب أضللت ذلك النبى" (حزقيال 9/14)؟! ، وفي العهد الجديد يذكر بولس أن الله يقسي قلوب من أراد ضلالهم: "هو يرحم من يشاء ، ويقسي من يشاء" (رومية 9/18)، فماذا هم قائلون؟

وبعيداً عن التعليل القرآني الذي ذكرناه لإضلال الله أهل الشر من عباده؛ فإن بولس لا يجعل الهداية والإضلال بسبب اختيار البشر ونتيجة أفعالهم، بل يسنده وما يستتبعه من العذاب إلى حق الله المطلق في فعل ما يشاء ، فيقول: "فتقول لي: لماذا يلوم بعد ؟ لأن من يقاوم مشيئته ! بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ أعل الجبلتة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة، وآخر للهوان" (رومية 9/21)، فالإضلال حسب النص الإنجيلي لا يتعلق إلا بالمشيئة الإلهية، وليس بسبب ظلم العباد وضلالهم وطغيانهم .

## الطعن السادس

### هل يأمر الله بالفحشاء؟

ادعوا ان القرآن ينسب إلى الله الأمر بالفاحشة في قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: 16)، ففهموا منه أن الآية تقول: الله أمر المترفين بالفسق، ثم عاقبهم على ذلك !

والجواب: لم يظهر في منطوق الآية صريحاً حقيقة ما أمر به الله ، فالآية تقول: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾، ولا تحدد حقيقة المأمور به ولا تفصيله، لكن مفهوم الآية يدل على أن الله أمرهم بالطاعة ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ بعصيانهم له، فالفسق هو الخروج عن الطاعة .

قال ابن منظور: " (فسق عن أمر ربه) خرج من طاعة ربه، والعرب تقول إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها، وكان الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس ، والفسق الخروج عن الأمر وفسق عن أمر ربه أي خرج ."

ومن هذا تبين أن فسقهم هو خروجهم عن أمر الله الذي أمرهم بالصلاح ، فخرجوا عن أمره، والله عز وجل لا يأمر إلا بالصلاح، ولا يدعو تبارك وتعالى إلى الفاحشة ولا إلى السيء من القول أو الفعل ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ أَنْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 28) .

يقول وليد الحسيني وهو أحد الذين أعمى الله بصيرته وأردت من دينه وإسلامه مجرد أذى الحق به أحدهم وحتى ينتقم من هؤلاء الذين ضرروا به ولا نعرف حقيقة السبب الذي جعله يتعرض للضرر قام

بالتهجم على القرآن الكريم والإسلام والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فراح يسطع أو يسرق بعض الطعون ويوجهها نحو الدين وفي اعتقاده أنه استطاع أن يصيب الإسلام والقرآن في مقتل وعمل شيئاً عجز عنه أمثاله المنافقين يقول :

(( ودع عنك أن الإله لا ينبغي له أن يأمر بالفسق، فإن قوله فحق عليها القول دليل على أن القرية لم يحق عليها العذاب إلا بعد فسق المترفين، فكيف جاز له أن يقرر هلاكها قبل أن تستحق القرية ذلك؟ وإذا كان المترفون في كل قرية قلة وأغلب الناس فقراء فلماذا يهلك الكثرة بفسق القلة المترفة؟ خاصة إذا كان هو المحرض على هذا الفسق؟

ولشد ما أكره أن أظهر بمظهر السفسطائي ولكني لا أملك إلا أن أطرح هذا السؤال: إذا كان الله قد أمر المترفين بالفسق فهل يجب عليهم طاعته أم عصيانه؟ فإذا أطاعوه فقد ارتكبوا فسقاً وجب به هلاكهم، وإن عصوه فلم يفسقوا غضب عليهم لعصيانهم إياه فكيف المخرج؟ وبعد تفكير خلصت إلى أن من أراد اتهامه بالسفسطائية فليوجه الإتهام إلى الله نفسه فهو الذي وضعهم في هذا الموقف أما دوري فيه فلا يتعدى الصياغة وإلقاء الضوء.

وكمثال على الدور الفهلوي الذي يمارسه الفقهاء، هاك طرفاً مما قالوه في تفسير أمر الله بالفسق منقولاً من تفسير ابن كثير (علامات التعجب من عندي):

واختلف المفسرون في معناها فقليل معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً كقوله تعالى "آتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا" -- وقالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش!! فاستحقوا العذاب -- وقيل معناه أمرناهم بالطاعات!! ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عباس وقاله سعيد بن



جبر أيضاً -- وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ جَعَلْنَا هُمْ أَمْرَاءَ -- قَالَ عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ سَلَطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ وَهُوَ قَوْلُهُ " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا " الْآيَةَ وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ -- وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَعَنْ مَالِكٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ

وسواء أمرهم بالفسق أو سخرهم لفعل الفواحش أو جعل مترفيهم أمراء أو سلط أشرارهم أو أكثر أعداد المترفين في هذه القرية فيبقى الله مسؤلاً عما حدث فيها من الفسق بتحريكه لخيوط اللعبة ((

فهذا الرجل الذي انسلخ عن الإسلام وجد ان هناك اشكاليه في نص قرآني لم يفهمه فبدلاً ان يتابع البحث للوصول الى تفسير موضوعي الا انه مصر على المضي في غيه وحقده .

وتفسير هذه الآية واضح اذا كانت لنا نية صادقة أولاً واذا استندنا الى مقولة ان القرآن يفسر بعضه بعضاً .

## الرد

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾ .

فلقد أمر الله المترفين فيها بالصلاح وهم الأغنياء وعادة ما يكون المترفين هم أصحاب القرار وأهل الحل والعقد وهؤلاء لم يستجيبوا لأمر الله ففسقوا فيها بدل أن يستجيبوا لأمر الله بالصلاح والتقوى تحذوا الله وفعلا العكس لذلك فحق عليها القول فدمرها الله تدميراً .

وبذلك يهدم كل الأساس الذي بناه هذا المفتري للطعن في كلام الله وأصبح تفسير الآية هو :

ان الله عادل في حكمه وقضائه ولا يظلم مثقال ذرة ويضع الظلم على ذوات المفسدين والمترفين

وأنفسهم وكانوا أنفسهم يظلمون فهذه القرية كلها مشهورة بالفسق فأراد الله أن ينذرها وهو عالم بمصيرها

كقرية لوط فأمر مترفيها وأغنياءها وهم عادة كبار القوم والمؤثرين ويسمع قولهم وكلامهم أمرهم بالطاعة والابتعاد عن الفسق والفجور لكنهم تبادوا في فسقهم وفجوره فعلم الله بهم قد أصبح حقيقة فحق عليهم القول أي استحققت عدل الله فيها وتحقق علم الله فيهم لذلك فدمرهم تدميرا .

أما هذا المسكين الذين راح يدافع عن هؤلاء الفاسقين من أمثالهم كذبا وافتراء وجهلا راح يصور المشهد بصورة إنسانية وانهم لم يفعلوا شيئا مجريتهم بل بأمر الله فكيف يعاقبهم ويعذبهم بهذا الشكل يحاول هذا السخيف الجاهل اقناع المهزوزين والمهزومين من أمثاله .

## الطعن السابع

### هل يتحسر الله ؟

ادعوا ان القرآن نسب إلى الله أفعالا إنسانية مثل التحسر في قوله: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (يس: 30)، والتحسر أشد الندم، فهل الله

يتحسر؟

والرد : أن هذا النص القرآني لم يذكر مطلقاً صدور الحسرة من الله، بل تحكي تحسر الكافرين على تكذيبهم الرسل وهم يلقون في النار، ولو كان التحسر من الله - عياداً بالله من هذا المعنى - فإن الله قادر على إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة؛ فهذا أولى له من التحسر الذي يصنعه من لا يملك حيلة ولا دفعاً لما يتحسر عليه والحسرة لا يتحسرها الا الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئاً والله هو القوي العزيز والقادر على كل شيء .

وهذا المعنى فهمه مفسرو الإسلام ونقلوه عن التابعين، قال ابن كثير: "قال قتادة: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ : أي يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله . . . ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله .

قال ابن عباس: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أي يا ويل العباد .

ويصدق هذا قول الله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴾ (الزمر: 56)، فالمتحسر هو الكافر، لا الله عز وجل، فبطلت الشبهة واستبان الحق لمن ألقى السمع وهو شهيد .

والعجب أن كتب أصحاب هذه الشبهة لا تمل من كثرة نسبة التحسر والندم إلى الله تعالى، ومن ذلك أن الرب قال: "ندمتُ على أني جعلتُ شاوول ملكاً، لأنه رجع من ورائي، ولم يقم

كلامي " (صموئيل I) (I5/I0)، وأنه رفع عن بني إسرائيل العذاب بيد أعدائهم "لأن الرب ندم من أجل أنينهم " (القضاة 2/I8) .

## الطعن الثامن

### هل الله لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها؟

قالوا: القرآن ينسب إلى الله أنه لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها، واستدلوا بآيات، منها قوله: ﴿الآن خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (الأنفال: 66)، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ (البقرة: 143).

والجواب: أن القرآن نسب إلى الله العلم المطلق بكل شيء، فهو الذي يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، والآيات القرآنية في هذا الصدد لا تكاد تحصى لكثرتها، منها قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: 119)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: 32).

وعلم الله أزلي، وقد كتب الله ما سيعمله العباد قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، يقول ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» وفي حديث آخر: «وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض» فهذا النوع الأول من علم الله، وثبوته كاف في دفع الشبهة.

والنوع الثاني من العلم الإلهي هو علمه بوجود ما علمه أولاً، أي علمه بحدوث أفعالنا التي كان يعلم أنها ستكون، فالله يعلم ذنب المذنب وطاعة المطيع قبل أن يخلق الخلق، ثم إذا أذنب العبد أو أطاع؛ علم الله تحقق الفعل ووجوده، فأثابه عليه بموجب فعله، فهذا نوع آخر من العلم ، يتصف به الله العليم الذي كان وما يزال عليماً .

وهو ما يفهمه المتأمل في آيات القرآن الكريم، ففي آيات سورة المائدة يخبر الله أنه يتلي عباده بما حرم عليهم من الصيد ليعلم من يخافه بالغيب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَأَلَّهُ أَيَّدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (المائدة: 94)، فهذا علم الوجود للفعل وتحققه، وهو العلم الذي يحاسب الله الخلاق به، ولا يمنع هذا ولا يتعارض مع علم الله المطلق الذي أثبتته السياق نفسه: ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: 97) .

ومثله في حديث الله عن المنافقين، فقد أخبر الله أنه يعلم ما في صدورهم، وأنه سيعلم أفعالهم التي تخبر بما في قلوبهم حين يفعلونها ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿ (العنكبوت: 10-II) .

ومثله قول الله تعالى: ﴿ وَيَتَّبِعِ اللَّهُ مَن فِي صُدُورِكُمْ وَيُخَصِّصْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: 154)، فهو عليم بضمائرهم، واختباره لهم ليس لزيادة علمه تبارك وتعالى، بل ليتحقق ما علمه بفعل العباد، فيجازيهم بموجب هذا العلم ، أي بموجب علمه بما عملوا .

وقد سمي العلماء هذا العلم "علم المشاهدة" أي مشاهدة أو رؤية ما علمه الله أولاً، ثم تحقق فرآه ، ومن المعلوم أن الرؤية والعلم يترادفان في بعض الإطلاقات ، كما في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) (المجادلة: 7)، ومعناه: أُمّ تعلم، لذا قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾ (الجن: 28): "المعنى: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً".

وفي شرح قوله: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ (محمد: 31) يقول ابن الجوزي: "العلم الذي هو علم وجود، وبه يقع الجزاء".

وقال ابن تيمية: "علم الرب تبارك وتعالى لا يجوز أن يكون مستفاداً من شيء من الموجودات، فإن علمه من لوازم ذاته؛ فعلم العبد يقتدر إلى سبب يحدثه وإلى المعلوم الذي هو الرب تعالى أو بعض مخلوقاته، وعلم الرب لازم له من جهة أن نفسه مستلزمة للعلم والمعلوم: إما نفسه المقدسة وإما معلوماته التي علمها قبل خلقها...".

ثم ذكر بعضاً من الآيات من جنس ما أورده الطاعنون في القرآن اليوم، وعقب بالقول: "هذا مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن الله عالم بما سيكون قبل أن يكون، وقد نص الأئمة على أن من أنكر العلم القديم فهو كافر" ([240]).

وهكذا تبين فساد هذا القول وبطلانه بالدليل والبرهان.

لكن العجب في هذه الأبطولة صدورها ممن في كتبه مثل هذه المعاني من غير أن يستنكرها، فقد جاء في سفر التكوين أن الله قال لإبراهيم: "لا تمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني" (التكوين 22/12)، ومثله في سفر التثنية "وتتذكر كل الطريق

التي فيها سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر؛ لكي يُدَلِّكَ ويجربك، ليعرف ما في قلبك؛  
أتحفظ وصاياها أم لا؟" (التثنية 8/2)، أفما كان أولى بهم أن يحملوا نصوص القرآن على المعاني التي  
يحملون عليها ما جاء في كتبهم؟ لكنهم قوم مبطلون.

## الطاعن التاسع

### عدد قوم يونس عليه السلام؟

ادعى بعضهم ان القرآن الكريم لم يذكر بالضبط عدد قوم يونس حين قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ النَّاسِ أَوْ  
يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: 147)، وهذا الشك - الذي يفيد حرف (أو) - يمنع نسبة القرآن إلى الله العليم  
الذي لا يخفى عليه عدد قوم يونس ولا غيرهم.

والرد على ذلك نقول: الله بكل شيء عليم، ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما  
جهل المستشكل لهذه الآية لغة العرب، ذلك أن (أو) في لغة العرب تأتي على معاني، فمنها ما هو  
للشك، كقولنا: جاء محمد أو زيد، ومنها ما يفيد التخيير، كقولنا: تعال اليوم أو غداً، ومنها ما يأتي  
بمعنى (و) أو (بل)، وهما معنيان متقاربان،

وقد خرج العلماء قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على هذا المعنى الشائع عند العرب، أي: بمعنى الواو،  
فالمعنى: أن الله أرسل يونس إلى مائة ألف ويزيدون،

## الطعن العاشر

### هل شك إبراهيم عليه السلام؟

قالوا: القرآن أساء إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، حين اتهمه بالشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تُبَيِّكُ سَعِيًّا وَاَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: 260).

كما نقل عنه أنه قال بربوبية الشمس والقمر: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ (الأنعام: 77-78).

والجواب: أن إبراهيم عليه السلام - حسب القرآن - هو المثال الأعلى للمؤمنين، فقد اصطفاه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 33)، وأمر جل وعزَّ بالتزام دينه ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: 95)، فدينه أحسن الأديان، وهو خليل الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء: 125)، كما أمر القرآن بالتأسي به ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (المتحنة: 4)، ففي هذه الآيات وغيرها من بيان فضل إبراهيم الخليل ما يقطع قول كل خطيب.



وأما الشك في الإيمان فهو منفي عن إبراهيم الخليل ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا قَال بَلَىٰ وَ لَكِن لَّيُطْمَئِنُّ قَلْبِي ﴾ (البقرة: 260) ، فقد آمن عليه الصلاة والسلام بقدرة الله على الإحياء، وانعقد قلبه على ذلك، وسؤاله لرؤية عملية الخلق فعل حسن أراد أن يترقى به في معارج الإيمان؛ بالانتقال من حال علم اليقين ، وهي حالة ذهنية متيقنة إلى حال عين اليقين، أي مشاهدته، فسؤاله طلب ليقين بعد يقين وقد نفى ﷺ الشك عن إبراهيم بقوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» [268]، أي أنه منزّه عنه كتنزيه النبي ﷺ عنه .

وأما قول الخليل عن الشمس والقمر أنها ربه؛ فكان من باب تبكيت الخصم وإقامة الحجة عليهم، فقد يقول المجادل ما لا يعتقد في إقامة الحجة والبرهان على مجادله ومناظره ، قال الرازي: "هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه".

وقوله عليه السلام عن الشمس والقمر والكوكب: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ إنما هو نوع من التدرج في إبطال ربوبيتها بدليل قوله تعالى في السياق: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (الأنعام: 82) .

### الطعن الحادي عشر

#### هل شك يونس عليه السلام في قدرة الله؟

قالوا: القرآن يتهم النبي يونس بأنه شك في قدرة الله ، وهذا كفر، فحين أرسله الله إلى أهل نينوى لم يذهب إليهم، وذهب إلى البحر ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: 87) .

والجواب: أن القارئ لن يجد كتاباً عند أمة من الأمم يعظم الأنبياء كما عظمهم القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي ينزه الأنبياء عن الكبائر والنقائص، فضلاً عن الكفر والشرك بالله تعالى.

وقد فضل الله يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 86).

وإنما أتى القائل لهذه الشبهة من سوء فهمه للآية، فليس مقصودها أن يونس ظن أنه معجز الله بهربه، بل المعنى أنه ظن أن الله لن يقدر عليه، أي لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته، فهي كقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: 7) أي ضيق عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد: 26)، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس<sup>t</sup> وعن غيره من التابعين [272].

وحفاظاً على منزلة يونس بن متى في قلوب المؤمنين نهى النبي ﷺ عن تفضيل المرء نفسه على هذا النبي الكريم: «لا ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن متى» [273]، وفي رواية: «من قال: أنا خير من يونس بن متى؛ فقد كذب» [274]، فثبت بذلك براءة القرآن من فرية الإساءة إلى يونس عليه السلام.

## الطعن الثاني عشر

## هَمْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قالوا: نسب القرآن إلى الصديق يوسف عليه السلام الهَمْ في الخطيئة مع زوجة العزيز ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: 24)، وقالوا: تمتلئ كتب التفسير بصور مشينة لهذا الهَمْ الفاسد الذي لا يليق بنبي كريم.

والجواب: لو قرأ الطاعنون في القرآن تمام الآية المستشكلة لأدركوا منزلة يوسف الصديق وعصمة الله إياه من الذنب: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: 24).

وقد شهدت امرأة العزيز له بالخيرية والعصمة بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَلْكَوْنَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: 32).

ولئن همت امرأة العزيز بالفاحشة؛ فإن يوسف عليه السلام لم يقع منه الهَمْ أصلاً؛ وهذا منطوق الآية لمن فهم لغة العرب وطرائقهم في البيان، فالآية تثبت لامرأة العزيز الهَمْ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾، لكنها تنفي الهَمْ بالمعصية عن الصديق يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، و (لولا) عند العرب تفيد امتناعاً لوجود ، أي لم يحصل الفعل لوجود ما منعه، فلم يتحقق الهَمْ بالخطيئة لأنه رأى برهان ربه.

قال أبو حاتم: "كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن ، فلما أتيت على ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير، كأنه قال: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لم هَمْ بها".

ومثله في قول الله تعالى عن أم موسى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ (القصص: 10)، فهي لم تبد لهم بحقيقة أمومتها لموسى؛ لأن الله ربط على قلبها، وكذلك لم يهم يوسف بالمعصية لأنه رأى برهان ربه.

ومثله أيضاً في قول الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَا لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (الإسراء: 74)، فالركون لم يقع منه ﷺ لوجود التثبيت من الله، وكذلك الهم لم يقع من يوسف عليه السلام لوجود برهان الله أي تثبيته وعصمته.

### الطعن الثالث عشر

#### القرآن والوهية المسيح

قالوا: القرآن وافق المسيحية في معتقداتها وبخاصة تأليه المسيح، فقد ذكر بأنه كلمة الله وروحه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء: 171)، فهذا عين ما يقوله النصارى عنه، فكلمة الله ليست مخلوقة، بل هي كلمة أزلية، وكذلك روحه هي حياته، وإذا كان كذلك فالمسيح أزلي، والأزلية من لوازم الربوبية والأوهية.

ومضى بعضهم إلى القول: إن القرآن المكّي كان يمدح النصارى ويتقرب إليهم بسبب علاقة النبي ﷺ بجديجة ابنة عم ورقة بن نوفل وبالنجاشي الذي آوى المسلمين في الحبشة، وأن القرآن المدني هو الذي سجل موقفاً رافضياً للمسيحية، خلافاً للقرآن المكّي.

وفي الجواب نقول: القرآن المكي والمدني كلاهما من عند الله ، وليس في أي جزء منه ما ينتقض الجزء الآخر، بل تتكامل آياته المكية والمدنية في رفض مظاهر الشرك المسيحية المتمثلة في عبادة المسيح عليه السلام والقول بالتالوث .

ولعله يحسن أن نبدأ بما جاء في السور المكية حول هذا الموضوع، ثم نتقل إلى المدنية منها .

ففي الحبشة وقف المسلمون الملتجئون إلى النجاشي بين يديه فسألهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول "، وهذا القول مصداق ما أنزل الله: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ` وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ` وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ` وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ` ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ` مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ` وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ` فَاحْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴿ (مريم: 30-37)، فهذه الآيات المكية ناطقة بعبودية المسيح لله، وأنه مخلوق بكلمة (كن)، وأن الله متوعد بعذابه الذين خالفوا الحقيقة وتكبوها في شخص المسيح .

ومن أراد مزيد بيان فليصخ السمع إلى التقرير الذي ترتجف لقوته الأفئدة وتهتز القلوب، تقرير يشنع فيه القرآن المكي على من زعم أن لله ولداً ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ` لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ` تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ` أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ` وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ

أَنْ يَتَّخِذَ وُلَدًا ۚ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا  
وَكُلَّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٨٨-٩٥﴾ (مريم: 88-95) .

لقد كان القرآن الكريم صريحاً في التشنيع على أقوال النصارى في المسيح ، وإثبات عبوديته لله في الآيات  
المكية والمدنية على السواء، ففي المكي يقول: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ  
وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمْنَا عَلَيْهِ  
وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۚ﴾ (الزخرف: 57-59) .

ثم تمضي الآيات لتقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي  
تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ فَاخْتَلَفَ  
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ (الزخرف: 63-65) .

وفي المدني يقول الله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ  
عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: 172)، وفي سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى  
ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ  
لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۚ مَا  
قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي  
كُنْتُمْ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: 116-117)، فأبي فرق يجده القارئ بين  
القرآني المكي والمدني؟! !

وكما كان القرآن المكي صريحاً في اعتبار المسيح رسولاً من رسل الله الكرام ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف : 6) ،  
 فإن القرآن المدني كان كذلك: ﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ  
 وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: 46) ،  
 وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ  
 قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (المائدة: 75-76) .

وهكذا تبين بطلان الدعوى باختلاف حديث القرآن المكي عن المدني في المسيح عليه السلام، فالكل من  
 عند الله علام الغيوب .

وإذا كان كذلك، فكيف يتوافق القول بعبودية المسيح مع القول بأنه كلمة الله وروح منه ؟!

وبداية ننبه إلى أن هذا الاستدلال المغلوط قديم ، قاله نصارى نجران بين يدي النبي ﷺ حين سألوه " ألسنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟ فقال: «بلى» . قالوا: فحسبنا . فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (آل عمران : 7) [330] ، فهذا القول من الفتنة لما فيه من التلبس اعتماداً على المتشابه من القول، أي ما يحتمل معاني مختلفة .

ولو قرؤوا الآية بتمامها لوجدوا فيها بيان ما تشابه عليهم، فهي تنعى عليهم غلوهم في شخص المسيح،  
 وقولهم بأنه ابن الله، وأنه مشترك مع الله في الثالوث ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى

الله إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمْتُوا بِاللَّهِ  
 وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَهَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا ۚ لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ  
 يَسْتَنْكَفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿النساء: 171-172﴾، فالمسيح عبد الله  
 ورسوله، وهو أيضاً كلمته وروح منه.

فماذا يعني قولنا: المسيح كلمة الله؟ هل يعني أنه عليه السلام صفة الكلام الأزلية لله؟ بالطبع: لا،  
 فالمسيح كلمة الله المخلوقة، لا الكلمة التي يخلق الله بها خلقه [كن]، وهذا صريح القرآن ﴿إِذْ قَالَتِ  
 الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ  
 الْمُقَرَّبِينَ ۚ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۚ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي  
 بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿آل عمران: 45-47﴾،  
 فصرحت الآيات أن المسيح ﴿كَلِمَةٍ مِنْهُ﴾، وأكمل السياق القرآني فوصفه بأنه مخلوق ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾  
 فكيف تكون كلمة الله مخلوقة مع يقيننا بأن القرآن كلام الله المنزل غير المخلوق؟

### الطعن الرابع عشر

هل امتدح القرآن النصارى؟



قالوا: امتدح القرآن النصارى، وذكر بأنهم في الجنة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 62).

والجواب: كما كان القرآن واضحاً في بيان وحدانية الله وعبودية المسيح وبشريته؛ كان صريحاً في إضلال القائلين بالوهيته وربوبيته وتكفيرهم، وهذا منشور في مواضع كثيرة من القرآن، منها قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: 17)، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: 73)، فهاتان الآيتان وغيرهما واضحتان في بيان كفر القائلين بعقيدة التثليث والوهية المسيح.

ولكن هذا الحكم القرآني لا يسري على المسيح الذي تبرأ من هذه المعتقدات ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: 72)، كما لا يسري الحكم بالكفر والنار على أتباعه المخلصين المؤمنين الذين آمنوا بالله وحده، وشهدوا للمسيح بالرسالة فحسب، واتبعوه ونصروه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: 52-53)، وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿وَإِذِ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: III)، فهؤلاء من خيرة الله في خلقه، وهم مؤمنون بالمسيح الرسول، وبريئون من معتقدات النصارى التي استقاها المسيحيون من أقوال بولس والجامع الكنسية من بعده.

إن هذه التلة المؤمنة ممدوحة في القرآن ولا ريب، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ (الصف: 14)،

ومدحة الله لهم في القرآن تسري على كل مؤمن مشى على نهجهم إلى يوم الدين.

ولما بعث النبي ﷺ كان لمتهجهم بقايا على الأرض تمثل في أشخاص أحبهم الله؛ لاستقامتهم على

التوحيد، وإعراضهم عن مذاهب التثليث والشرك التي كرهاها الله، يقول ﷺ: «وإن الله نظر إلى أهل

الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» .

فهؤلاء ومن سلفهم من المؤمنين هم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى

وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يُخْزَنُونَ﴾ (البقرة: 62)، وقد ذكر في سبب نزولها أن سلمان حدّث النبي ﷺ عن أصحابه النصاري

الذين كانوا على الإيمان الخالص بالله عز وجل قبل مبعث النبي ﷺ، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون

بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يا سلمان، هم

من أهل النار» . فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وهذا المعنى بين واضح لمن قرأ الآية في سياقها فتدبر الآيات التي قبلها والتي بعدها، حيث تكفر الآيات

قبلها اليهود والنصارى، وتنسب إليهم الإساءة إلى الله، وتوعدهم بالنكال والعذاب: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ

قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ

يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ` لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ

قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ` وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴿ (المائدة: 64-6I)

ويستمر السياق القرآني بعدها في تكفيرهم مع استثناء المؤمنين منهم ممن كان على منبج الأنبياء ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ` إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارِيُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ (المائدة: 68-69) .

فمن المحتم أن الذين سماهم الله في آخر الآية: ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ ليسوا الذين تحدث عنهم صدر الآية التالية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارِيُّ ﴾، فهؤلاء غير الأولين، هؤلاء من المؤمنين بدليل ما ذكر في الآية في وصفهم: ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾، والمرء لا يكون مؤمناً بالله بمجرد الإيمان بوجوده، فقد آمن بذلك كفار قريش، ولم يستحقوا هذا الاسم الشريف الذي يختص به من آمن بالله تبارك وتعالى وحده رباً وإلهاً، فلم يعبد معه أحداً غيره .

ثم يمضي السياق القرآني ليقول: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ` لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْهَوْا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ` أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ` مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ

ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿ (المائدة: 72-75)، ويستمر السياق القرآني إلى آخر آيات السورة وهو يتحدث عن كفر النصارى ، فلم أعرض القائلون بمدحة الله للنصارى عن هذا كله، وبتروا الآية من سياقها؟! .

## الطعن الخامس عشر

### الشك سؤال أهل الكتاب

قالوا: طلب القرآن من النبي أن يسأل النصارى فيما يشك عليه ، وفيما يقع له من الريبة في دينه بقوله: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: 94)، وكما طلب هذا من النبي؛ فإنه طلبه من المسلمين حين أمرهم بسؤال أهل الذكر، أي الكتب السابقة في قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: 43) .

والجواب: أن الآية الكريمة ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: 94)، لا تتحدث عن مشركي النصارى المنكرين لنبوته ، ولا تجعلهم مرجعاً للنبي ﷺ، بل تتحدث عن الذين يشهدون له بأنه أتاه الحق من ربه .

كما يلزم التنويه أيضاً إلى أن النبي ﷺ لم يشك في شيء من نبوته، ولم يسأل أهل الكتاب ولا غيرهم، بل نقل عن بعض التابعين أن النبي ﷺ قال: « لا أشك ولا أسأل» .

فلفظة (إِنْ) لا تفيد أي تحقق لوقوع الشك من النبي ﷺ، إذ قد يعلق المحال بـ (إِنْ) ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (الزخرف: 81)، وقوله: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَاتَّبِعْهُم بآيَةٍ ﴾ (الأنعام: 35) .

وقد فسر العلماء مقصود الآية بقولين يكمل أحدهما الآخر:

الأول: أن المقصود بالسؤال هم المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما: (الذين أدركوا محمداً ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به . . فاسألهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم) [338].

الثاني: أن المقصود في الآية ليس أمر النبي ﷺ بالسؤال، بل الخطاب - في ظاهره - للنبي ﷺ، والمراد به غيره من المشركين، على عادة العرب في الخطاب "إياك أعني واسمعي يا جارة" [339].

ومثله في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (الأحزاب: I)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الزمر: 65)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (الطلاق: I).

وهذا الوجه صححه الطبري، واستدل له الرازي بقول الله تعالى في آخر السورة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (يونس: IO4)، وقال: "فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح . . فثبت أن الحق هو أن

الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ؛ إلا أن المراد الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم".

بقي أن نشير إلى أن الأمر بالسؤال ليس على ظاهره ، فإن العرب تستخدم طلب السؤال؛ بمعنى تأكيد الأمر، ولا تريد طلب السؤال حقيقة،

## الطعن السادس عشر

### التوثيق المزعوم لكتب أهل الكتاب في القرآن

قالوا: في حين أن المسلمين يرمون كتب أهل الكتاب بالتحريف والتبديل فإن القرآن يُعلي من شأن التوراة والإنجيل، ويصفهما بالهدى والنور ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ (المائدة: 44)، و﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: 46) .

وقالوا: ذكر القرآن أن التوراة والإنجيل الموجودين عند أهل الكتاب زمن النبي غير محرفين؛ بدليل أنه دعا إلى تحكيمهما ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (المائدة: 66)، وقال لهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (المائدة: 68) .

وقالوا: شهد القرآن والسنة أن كتبنا فيها حكم الله ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ (المائدة: 43)، ولما أخذها النبي بيده نزع الوسادة من تحته، فوضع التوراة عليها، ثم قال: «آمنت بك ومن أنزلك» [342] .

والجواب: امتدح الله في القرآن ما أنزله على أنبيائه ورسله، وذكر أنه هدى ونور، فكل كتب الله تعالى كذلك، ولو أقام البشر في حياتهم ما أنزل الله إليهم؛ لسعدوا ونجوا، لكن هذه الكتب المنزلة ضاعت

وحرقت وبدلت، فما التوراة ولا الإنجيل اللذين بين أيدي اليهود والنصارى بتوراة الله ولا إنجيله؛ وإن كان فيهما بقية أثارة حق مما نزل على الأنبياء، يقول ﷺ: «إن بني إسرائيل لما طال الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون».

وإثبات تحريف الكتب الموجودة بين أيدي اليهود والنصارى باب يطول، وليس هذا محله، ويكفي في هذا الموضوع أن تؤكد أن التوراة والإنجيل الموجودين اليوم ليسا الكتابين اللذين أنزلهما الله عز وجل وامتدحهما القرآن.

وإثبات هذا ميسور، فقد نسب القرآن الكريم إلى توراة الله وإنجيله معاني نفتقدها في الكتب الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى، ففقدوها دليل على أن هذه الكتب قد غيرت وبدلت، وأنه ضاع منها ما أشار القرآن الكريم إلى وجوده فيها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُودًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ (التوبة: III)، فالآية صريحة في أن موعود الله بالجنة للمؤمنين المجاهدين في سبيله مسطور في التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله تعالى، ولا وجود لهذه المعاني في العهد القديم ولا الجديد [التوراة والإنجيل المحرفين].

ومثله قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: 16-19)، فهذا المعنى لا وجود له في الأسفار الخمسة المنسوبة إلى

موسى عليه السلام في العهد القديم، والتي تخلو من الحديث عن الآخرة والقيامة، فضلاً عن المقارنة بينها وبين الدنيا .

ومثله تفقد في الأسفار الحالية ما نسبه الله إلى توراته وإنجيله في سورة الأعراف من حديث عن النبي الأمي الذي يبعثه الله فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: 157) .

وهكذا نخلص إلى القول ؛ أن التوراة والإنجيل الممدوحين بالقرآن ليسا بالأسفار الموجودة اليوم؛ لفقد هذه المعاني منها .

والقرآن شهد على الأسفار الموجودة بين يدي اليهود والنصارى بأنها محرقة، وقعت فيها الزيادة، كما وقع فيها النقص، فقد قال تعالى عن تحريف النقص: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (المائدة: 15)، فما جاء به محمد ﷺ فيه بيان لبعض ما أخفاه أهل الكتاب، وقد عفا عن الكثير مما أخفوه فلم يذكره، قال ابن كثير: "أي: بين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه، ولا فائدة في بيانه" .

كما أخبر القرآن الكريم عن وقوع الزيادة في هذه الكتب: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ وَيُؤْتَلُّ لَهُمْ مِمَّا يُكْسَبُونَ﴾ (البقرة: 79)،



وقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: 78).

لكن وقوع الزيادة والنقص في الكتاب لا يعني - بالضرورة - أن التحريف قد طال كل سطر وكل كلمة في الكتاب، بل القرآن شهد لهذه الكتب أن فيها بقية من الحق الذي أنزله الله ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُبْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: 71).

ومن بقايا الحق الذي شهد القرآن بوجوده حكم الرجم للزاني والزانية، فهو موجود في سفر التثنية في الإصحاح الثاني والعشرين، لذلك قال الله: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ (المائدة: 43)، فكون حكم الله بشأن الزانيين موجوداً فيها لا يعني أن كل ما فيها هو حكم الله تعالى، فاسم التوراة باق عليها رغم تحريفها، فهي التوراة المحرفة؛ لا المنزلة .

وأما قوله تعالى لليهود حين أنكروا أن الأطعمة كانت حلالاً عليهم قبل نزول التوراة: ﴿ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: 93) فهو لا يفيد سلامة التوراة التي بين أيديهم من التحريف .

فمطالبته بالإتيان بها؛ إنما يريد به إقامة مزيد من الحججة عليهم من كتابهم (التوراة المحرفة)، قال ابن حزم:

" إنما هو في كذب كذبه، ونسبوه إلى التوراة على جاري عاداتهم؛ زائد على الكذب الذي وضعه

أسلافهم في توراتهم، فبكتهم عليه السلام في ذلك الكذب المحدث بإحضار التوراة إن كانوا صادقين، فظهر

كذبهم".

وقد دعا الله عز وجل أهل الكتاب إلى إقامة هذا الحق المتبقي، لأنه كفيل بهدایتهم إلى الإسلام، قال ابن كثير: "أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وأمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف: 157)" [348].

وقال القرطبي: " وإقامة التوراة والإنجيل؛ العمل بمقتضاها وعدم تحريفها" [349].

## الطعن السابع عشر

### الأخطاء المزعومة في القرآن الكريم

#### العين الحمئة

استشكل البعض ما ورد في سورة الكهف، في سياق الحديث عن رؤية الملك ذي القرنين الشمس وهي تغرب في عين حمئة، وذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ

عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتُ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتُ تُخَذَفُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿ (الكهف: 86)، فتساءلوا كيف

تغرب الشمس في عين صغيرة على الأرض وهي نجم عظيم يدور في السماء؟

لا ريب أن القول بغياب الشمس في عين أو بحر بعيد كل البعد عن أبسط معارفنا العلمية التي قررها القرآن منذ زمن بعيد؛ فقد ذكر القرآن أن الشمس والقمر والأرض كواكب أو نجوم تسبح في أفلاكها في السماء ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: 33)، فلكه فلكه الخاص الذي لا يتداخل مع فلك غيره، فكيف يسوغ - بعد ذلك - أن ينسب إليه القول بغروب الشمس في عين من عيون الأرض.

إن هذا القول أبعد ما يكون عن لفظ القرآن ومعناه ، ولو كان هذا الفهم المغلوط مراداً؛ لوجب أن تشرق الشمس من نفس الحبل وعلى نفس القوم الذين غربت عليهم، وهو ما لا يظنه عاقل، ولو صغرت سنه ، وهو ما ينفيه القرآن في نفس السياق، إذ بعد غياب الشمس انطلق ذو القرنين تجاه مشرقها ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبِيلًا ﴾ (الكهف: 89-90).

القرآن في هذه الآية وصف ما تبدى لذي القرنين ساعة الغروب، حيث ﴿ وَجَدَهَا تُغْرِبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾، ولم يقل القرآن: إن الشمس تغرب في تلك العين .

ومثل هذا كمثل ما يراه الناظر من غروب الشمس في البحر أو خلف جبل، فهو يجدها كذلك فيما يتبدى له، وهي في حقيقتها ليست كذلك .

وهذا الفهم للآية ليس تأولاً لها في عصر العلم، بل هو قول معروف تداوله العلماء منذ قرون طويلة ، فقد نقل الففال (ت 507هـ) عن العلماء قولهم في تفسير هذه الآية: "ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسها ، لأنها تدور مع السماء حول الأرض، من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة ، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، ولهذا قال: ﴿ وَجَدَهَا تَطَّلَعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾، ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقتهم" [357].

وقال الرازي: "ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن السماء محيطية بها ، ولا شك أن الشمس في الفلك ، وأيضاً قال: ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود ، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ، إذا ثبت هذا فنقول: تأويل قوله: ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ ﴾ من وجوه:

الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره .

الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار" .

وقال ابن كثير: " ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض . وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له . وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم .

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه .

وما زال هذا المعنى مشهوراً عند العلماء في القديم والحديث، ومنه قول سيد قطب: "مغرب الشمس هو المكان الذي تغرب عنده وراء الأفق ، وهو يختلف بالنسبة إلى المواضع ، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف الجبل ، تغرب في الماء كما في المحيطات ... والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي ... فرأى الشمس تغرب فيه، والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب، ويجمع حولها طين لزج هو الحمأ ، وتوجد البرك، وكأنها عيون الماء ... عند هذه الحمأة وجد ذو القرنين قوماً ..."

ولئن كان المدعي لهذه الأبطولة يتحدث عن غروب الشمس في عين ؛ فإن القرآن يتحدث عن مغارب الشمس، وأراد بذلك - والله أعلم - ما نعرفه اليوم من دوام الغروب والشروق بدوام دوران الأرض حول محورها .

ويشكل على هذا المعنى ما روي عن النبي ﷺ من حديث أبي ذر t : «يا أبا ذر، هل تدري أين تغيب هذه الشمس ؟ . . فإنها تغرب في عين حمئة، تنطلق حتى تخزل ربها ساجدة تحت العرش، فإذا كان خروجها أذن الله لها، فإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها» .

لكن هذا الحديث لا يصح نسبه إلى النبي ﷺ، لأنه من رواية سفيان بن حسين الواسطي السلمي، وهو راو وهى حديثه أهل التحقيق والاختصاص .

فقد سأل المروزي الإمام أحمد عن سفيان بن حسين كيف هو ؟ فقال: "ليس بذلك، وضعفه" .

وقال ابن أبي شيبة: "كان ثقة، ولكنه كان مضطرباً في الحديث"

وقال محمد بن سعد: "ثقة يخطئ في حديثه كثيراً" .

وقال يحيى بن معين عنه: "ليس بالحافظ" .

وعليه فلا اعتداد بروايته، فهي دون مرتبة الاحتجاج، واستبان براءة القرآن من الفهم السخيف بأن الشمس تغرب في بر ماء .

## الطعن الثامن عشر

هل القلوب العاقلة في الصدور؟

قالوا: يعرف علماء التشريح اليوم أن القلب عضلة ضاخة للدم فحسب، وأن مراكز الإحساس والتفكير في الدماغ، بينما القرآن يؤكد أن القلوب التي في الصدور هي مركز التفكير ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: 46).

والجواب: أن ما يتعلق بمسألة علاقة القلب بالفكر مسألة علمية ما زال العلماء والأطباء يراوحن فيها بين مثبت ومنكر، وهي مسائل ظنية لم ترق إلى كونها حقيقة علمية، ومن كان هذا حاله لا ينهض للاحتجاج به إزاء الحق الذي أوحاه الله العليم بخلقه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: 4) بل ان هناك دراسات حديثة تؤكد من ان القلب يحتوي مركزا للتفكير أشبه بالدماغ .

ثم إن القرآن تحدث عن الأعين والآذان والقلوب المادية، وتحدث أيضاً عن العيون والآذان والقلوب المعنوية، وهذه الأعضاء في حال دلالتها على الهدى تكون أعضاء عاملة، وحين تنكسر للحق وترفضه فإنها تكون في حكم العدم، ولذلك وصف الله الذين لا يبصرون الحق ولا يسمعونه بأنهم ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة: 18)، فهم صم عن الحق، لا عن السماع، وهم بكم وعمي بهذه المثابة أيضاً .

وهذا مثله في القرآن كثير: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: 171)، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (الأنعام:

• (39)

وهكذا فحين يتحدث القرآن عن العيون والأذان والألسن لا يقصد الجوارح المحسوسة، وإنما يقصد ما وراءها من العقل والإدراك الإيماني، ومنه قول الله ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ` عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: 193-194).

وهذا المذكور عن هذه الجوارح ينطبق على القلب تماماً، فالقلوب التي يتحدث عنها القرآن هي القلوب المعنوية، لا المضغعة الجسدية، ومثاله في القرآن كثير، كقوله: ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: 43)، وكقوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: 28).

والمقصود في كل هذا القلوب العاقلة، لا المضغعة الصنوبرية التي في الجسم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: 46).

ومثله في كلام النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب»، فالمقصود قلب القلوب المعنوية من الكفر إلى الإسلام، وليس المقصود قلب القلوب المادية.

وهذا الفهم ليس بجديد عند العلماء المسلمين، بل هو قديم نقله الرازي في تفسيره عن بعض السابقين، وعزاه ابن أمير الحاج المتوفى سنة 879هـ إلى عامة أهل السنة والجماعة بقوله: "ومحلها أي القوة التي هي العقل؛ الدماغ للفلاسفة وخصوصاً الأطباء، وأحمد في رواية، وأبي المعين النسفي، وعزاه صدر الإسلام إلى عامة أهل السنة والجماعة، فقال: وهو جسم لطيف مضيء محله الرأس عند عامة أهل السنة



والجماعة، وأثره يقع على القلب، فيصير القلب مدركاً بنور العقل الأشياء، كالعين تصير مدركة بنور الشمس وبنور السراج الأشياء".

وما قلناه عن القلوب والعيون والآذان المعنوية الإيمانية ينطبق تماماً على الصدور، فنقرأ في القرآن والسنة حديثاً متكرراً عن انشراح الصدر وانتباضه وضيقة وظلمته، وليس المراد الصدر الجسدي، بل المراد الصدر المعنوي ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ (الشعراء: I3)، ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ (الزمر: 22)، ﴿الَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: I)، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمُ﴾ (الأعراف: 43) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ۖ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ (الإسراء: 49-50) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا نَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (النمل: 74)، فكل هذا حديث عن الصدر المعنوي لا التجويف المسمى بالقفص الصدري.

وجاءت نصوص قرآنية ونبوية تجمع بين الصدر المعنوي والقلب المعنوي، منها قول الله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: IO6).

ومثله قوله: ﴿وَلِيَمْحَسْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: I54)، ومثله قول النبي ﷺ: «والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر».

وهكذا تبين أن القرآن حين تحدث عن حواس الإنسان فإنما قصد البعد الإيماني المعنوي لها، وكذلك نسب التحكم فيها إلى القلب والصدر الإيماني المعنوي، لا الحسي، فثبت بذلك صدق القرآن، وتبين فساد هذه الأبطولة من أباطيل المرجفين.

## الطعن التاسع عشر

### مريم أخت هارون

قالوا: أخطأ القرآن حين جعل مريم بنت عمران أختاً لهارون في قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (مريم: 28)؛ إذ المعلوم في علم التاريخ أن مريم كانت بعد هارون بن عمران بما يربو على الألف سنة.

والجواب: أن هذه الأبطولة من أقدم الشبهات المطروحة على القرآن الكريم، وقد تولى الرد عليها وبيان أغلوطه قائلها النبي ﷺ، وما يزال أقوام يرددون هذه الشبهة البائدة.

جاء في صحيح مسلم أن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

فبهذا البيان النبوي تبين أن هارون أخا البتول مريم ليس بهارون أخي موسى، كما توهم نصارى نجران والمبطلون من بعدهم.

ولو فهموا لغة العرب وسعة ألفاظها لما قالوا ما قالوه، فالعرب تطلق كلمة الأخ على الشبيه وعلى قريب النسب؛ وإن لم يكن أخاً.

فأما الشبيه، فكقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُبْدَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (الإسراء: 27)، فالمبذر بمثابة أخ للشياطين، لشبهه بفعالهم.

وأما أخوة القرابة فكقوله تعالى: ﴿وَالِى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ (الأعراف: 73).

### الطعن العشرين

#### النجوم التي ترجم بها الشياطين

قالوا: القرآن يتحدث عن النجوم السيارة الهائلة في حجمها، والتي يكبر حجم بعضها الأرض آلاف المرات، وأن الله خلقها ليرجم بها الشياطين، وأنها تتحرك في السماء خلف هذه الشياطين، وهذا المعنى الغريب - ورد حسب اعتقادهم - في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك: 5).

والجواب: إن القرآن لم يقل: خلق الله النجوم لأجل هذا، ولم يقل أن النجوم السيارة تتبع الشياطين، بل أخبر تعالى أنه خلق في السماء مصابيح، أي أجساماً منيرة مضيئة تحرق الشياطين.

وهذه المضيئات قد تكون نجوماً، وقد تكون شهباً، فالأمر محتمل للمعنيين لولا أن الآيات القرآنية تبين أن المقصود من المصابيح الشهب؛ لا النجوم، قال تعالى: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ

يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿ (الجن: 9)، وقال: ﴿ وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۚ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ (الحجر: 17-18)، وقال: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

(الصفات: 10)، فالشهب هي الأجسام المضيئة التي تحرق الشياطين، وهذه الشهب منها الكبير، ومنها الصغير، وهي نجوم أو كواكب مفتتة تسبح في الكون الفسيح، فإذا شاء الله عقوبة واحد من الشياطين سلط عليه واحداً من هذه الشهب، فرجمه به، فما الذي يستنكره العاقل في عقوبة الله لهذه المخلوقات بحرقها بشهب السماء؟ .

## الطعن الحادي والعشرون

### هل القرآن يشجع على فعل المعاصي؟

قالوا: القرآن يشجع على المعاصي من غير الكبائر بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۚ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (النجم: 31-32)، فهذا الوعد الإلهي بالمغفرة لأصحاب الصغائر يغري بها .

والجواب: أن العلماء اختلفوا في اللمم المعفو عنه على أقوال ذكرها الطبري في تفسيره :

أ . أنها ذنوب الجاهلية يغفرها الله في الإسلام، قال الطبري: " معنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا اللمم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه، فلا يؤاخذهم به " .

ب. أنه ما يلزم به المرء، أي يصيبه من ذنب صغير أو كبير من غير إصرار عليه، ثم يتوب منه ، قال أبو هريرة t: (اللّمة من الزنى، ثم يتوب ولا يعود، واللّمة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود، واللّمة من شرب الخمر، ثم يتوب ولا يعود، فتلك الإمام) ، وهذا المعنى مروى عن عامة أصحاب النبي ﷺ، قال الحسن: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: هذا الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيخفيها فيتوب منها) .

ج. أنها صغار الذنوب مما لا يوجب حداً في الدنيا ولا توعده بعقوبته في الآخرة، وقد رجحه الطبري مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: 31)، فاجتناب الكبائر سبب في مغفرة الصغائر، لكن هذا أيضاً معلق بالتوبة وعدم الاسترسال في الصغيرة، حتى لا تتحول باستمرارها إلى كبيرة، فقد سأل رجل ابن عباس: كم الكبائر؟ سبعا هي؟ قال: (هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، وإنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار) .

ولذا حذر القرآن الكريم من الصغائر، وأخبر أن الله يكتب على العبد الصغير من عمله والكبير، فإذا قامت القيامة وجد العبد الجميع بين يديه ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: 49)، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 8)، ولسوف يحاسب الله العبد المؤمن على هذه الصغائر ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: 7-8) .

كما حذر النبي ﷺ من الصغائر في مواضع كثيرة، منها قوله: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» [372]، وقوله: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» [373]، وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالباً» .

## الطعن الثاني والعشرين

### شبهتم في كيفية نزول القرآن

زعم المستشرقون ان الرسول كان يصاب بالصرع عند نزول القرآن عليه، وهذه فرية ما فيها مزية، ذلك ان الصرع مرض عقلي، يصيب الجهاز العصبي يصحبها غيبوبة وتشنج في العضلات ويعد نوعاً من أنواع الجنون، ولا شك ان هذا الطعن من أخبث الطعون إذ قصد به تنفير الناس من القرآن الذي مصدره رجل مجنون - على حد زعمهم - وما هذه الشبهة إلا تردد لقول المشركين الأولين السذج ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (الحجر 6)، لكنه أخرج بصورة منمقة، وهذا الطعن مردود على أصحابه، فرسول الله كان أكمل الخلق خلقاً وحُلُقاً، بل لقد تقرر عند أهل الأديان ان من أخص صفات الأنبياء - عليهم السلام - سلامتهم من الأمراض المنفرة، فكيف بأكمل الخلق وسيدهم كما ان النبي قد شهد له أهل عصره - وفي مقدمتهم كفار قريش أنفسهم - برجاحة عقله، ولذلك حكموه وارتضوا حكمه في حل معضلة كادت ان تسيل دماؤهم بسببها، وهو اختلافهم في الأحق بوضع الحجر الأسود في مكانه بعد بنائهم الكعبة، وهل يعقل ان يصدر مثل هذا القرآن عن رجل مجنون؟! وقد عجز جميع

العقلاء عبر التاريخ وإلى اليوم عن الاتيان بمثله، وصدق الله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الاسراء 88)، أما ان كان المقصود بالصرع تلك الحال التي تعترى النبي عند نزول الوحي عليه، فلا يمكن تسميتها صرعاً، لأنها ليست صرعاً، بل هي اغفاء أي غيبوبة النبي عما حوله، وهي من علامات نزول الوحي عليه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس قال (بينما رسول الله ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى اغفاء ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلت: ما أضحك يا رسول الله؟ فقال: نزلت علي آناً سورة فقرأ سورة الكوثر)، أما العلامتان الأخريان الدالة على نزول الوحي عليه فهي ثقل جسمه، وتفصد العرق من جبينه كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

### الطعن الثالث والعشرون

#### ترتيب سور القرآن الكريم

زعم بعض المستشرقين أن القرآن الكريم لم يكن مرتباً وأنه كان مختلطاً في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد رتبته أبو بكر - رضي الله عنه - لذا استحلوا لأنفسهم أن يجعلوا له ترتيباً خاصاً يختلف عن ترتيب المصحف الحالي في كثير من السور معتمدين في ذلك على طريقة الأسلوب ومحتويات السورة. وكان هؤلاء المستشرقين «غريم» و «ويل» و «بل» و «رودويل» و «بلاشير» و «نولديكه».

فمثلا «تيودور نولديكه» نشر كتابا بعنوان (تاريخ القرآن) سنة ١٨٦٠ م حيث نظم فيه السور إلى أربع مجموعات معتمدا في ذلك على ثلاث فترات زمنية في مكة وفترة رابعة في المدينة (١) وقد أثنى على هذا التقسيم «بلاشير» كثيرا لأنه في نظره يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة .

الجواب :

لقد شغلت هذه القضية علماء المسلمين ابتداء من عصر الصحابة . رضوان الله عليهم . ولا عجب في ذلك أن يخصصها بجهد عظيم ومجت جاد لأنها تتصل اتصالا مباشرا بأقدس كتاب حرص المسلمون أن يدفعوا عنه كل شبهة . . وكان مجتهد مبنيا على أسس من المنطق العقلي والدليل النقلي ويمكن تلخيص منهجهم بعبارة نصها : (إن كنت ناقلًا فالصحة ، أو مدعيًا فالدليل) منهج خاضع لقواعد علمية نقدية ما زال فخرًا للمسلمين . فعناية المسلمين إذن بكتابتهم كانت تعتمد على الروايات بعد نخالتها وتمييز غثها من سمينها فيذهب الزبد جفاء ، ويطرح الضعيف والموضوع منها ، وتؤخذ الرواية الصحيحة التي تثبت بعد درس وتمحيص .

أما المستشرقون فكان جهدهم معتمدا على جهود العلماء السابقين ، ولكن تحليطهم ناتج من عدم قدرتهم على التمييز بين الروايات فأخذوا بكثير من الروايات الضعيفة والموضوعة . كما ترجع كثير من أخطائهم لجهلهم باللغة العربية ولأن عملهم تابع من أهداف نفسية ودينية خاصة بهم ، والمستشرقون يسوقون الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة ، وهم يجمعون الآراء والظنون والأوهام والتصورات ويعتبرونها أصلا يصلح للفحص والدراسة والاستنتاج منه لقضايا من خطر القضايا في الإسلام (١) .



فهذه النقاط تعتبر هي أهم أسباب أخطاء المستشرقين في كثير من القضايا الإسلامية عامة والقضايا القرآنية على وجه الخصوص .

فما يدل على فساد منهجهم واختلال ميزانهم اختلافهم في القضية الواحدة كترتيب المصحف مثلا على عدة أقوال : فبعضهم قسمه إلى ست مراحل . وبعضهم إلى خمس . وبعضهم إلى أربع . وبعضهم إلى غير ذلك . ومن هذه القضايا : قضية ترتيب السور القرآنية ترتيبا زمنيا .

وسأعرض لمحاولاتهم في ترتيب سور القرآن الكريم ، ودراسة مراحلها التاريخية لهذا الترتيب الذي صنعه باختصار والتي بلغت عشر محاولات في أوروبا هذه تسع محاولات غريبة لترتيب القرآن الكريم ترتيبا مخالفا للمصحف العثماني ، معتمدين في ذلك إما على : الروايات التاريخية بأنواعها ما صح منها وما جانب الصحة ، أو على : الاحتمالات العقلية مراعين سياق الآيات وأسلوبها وجرسها ونهاياتها النحوية (الفاصلة القرآنية) .

وقد عرضتها عرضا موجزا ولم أقف عند كل محاولة إلا لما مكثفيا برد عام عليها .

فهذه المحاولات جهد ضاع دون كثير جدوى ، بل جلها لا تستحق المداد والورق الذي كتبت عليه ، لما فيها من عبث بالقرآن الكريم ينزع عنه حصاته الربانية . ولاصطدامها مع واقع الأحداث ومسلمات العقل ، وصحيح الرواية وقد كان وضعهم القرآن الكريم في مختبراتهم تحت مشرحتهم الخاضعة لعقليتهم الغربية ، مما أذهب جمال القرآن الكريم من نفوسهم ، لأن الأمر بطريقتهم تعدى ترتيب السور القرآنية إلى تقطيع النصوص القرآنية الموصولة وظهر هذا واضحا في محاولة «هيرشفيد» ، أو بترقيق بعض النصوص القرآنية بطريقة (التكلمات البديلة) باقحامات مرفوضة كما ظهر ذلك جليا في طريقة «بل» وعقليتهم الغربية

أعجز من أن تصل إلى كنه هذا الكتاب الرباني ، والسري في ترتيبه بتناسق عجيب وسلسلة أخاذة ،  
وفاصلة مرتبطة مع السياق ارتباطا وثيقا .

هذه الأمور هي التي تشعر القارئ المتفحص لهذا الكتاب بالانسجام بالآيات القرآنية ، والترابط المحكم  
والتناسق الفني بين الآيات والسور بعضها مع بعض .

أما سبب الخطأ الرئيسي عند هؤلاء المستشرقين عدم اعتمادهم في عملهم

أما موقف العلماء المسلمين من ترتيب السور القرآنية كما هي عليه في المصحف الحالي فعلى ثلاثة آراء :  
الرأي الأول :

وهو أرجحها أن ترتيب السور توقيفي تولاه النبي - صلى الله عليه وسلم - كما أخبره به جبريل - عليه السلام  
- عن رب العزة جل جلاله وهو مذهب جمهور العلماء منهم أبو جعفر النحاس ، والكرمانبي ، وأبو بكر  
بن الأنباري ، والطبري في أحد قولييه .

قال أبو بكر بن الأنباري : [أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا ثم

فرقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ولآية جوابا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي  
- صلى الله عليه وسلم - على موضع الآية والسورة . فتناسق الآيات والحروف كله عن النبي -

صلى الله عليه وسلم - فمن قدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم القرآن الكريم] (١) .

وقال الكرماني في البرهان : [ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب وكان صلى الله عليه وسلم . يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين . . .].

وقال الطيبي : [أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرداً على حسب المصالح ، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ .  
واستدل هؤلاء بأدلة منها :

أ . إجماع الصحابة على ترتيب المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف في ذلك أحد منهم حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر .

ب . مما يدل على التوقيف أن الحواميم رتبت ولاء أي متتابعة وكذلك الفصل في حين المسبحات قد فرقت في القرآن . كما فصل بين طسم الشعراء ، وطسم القصص ، بطس النمل مع أنها أقصر منها . فلو كان الترتيب اجتهادياً لما حصل التفريق بين المتماثلات من هذه السور .

#### الطعن الرابع والعشرين

## الجنة والخمر

قالوا: إذا كان الله لا يجعل المحرم جزاء للمؤمنين، فما باله جعل الخمر جزاء لهم؟!

والجواب: حرم الله الخمر لما فيها من تعطيل لموهبة العقل التي منحها الله للإنسان، والتي ميزه بها عن الحيوان، فقد بعث الله الأنبياء وأنزل الشرائع لحراسة هذا المقصد النبيل، فحرم قليل الخمر وكثيرها «ما أسكر كثيره فقليله حرام» [375]، ولعن رسول الله ﷺ في الخمر كل مساهم في شيوخ فسادها، يقول أنس t: «لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها وشاربها، وحاملها والمحمولة إليه، وساقها وبائعها وأكل ثمنها، والمشتري لها والمشتراة له» .

فإذا عرفت علة التحريم لخمير الدنيا؛ عرف علة كونها حلالاً بل جزاء للمؤمنين في الآخرة، فخمير الجنة ليس فيها واحدة من المزيات الموجودة في خمير الدنيا، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء) .

ولقد وصف الله خمير الجنة بأحسن الوصف، ونزهها عما يعتري خمير الدنيا من الفساد، فلئن كانت خمير الدنيا مما يستتبع طعمه؛ فإن خمير الجنة لذة للشاربين: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ محمد I5 ولئن كانت خمير الدنيا المحرمة تذهب العقل؛ فإن خمير الجنة ليست كذلك: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُؤُوسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (الصافات: 45-46)، فاختلاف الأحكام لاختلاف الخواص والصفات .

ولئن كانت خمر الدنيا تصدع رؤوس أصحابها وتمرضهم؛ فإن خمر الجنة منزهة عن ذلك، فالولدان المخلدون يطوفون عليهم ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ﴾ (الواقعة: قال الطبري: " لا في هذه الخمر غول، وهو أن تغتال عقولهم، يقول: لا تذهب هذه الخمر بعقول شاربيها كما تذهب بها خمور أهل الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها، وأكد الله هذه الخاصية لخمر الجنة بقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفُونَ﴾ (الصافات: 47)، قال الطبري: "من الإنزاف بمعنى: ذهاب العقل من السكر .

وهكذا يستين للمنصف خطأ وتجني أصحاب الفهوم المعوجة أو المنكوسة على القرآن الكريم الذي أرسى فضائل الأخلاق ومعالي الآداب ، وأقام حضارة ذخرت بالقيم التي لم تعرفها من قبل ولا من بعد أمة من أمم العالمين .

## الطعن الخامس والعشرين

### الأخطاء اللغوية المزعومة في القرآن الكريم

#### الأخطاء النحوية المزعومة في القرآن

قال بعض من يزعم أنه من أبناء العربية: إن في القرآن أخطاء نحوية خالف فيها قواعد اللغة العربية، وهذا يدل على أنه ليس من كلام الله، لأن الله لا يخطئ، قالوا هذا حين استشكلوا بعض آيات القرآن؛ ورأوها على خلاف ما تعلموه في دراستهم لقواعد النحو في المرحلة الابتدائية ، فظنوا أن في هذه الآيات خطأ فات الأولين، وأنهم تنبهوا له - بعقريتهم - بعد مر القرون .

وقبل أن نعرض لأهم الآيات التي استشكلوها، نجيب بأجوبة إجمالية بين يدي البحث :

أولاً: أن العرب الذين نزل فيهم القرآن كانوا أفصح الناس، وكان فيهم أصحاب المعلقات كلبيد بن ربيعة t الذي ترك نظم الشعر بعد سماعه للقرآن، ولم يستشكل ما استشكله أعاجم العرب اليوم، كما لم يستشكله مشركو قريش وغيرهم، رغم عداوتهم القرآن وحرهم النبي ﷺ وحرصهم على معاداة دينه (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) (مريم: 97)، لكنهم كانوا عرباً أقحاحاً، فعرفوا ما جهله أهل العجمة من العرب اليوم.

ثانياً: أن اللغة في أصلها سماعية، لا قاعدية، فالعربي حين كان ينطق بالفاعل مرفوعاً، لا لأن آباءه علموه أن الفاعل مرفوع، بل لسليقة العربية التي نشأ عليها منذ طفولته.

لكن في القرن الثاني من بعثة النبي ﷺ دخلت الفرس والروم والترك وغيرهم في الإسلام، وتكلموا بالعربية، فظهر اللحن، وضاعت السليقة، مما دعا العلماء المسلمين لوضع قواعد اللغة المعروفة عندنا اليوم، وقد وضعوها اعتماداً على مصدرين أساسين: الأول: القرآن الكريم، والثاني: ما ورد عن العرب في أشعارهم وكلامهم، فالقرآن هو المصدر الأول والأساس لقواعد العربية.

لكن العرب الفصحاء قبل وضع هذه القواعد لم يكونوا على نسق واحد في الإعراب والأساليب اللغوية، فلكل قبيلة خصوصيتها اللغوية وفصاحتها وشعراؤها وأدباؤها وإثراؤها للغة الضاد، فعمد مقعدو اللغة إلى الشائع عند عموم العرب، وأهملوا غيره مما هو فصيح تنطق به بعض قبائل العرب.

ولو شئنا أن نضرب مثلاً لقلنا: الشائع في قواعد اللغة حذف ضمير الفاعل من الجملة إذا جاء الفاعل اسماً ظاهراً، فيقول عموم العرب: (جاء المسلمون)، ولا يقولون: (جاءوا المسلمون)، لكن قبيلة طيء تجيز إثبات ضمير الفاعل، مع وجود الاسم الظاهر، وهي اللغة المشهورة عند النحاة بـ (أكلوني البراغيث)،

ومثله حذف بعض العرب نون النسوة من الفعل المرفوع، في حين أن القواعد التي وضعها المتعدون بعد ذلك تعتبر إثبات النون علامة على رفع الفعل، بينما حذفها يعني جزمه أو نصبه، فهل سيقول أعاجم العرب اليوم أن هؤلاء العرب الأفحاح يلحنون؟

ثالثاً: القرآن نزل بلسان عربي مبين ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: 28)، والعرب لم تعرف قواعد اللغة إلا بعد الإسلام، وقد وضعها المسلمون كالخليل بن أحمد وسيبويه وابن نفطويه وأمثالهم، واستنبطوها من القرآن أولاً ثم من أشعار العرب ومأثوراتها ثانياً، فكيف يحاكم القرآن إلى قواعد وجدت بعده، بل أخذت منه.

إن تقريرنا لهذه القواعد العامة كاف في الرد على كل الأباطيل المتعلقة بالنحو، لكن كفايتها لن تمنعنا من الرد التفصيلي على ما اشتبه على أصحاب الشبهات والأباطيل.

**المسألة الأولى: رفع اسم (إن).**

قالوا: أخطأ القرآن في قوله تعالى - حسب قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم -: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فقالوا: رفع القرآن اسم إن بالألف، وكان المفروض أن ينصبه بالياء، فيقول: (إن هذين لساحران) .

والجواب من وجهين :

الأول: أن قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ جاء على لغة بلحارث بن كعب وزبيد وخشم وهمدان ومن وليهم من قبائل اليمن، حيث يلزمون المثنى الألف مهما كان موقعه من الإعراب، قال ابن جني: "من العرب من لا يخاف اللبس، ويجري الباب على أصل قياسه، فيدع الألف ثابتة في الأحوال، فيقول: قام الزيدان، وضربتُ الزيدان، ومررتُ بالزيدان، وهم بنو الحارث وبطن من ربيعة" .

ومن صور ذلك قول شاعرهم هوبر الحارثي:

تزود منا بين أذناه ضربةً      دعه إلى هابي الترابِ عقيم

فالزم المثنى الألف في قوله: (بين أذناه)، ولم يقل (بين أذنيه) كما هو معهود في قواعد اللغة التي كتبها النحاة بعده حسب الشائع عند غير قبيلته من قبائل العرب .

ومثله قول جرير بن عبد العزى الحارثي:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولَو رَأَى      مَسَاغًا لِنَابَهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّما

وفيه من شواهد مسألتنا ثلاث كلمات (العينانا) و (منخران) و (ظبيانانا)، فهي جميعا مثنى منصوب بالألف؛ خلافاً لما قَعَدَه العلماء بعد ذلك وفقاً للمشهور في لغة العرب من نصب المثنى بالياء .



الوجه الثاني: أن من العرب الأقحاح الفصحاء من يقلب كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها إلى (ألف) .

ومثل هذا قال أبو النجم العجلي:

واهاً لسلمي ثم واهاً واها      هي المنى لو أننا نلناها

ياليت عينها لنا وفاها      بئس نُرْضِي به أباهَا

إن أباهَا وأبا أباهَا قد      بلغا في المجد غايَتَاهَا

فقد أبدل الشاعر الياء الساكنة المفتوح ما قبلها بالألف في قوله: (عينها بدلاً من عينيها) وكذلك

(غاياتها بدلاً من غائيتها) .

ومثله قول الشاعر:

أي قلوب ركب تراها      أشدُّ بمُنِي حَقَبِ حَقْوَاهَا

ناجيةً وناجياً أباهَا      طاروا علاهن فِطْرَ علاهَا

قال ابن الحاجب: "القياس: عليهن وعليها، لكن لغة أهل اليمن قلب الياء الساكنة المفتوح ما قبلها، هذا

الشعر من كلامهم" .

### المسألة الثانية: نصب الفاعل

قالوا: القرآن نصب الفاعل (الظالمين) في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 24). قالوا: والصحيح أن يقول (الظالمون)، فالظالمون لا ينالون العهد. فجعل القرآن الفاعل منصوباً!.

الجواب: أن القرآن الكريم رفع الفاعل في مواضع لا تحصى لكثرتها، ورفع الفاعل أمر يدركه صغار طلاب الكتاتيب، ولا يحتاج في معرفته إلى خبير في اللغة العربية، فإذا علم ذلك فإن الحضيف إذا ما وجد أمراً استغربه - في كتاب ما - لوروده على خلاف المعهود فإنه لن يسارع إلى تجهيل المؤلف أو تغليظه، إذ مثل هذا لا يغلط به أحد.

والحق أن الخطأ وقع فيه المتحدلقون الذين ظنوا أن الفاعل في الآية هو (الظالمون)، والصحيح أن (العهد) هو الفاعل، وقوله: (الظالمين) مفعول به، والمعنى: لا يشمل عهدي واستخلافي الظالمين.

وهذا التعبير شائع عند العرب، فيقولون: هذا ناله خيرٌ، وذاك ناله ظلمٌ.

وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (الأعراف: 152)، والمعنى: سينال غضب الله الظالمين، ومثله في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُم نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (الأعراف: 37)،

فالفاعل في الجملة (نصيب)، كما الفاعل في الآية السابقة (غضب)، وفي الآية التي استشكلوها

(عهدي)، ولم تظهر عليها علامة الرفع لتعذره بسبب إضافتها إلى ضمير المتكلم (الياء)، إذ يتعذر النطق

بـ (عهدي)، فتبين جهل القائلين بهذه الأبطولة، أو بالأحرى عجزهم عن الإتيان بغلط في القرآن يوافقهم

عليه البلغاء والعقلاء.

### المسألة الثالثة: عطف المنصوب على المرفوع

قالوا: العرب تعطف مرفوعاً على مرفوع، ومنصوباً على منصوب، في حين أن القرآن عطف على المرفوع منصوباً في قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 162)، فقالوا: يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع، فيقول: (والمقيمون الصلاة) بدلاً من نصبه في قوله:

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، لأنها معطوفة على مرفوع ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وقوله: ﴿الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

والجواب: أن الواو في قوله ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ ليست واو العطف، بل واو معترضة، وما بعدها منصوب على الاختصاص بالمدح، أي: وأمدح المقيمين الصلاة، وفي هذا مزيد عناية بهم عن المذكورين في الآية، ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ منصوبة على المدح، كما قال إمام اللغة سيبويه .

ومثله قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ (البقرة: 177)، فلم يقل: (والصابرون) وقد سبقها: ﴿وَالْمُؤْفُونَ﴾، والتقدير: وأخص بالمدح الصابرين في البأساء .

ونصب ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ خلافاً لنسق ما قبله وما بعده؛ وهي طريقة في الإنشاء تفعله العرب لفتاً لنظر القارئ أو السامع إلى أهمية ما بعده وخصوصيته، وتفعله بقصد المدح كما في هذه الآية، أو بقصد الذم كما في قوله تعالى: ﴿وَامرأته حمالة الحطب﴾ (المسد: 4)، أي أعني حمالة الحطب، فنصب ﴿حمالة﴾ على الاختصاص بالذم.

والنصب على الاختصاص سائغ ومعروف في كلام العرب، ولم يستنكره إلا أعاجم العربية اليوم ، وقد  
كثُر في أشعار العرب وآدابها ، ومنه قول الخِرِّقُ بنتُ بدر بن هَفَّان وهي ترثي زوجها بشر بن عمرو  
الضبي:

لا يبعدن قومي الذين هم      سُمُّ العداة وآفةُ الجُرُزِ

النازلين بكل معترك      والطيبون معاقد الأزرِ

فقولها: (النازلين) منصوب على الاختصاص، وليس صفة أو معطوفاً على: (سُمُّ العداة) و(آفةُ الجُرزِ).

ومثله قول أمية بن أبي عائذ:

ويأوي إلى نسوةٍ عَطَلٍ      وشُعناً مَرَضِيَعٍ مِثْلَ السَّعَالِي

فنصب « شُعناً » على الاختصاص ، مع أنه معطوف على مجرور .

وهكذا فالقرآن الكريم نصب قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ على الاختصاص، والواو هي واو الاعتراض ؛ لا  
العطف .

#### المسألة الرابعة: عطف المرفوع على منصوب في قوله

#### وَالصَّابِئُونَ

قالوا: المعطوف على المنصوب حقه في لغة العرب النصب، والقرآن رفعه مخالفاً قواعد العربية في قوله:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (المائدة: 69)، والصحيح - حسب حذفهم - أن ينصب

المعطوف على اسم إنَّ، فيقول: (والصَّابِئِينَ) كما في سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا  
وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ (البقرة: 62)، وسورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا  
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى﴾ (الحج: 17).

والجواب: أن الواو في الآيتين الأخيرتين للعطف، والمعطوف على المنصوب منصوب، بينما الأمر مختلف في  
قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾، فالواو فيه استئنافية، وليست للعطف على الجملة  
الأولى.

وقوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، قال سيبويه والخليل: "الرفع محمول على  
التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . . . والصابئون كذلك"،  
ومثل له سيبويه بقول الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأتم بغاة ما بقينا في شقاق [392]

لكن يشكل على هذا التخريج ما أورده أبو عبيد في "فضائل القرآن" من خبر يرويه أبو معاوية الضير من  
طريق هشام بن عروة بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير: (يا ابن  
أختي، هذا عمل الكتاب أخطؤوا في الكتاب)، فهذا الخبر لا يصح سنداً، وهو منكر متناً.  
وقد تأوّل بعض علمائنا قول أم المؤمنين: (أخطؤوا في الكتاب) أي "أخطؤوا في اختيار الأولى من الأحرف  
السبعة بجمع الناس عليه، لا أن الذين كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز، لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن  
طالت مدة وقوعه وعظم قدر موقعه، وتأوّل اللحن أنه القراءة واللغة".

وأكد على هذا المعنى الزمخشري: "ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم في النصب على الاختصاص من الاقتتان، وعُبي عليه أن السابقين الأولين - الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل - كانوا أبعدهم في الغيرة على الإسلام وذَبَّ المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم".

### المسألة الخامسة: الجمع بين فاعلين في الجملة

قالوا: العرب لا تأتي بضمير فاعل مع وجود الفاعل (اسم ظاهر)، حتى لا يكون في الجملة فاعلين، بينما القرآن جعل للفعل فاعلين في قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ورأى المتحدلقون من أعاجم العرب أن الأولى أن يقول: (وأسر النجوى الذين ظلموا)، أي حذف ضمير الفاعل (الواو) في ﴿أَسْرُوا﴾ لوجود الفاعل ظاهراً وهو قوله: ﴿الذين﴾.

الجواب: سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذا المبحث، فهذا الأسلوب جائز على لغة طيء وأزد شنوءة، وهم من العرب الفصحاء، ويضرب اليوم لهذه اللغة مثلاً، وهو قولهم لغة (أكلوني البراغيث).

وقد تكرر مثل هذا النسق الإعرابي في آيات قرآنية وأحاديث نبوية، منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: 71)، فقد ألحق علامة جمع الذكور (الواو) بالفعل في قوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ مع أن هذا الفعل مسند إلى فاعل ظاهر بعده، وهو قوله: ﴿كَثِيرٌ﴾، ومنه قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» ([404]).

فهل تراه بقي لطاعن ما يتكلم به وقد عرف أصالته في لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم .

### المسألة السادسة: رفع الفعل المضارع بعد (حتى)

قالوا: أخطأ القرآن حين رفع الفعل المضارع بعد (حتى) في قراءة ورش ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (البقرة: 214)، ورأوا أنه لا يصح فيها إلا الفتح، وهو الوجه المشهور عند بقية القراء .

والجواب: إن (حتى) من أعجب كلام العرب لكثرة صور إعرابها، وما تدل عليه في استعمالاتها، فمنها ما هو للعطف، ومنها ما هو للابتداء، ومنها ما هو لغير ذلك، ولكثرة معانيها واستخداماتها في لغة العرب قال أبو زكريا الفراء: "أموت وفي نفسي شيء من حتى .

وللفعل المضارع بعد (حتى) ثلاث حالات :

I- الفعل المضارع الدال على الاستقبال، ويتعين نصبه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: 9) .

2- المضارع الدال على الحال، ويتعين رفعه، ومثل العرب له بقولهم: "شربت الإبل حتى يجيء البعير يجربطنه" .

3- المضارع الدال على الماضي في معناه، ويجوز فيه الوجهان: الرفع والنصب، فأما الرفع فلكونه ماض في معناه، وأما النصب لكونه صيغة مستقبل، وقد جمعها الراجز بقوله :

وعليه فيجوز الوجهان (الرفع والنصب) في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (البقرة: 214)، لأنه ماض في معناه .

وهكذا تبين جهل القائلين بوجود اللحن في القرآن، وتسرعهم في الطعن عليه من غير حجة ولا بينة.

### ثانياً : الأخطاء البيانية المزعومة

وإذا كان القرآن قد تحدى العرب ببلاغته زمن جزالة اللغة وحجية الناطقين بها؛ فإن بعض أعاجم العرب

اليوم يزعمون أن في أساليب القرآن ما لا تجيزه العرب في كلامها، وكأنني بهم لم يطلعوا على خبر لبيد بن

ربيعة العامري صاحب إحدى المعلقات السبعة، وهو من فحول شعراء العرب، فقد سأله عمر بن

الخطاب يوماً: أنشدني من شعرك. فقرأ له لبيد سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما

كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران.

وقد ترك قول الشعر إعجاباً بالقرآن، حتى قيل أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفه  
والمرء يصلحه القرين الصالح

إن عظمة البيان القرآني دعت المستشرق بلاشير إلى الإشادة والإعجاب ببلاغة القرآن، وهو الذي لم يألُ

جهداً في الطعن في القرآن ومعاداته في كتابه "القرآن الكريم"، لكنه قال: "إن القرآن ليس معجزة بمحتواه

وتعليمه فقط، إنه أيضاً يمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة؛ تسمو على جميع ما أقرته

الإنسانية وبجلته من التحف".

وإذا كان الأمر كذلك فلسوف تتوقف مع أهم ما استشكله عباقرة البيان في هذا العصر، ممن لا يفرق بين

المرفوع والمنصوب، والمشبه والمشبه به :



المسألة الأولى: عود الضمائر في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقَرِّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ إلى رسول الله ﷺ.

قالوا: أتى القرآن بتركيب يؤدي إلى اضطراب المعنى، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقَرِّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفتح: 8-9)، فقالوا: الأصل في الضمير عوده على آخر مذكور، بينما نجد أن الضمير في قوله: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُقَرِّوهُ﴾ عائد على الرسول المذكور آخراً.

وأما قوله: ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ عائد على اسم الجلالة المذكور أولاً.

وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بطريقتين صحيحتين:

الأول: اعتبر ابن الجوزي جمع شيئين مختلفين في سياق واحد من صور بلاغة العرب، فيرد كل واحد منهما إلى ما يليق به، وضرب له أمثلة، منها هذه الآية، وأمثلة أخرى، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: 214). فالمعنى يقول المؤمنون: ﴿مَتَى نَصُرُ اللَّهُ﴾، فيقول الرسول: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ومن أمثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (القصص: 73)، فالسكن بالليل، وابتغاء الفضل بالنهار، لكنه جاء بالسكن بعد ذكر النهار، لأن السامع يعلم اختصاص الليل بالسكن، والنهار بالبحث عن الرزق وابتغاء فضل الله فيه.

ويمثله يمكن فهم آية سورة البقرة، فالمعنى: لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزروا رسوله وتوقروه، فهذان من حق الرسول، ثم شرعت الآية في الحديث عن حق الله فيقول: وتسبحوه، وأهمل التفصيل لأنه مستغنى عن ذكره لكونه معلوماً عند أهل العلم والبيان، ومن المعيب في البيان ذكر ما يستغنى عنه.

ولهذا المعنى حيد القرطبي الوقوف على قوله: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُقِرُّوهُ﴾ ثم الابتداء بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ .

الثاني: أنه ليس ما يمنع أن تعود الضمائر كلها على الله، أي لتؤمنوا بالله وتعزروه أي تنصروه، وتوقروه وتسبحوه، فتعزير الله هو نصره تبارك وتعالى بنصر دينه، وهو كقوله: ﴿إِنْ تَنصَرُوا إِلَهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمد: 7)، وكقوله ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، فقال: لله ولرسوله ولكتابه».

### المسألة الثانية: ورود ضمير المفرد في سياق التثنية

قالوا: أتى القرآن بضمير المفرد في حديثه عن المشي، وذلك في قوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ (التوبة: 62)، وقالوا مستنكرين: لماذا لم يثن ضمير العائد على اثنين (اسم الجلالة ورسوله)؟ فالأولى تثنيهما، وأن يكون السياق: (أحق أن يرضوهما).

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

أ- إفراد الضمير ليختص بالحديث عن الله، وليدل بذلك على أن إرضاء الله هو عين إرضاء الرسول، فمن أَرْضَى اللهُ فلا ريب أنه أَرْضَى الرسول ﷺ، ومثله قول الله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: 80)، فأفرد الضمير لتلازم الرضائين.

كما أهمل عود الضمير على الرسول لمعنى آخر: وهو التفريق بين الرضائين (رضا الله ورضا رسوله)، فأرضاء الله مقصود لذاته، بينما إرضاء الرسول تبع لرضا الله، لا يستقل، ولو استقل رضاه عن رضا الله - وحاشاه - لما صح أن يطلب رضاه.

ب- الأولى أن لا يذكر مع اسم الله أحد، فلا يُتَى مع اسم الله ملك ولا رسول، ولا يُذكر الله تعالى مع غيره في صيغة تشرك معه غيره، بل يفرد بالذكر تعظيماً له، ففي صحيح مسلم أن خطيباً قام عند النبي ﷺ فقال في خطبته: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى". فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «بِسْمِ الْخَطِيبِ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْبُدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [413]. فكره النبي ﷺ أن يجمع مع الله غيره في ضمير واحد.

ج- وذهب سيبويه في فهم الآية على وجود خبر محذوف للعلم به ضرورة، فالمعنى: (الله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك)، فيكون الكلام جملتين حُذِف خبر إحداهما لدلالة الثاني عليه، والتقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك [414]، قال أبو عبيدة: "والعرب إذا أشركوا بين اثنين قصرُوا، فخبَّروا عن أحدهما استغناءً بذلك، وتحقيقاً لمعرفة السامع أن الآخر قد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر، وأنشد:

فمن يك أمسى بالمدينة رحلُهُ  
فإني وقيارٌ بها لغريب"

ولم يقل: (لغريبان)، فالمعنى: (إني لغريب، وقيار كذلك) .

ومثله كثير في أشعار العرب ([416]) كقول الفرزدق:

إِنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى      وَأَبِي فَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورِ

ولم يقل: (غَدُورَيْنِ)، والمعنى: (فكنت غير غدور ، وأبي كذلك) .

وهذا الذي عرفته العرب ([417]) من الاكتفاء بأحد المذكورين، والاستغناء بذكره عن الآخر لشرف

الأول أو لغيره من الأسباب البيانية تكرر كثيراً في القرآن: كقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا

انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: II)، لم يقل: (إليهما)، بل أعاد الضمير إلى التجارة؛ لأنها الأهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ (النساء: II2)، أي يرمي بالإثم، ولم يقل:

(بهما)، بل أعاد الضمير على الإثم دون الخطيئة، لأنه أعظم منها .

### المسألة الثالثة: خطاب المثنى بصيغة الجمع

قالوا: أتى القرآن بالمعيب عند أهل البيان حين ذكر المثنى بصيغة الجمع، في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبًا إِلَى اللَّهِ

فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحریم: 4)، فالخطاب موجه لخصمة وعائشة. فلماذا لم يقل: (صغا قلباكما)،

إذ أنه ليس للثنتين أكثر من قلبين؟

وفي الجواب ذكر علماء اللغة أجوبة، أهمها:

أ- أن الله قد أتى بالجمع في قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ ، لأنه يسوغ في لغة العرب؛ لإضاقة إلى مشى، وهو ضميرهما . والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المشى . فإن العرب تكره اجتماع تشينتين، فيعدلون إلى صيغة الجمع؛ لأن التشنية جمع في المعنى والأفراد .

ب- أن الكثير من العرب يجعل أقل الجمع اثنين، والقرآن وافق العرب في أساليبها في هذا الموضع وفي غيره ، فعبر عن المشى بالجمع، ومنه قول الله لآدم وحواء: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة: 36)، ووافق أسلوب غيرهم ممن يجعل أقل الجمع ثلاثة في سورة طه، فقال: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (طه: 123) .

ومثله قول الله لموسى وهارون: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (طه: 15) ، ووافق أسلوب الآخرين في سورة طه: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه: 46) .  
وأمثله في كلام العرب أكثر من أن تحصى، ومنه قول الأخنش:

لما أتتنا المرأتان بالخبر      فقلن إن الأمر فينا قد شهر

وقال أبو سعيد الزيدي:

يحيي بالسلام غني قوم      ويخجل بالسلام على الفقير

ليس الموت بينهما سواءً      إذا ماتوا وصاروا في القبور [418]

فقال: (ماتوا)، ولم يقل: (ماتا)، مع أن واو الجماعة تتعلق باثنين، وهما الغني والفقير.

#### المسألة الرابعة: تذكير المؤنث

قالوا: أخطأ القرآن حين ذكر المؤنث في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: 17)، فقال في سياق حديثه عن (الساعة)، وهي مؤنثة: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: (قريبة).

ومثله في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مَنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: 56)، ولم يقل: (قريبة)، مع أنه يتحدث عن رحمة الله، وهي مؤنثة.

والجواب: أن المعارض يجهل أن العرب تميز التسوية بين المذكر والمؤنث في مواضع، أهمها خمسة أوزان، وهي: (فعلول) كرجل شكور وامرأة شكور، (مفعال) كرجل مقدم وامرأة مقدم، (مفعيل) كرجل مسكين وامرأة مسكين، (مفعل) كرجل مغشم وامرأة مغشم، (فعليل) كرجل جريح وامرأة جريح [419]. وقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ على وزن (فعليل)، فيسوي فيها بين الذكر والأنثى.

ومنه قول امرئ القيس

له الوَيْلُ إِنَّ أُمَّسَى وَلَا أُمَّ هَاشِمٍ  
قَرِيبٌ وَلَا الْبُسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرَا

ومنه قول قيس بن الخطيم:

فليت أهلي وأهل أئمة في الـ  
دار قريب من حيث نختلف

### المسألة الخامسة: ضمير الجمع والإفراد

قالوا: القرآن يخلط بين المفرد والجمع، وذلك في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة: 17)، فصدر الآية يتحدث عن مفرد ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾، لكنه في آخر الآية استخدم ضمير الجمع ﴿بِنُورِهِمْ﴾، والأولى - حسب زعمهم - أن يقول: (بنوره)، كما استشكلوا أمراً آخر، وهو تشبيه الجماعة بالواحد .

والجواب: أن الله لم يشبه الجماعة بالواحد، وإنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، فالمعنى: مثل استضاءة المنافقين بما أظهره بلسانهم وهم به مكذبون اعتقاداً؛ كمثل استضاءة الموقد ناراً .

ولن يعترض معترض على قولنا: (كمثل استضاءة)، فالحذف في الكلام معروف عند العرب، إذا فهم المعنى من السياق، كما قال نابغة بني جعدة:

وَكَيفَ تُوَصِّلُ مِنْ أَصْبَحَتْ      خِلَالَتُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ [421]

أي: كخلالة أبي مرحب . فأسقط (خلالة)، لأنها مفهومة من السياق .

وأما تمثيل الجماعة بالواحد فجائز، ومثاله كثير في القرآن ولغة العرب ، كقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ (الجمعة: 5) .

ثم يصح أن يقال: إن الآية تتحدث عن مستوقد واحد أضاء للمجموع، فصار هذا الضوء لهم جميعاً، لأنهم جميعاً منتفعون به .

ووجه آخر لم يعرفه أعاجم العرب الطاعنون في القرآن، وهو أن العرب تأتي بـ (الذي) بمعنى (الذين)، كما قال الأشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفتح دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وهكذا تبين جهل الطاعنين في بلاغة القرآن وأسلوبه، لقد جهلوا لغة العرب وبلاغة القرآن التي عرفها أعداؤه زمن بلاغة العرب وجزالة اللغة، فقال قائلهم (الوليد بن المغيرة): والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلا، وإنه لِيحطم ما تحته" [423].

## الطعن السادس والعشرين

### التناقضات المزعومة في القرآن الكريم

التناسق الداخلي للنص شرط لا غنى عنه في الكتاب حين ينسب إلى كاتب حصيف، وهو من باب أولى شرط في الكتاب حين ينسب إلى الله عز وجل؛ لذا يستحيل أن يوجد التناقض في كلام الله ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82).

وما ذكره البعض عن تناقضات مزعومة في القرآن لا يبدو أن يكون سوء فهم منهم لآياته أو جهلاً بلغة العرب ومساقات كلامها، وهذا بين لمن تبصر هذه المواضع التي استشكلوها:

**الإشكال الأول: هل أقسم الله بمكة أم لم يقسم؟**



قالوا: تناقض القرآن في مسألة قسم الله بمكة، فهو أقسم بها في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: 3)، وفي موضع آخر ينكر هذا القسم بمكة، فيقول: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: 1).

والجواب: لقد أقسم الله بالبلد الأمين (مكة) كما في آية سورة التين.

وما فهمه المعترضون من آية سورة البلد خطأ قادم إليهم جهلهم بلغة العرب وطرائقها في البيان، ففي قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾. (لا) ليست (لا) النافية التي تعني نفي القسم، بل هي (لا) الصلة، ويسمى بعضها بعض النحويين (لا) الزائدة، فهي زائدة نحوياً، وإن كانت غير زائدة بلاغياً، لأنها تفيد التأكيد.

قال الزجاج: "لا اختلاف بين الناس أن معنى قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأشكاله في القرآن معناه: أقسم" [425].

والعرب ما زالت تستخدمها في كلامها من القديم، فهي كقولنا: لا أوصيك بفلان، أي لا أحتاج إلى وصاتك به، فهي نوع من التأكيد على الوصاة، وليست طلباً للإهمال.

إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتاً.

ومثله كثير في أشعار العرب ومنه قول النابغة:

فَلَا وَحَقَّ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ      وَمَا هُرِّيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

أي: فوحق الذي... .

وقول الآخر:

تذكرت ليلي فاعترتني صباية      وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي: يتصدع .

ومثله قول الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ لَا يُلْقَى لِمَا بِي      وَلَا لِمَا بِهِمْ أَبَدًا دَوَاءُ

أي: فوالله .

وهذا الأسلوب في القسم يفيد تعظيم المقسم به ، كما في سورة البلد ، وكما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ` وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ` إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: 75-77)، وكقوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ` وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: 1-2) .

وقد وردت ( لا ) الصلة في مواضع كثيرة في القرآن الذي نزل بلغة العرب، ومنه قوله: ﴿ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُم ﴾ (آل عمران: 153)، أي (تحزنوا)، وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذِ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ` أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ (طه: 92-93)، أي (أن تتبعني)، وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: 65)، أي: (فوربك)، وقوله: ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الحديد: 29)، أي : (ليعلم أهل الكتاب) .

وقد ورد في سياق قصة آدم إثبات (لا) الصلة في موضع، وحذفها في آخر، لجواز الوجهين وتكامل معنييهما، فأما إثباتها ففي قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أُمِرْتَ ﴾ (الأعراف: I2)، وقد حذفت في قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ (ص: 75)، والمعنى فيهما واحد، وهو: ما الذي منعك أن تسجد لآدم؟ .

### الإشكال الثاني: كم عدد الملائكة الذين نزلوا يوم بدر؟

قالوا: اختلفت الآيات في عدد الملائكة النازلين في غزوة بدر، ففي سورة الأنفال أنهم ألف: ﴿ إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ (الأنفال: 9)، وفي سورة آل عمران أنهم ثلاثة آلاف ﴿ إِذِ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ (آل عمران: I24)، وفي الآية التي بعدها أصبحوا خمسة آلاف ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: I25).

والجواب: أما الخمسة الآلاف فجاء ذكرها في تعزية المسلمين في هزيمتهم في غزوة أحد، فامتن الله على الصحابة بذكر مدد ملائكة بدر، وذكر لهم أن المشركين لو عادوا إليهم فإن الله سيمدهم بخمسة آلاف من الملائكة إذا صبروا على ما فيهم من الجراحات وثبتوا لقتالهم ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: I24)، لكن الله من على المسلمين بعد أن أظهروا الثبات وتجهزوا للقتال، فصرف عنهم المشركين، فلم يعودوا لقتالهم، ولم تنزل الملائكة في أحد لفوات الشرط ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ﴾ .

وقال بعض أهل العلم: بل كان هذا الوعد في بدر حين بلغ المسلمون أن كرز بن جابر الفهري يمد المشركين، فشق عليهم، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يُكْفِئُكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴿ (آل عمران: 125)، قال الشعبي: فبلغت كرز الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة آلاف، فهذا خبر الخمسة آلاف.

والحق أن الله أنزل من الملائكة يوم بدر ثلاثة آلاف، كما قال النبي ﷺ لأصحابه قبل المعركة: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (آل عمران: 124)، وقد نزل هؤلاء الملائكة بالترادف ألفاً بعد ألف، كما قال الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ (الأنفال: 9)، فقله: ﴿مُرَدِّفِينَ﴾ تعني: ردفهم غيرهم ويتبعهم ألف آخر مثلهم، فالترادف هو التابع، والرادف: المتأخر، والمردف: المتقدم الذي أردف غيره .

### الإشكال الثالث: أيهما خلق أولاً، السماوات أم الأرض؟

قالوا: تناقض القرآن حين تحدث عن ترتيب وجود المخلوقات، فتارة يجعل الأرض مخلوقة قبل السماء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29)، وأكد هذا في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنَهُمْ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ (فصلت: 9-12)، فهذه الآيات تجعل خلق الأرض قبل خلق السماوات، بدليل قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ في الموضعين .

وتارة يجعل القرآن خلق السماء قبل خلق الأرض ﴿ أَلَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ۖ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۖ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۖ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۖ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَامِكُمْ ﴾ (النازعات: 27-33) [431] .

وفي الجواب : عن هذه الشبهة وجوه ثلاثة:

الأول: وهو الذي مال إليه جمهور المفسرين في القديم، ويقوم على أن مادة الأرض خلقت في اليومين الأولين، ثم خلقت السماوات في اليومين الثالث والرابع، ثم دحيت الأرض وجهازت لتصلح لاستقرار حياة الإنسان في اليومين الأخيرين .

وهذا الوجه أخرجه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن رجلاً استشكل مسألة ترتيب الخلق بين السماوات والأرض ، فسأله عنها ؛ فأجابه ابن عباس: (وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض ، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين). [432] وشهرة هذا الوجه عند المفسرين تعني عن تفصيله .

الثاني: وهو الذي ذكره بعض المتأخرين من أهل العلم، وهو ما يترجح لي، وأجمله بالقول أن السماوات والأرض خلقتا معاً في اليومين الأولين، ثم تكامل خلق الأرض وإعدادها للإنسان في الأربعة الأخيرة من الأيام الستة.

وتفصيله: أن الله خلق السموات والأرض معاً مجتمعين ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: 30)، والرتق ضد الفتق، أي كانتا منضمتين، بعضهما إلى بعض، ثم فتقهما الله، فحدث ما يسمى عند علماء الجيولوجيا والفلك بالانفجار الكبير.

وقد وضحت هذا المعنى الآيات القرآنية كما في قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104)، فالخلق يعود إلى حالته الأولى، فيطوى من جديد ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: 9).

وأما كون الخلق للسموات والأرض في يومين فهو لقول الله عن السماوات: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، وعن الأرض: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فهذان هما اليومان الأولان، ثم دحيت الأرض واكتمل إعدادها لصلاح معيشة الإنسان عليها في أربعة أيام أخرى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَا لِّلسَّائِلِينَ﴾.

وقد يشكل على البعض - ممن قلَّ علمه بلغة العرب ودلالات الألفاظ فيها- أن آيات سورة فصلت تحدثت عن خلق الأرض في يومين، ثم تحدثت عما خلق الله فيها في أربعة أيام، ثم قال الله بعد ذكر هذا وذا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، فاعتقدوا أن ﴿ثُمَّ﴾ تفيد التأخر والتراخي، ومثله

فهموه من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (البقرة: 29).

وهكذا ينحصر الإشكال في دلالة كلمة (ثم) على التراخي والترتيب.

لكن أهل البلاغة يعرفون أن (ثم) لا تفيد بالضرورة الترتيب الوجودي الذي نعرفه في المتبادر إلى الذهن، بل لها دلالة أخرى، وهو ما تسميه العرب (الترتيب الذكري).

ولبيان هذا النوع من الدلالة لـ (ثم) نقرأ قول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه      ثم قد ساد قبل ذلك جده [433] والمعنى: اذكروا خبر من

ساد، ثم اذكروا خبر من ساد أبوه، ثم اذكروا خبر من ساد جده. وليس المعنى أن المرء يسود ثم يسود أبوه ثم يسود جده، بل العكس هو الصحيح، فالمرء يسود بعد سؤدد جده وأبيه.

وهذه الدلالة لـ (ثم) موجودة في القرآن الكريم في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۖ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ

وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: 7-9)، ومن المعلوم أن التسوية تكون

قبل إنجاب النسل، فهذا لا يخفى، ومع ذلك قال القرآن: ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۖ ثُمَّ سَوَّاهُ

﴾ فـ (ثم) هنا للترتيب الذكري؛ لا الوجودي، والمعنى: ثم اذكر كيف سواه الله.

ونحو هذا ما جاء في سياق وصايا الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ وفي آخرها يقول: ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴿ (الأنعام: 153-154)، ومن المعلوم أن موسى كان قبل وصية الله لنبينا ﷺ، لكن الترتيب الوجودي غير مراد في قوله: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ﴾.

ومثله أمره تبارك وتعالى للمؤمنين بالإفاضة من عرفات بعد حديثه عن المشعر الحرام ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمُشْعَرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ (البقرة: 198)، ثم عادت الآية التي بعدها للحديث عن مسألة الإفاضة من عرفات ووجوب مخالفة المشركين فيها، وصدرت الآية ب(ثم)، فقال الله: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: 199)، ومن المعلوم أن الوقوف بعرفات سابق على الوقوف بالمشعر الحرام (مزدلفة).

ومثله قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ ثُمَّ تَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿ (التكاثر: 7-8)، والسؤال يكون يوم القيامة قبل رؤية الجحيم، وأمثال هذا الاستخدام ل(ثم) كثير في القرآن ([435]).

وإذا تبين ما تفيدته (ثم) عند العرب، فلنقرأ الآيات مع أبي حيان الأندلسي وفق هذا المفهوم: " (ثم) لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة، كأنه قال: فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء، فلا تعرض في الآية لترتيب.. فصار كقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (البلد: 17) بعد قوله: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾

(البلد: II)، ومن ترتيب الأخبار ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ (الأنعام: 154) بعد قوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ (الأنعام: 151).



ويدل على أنه المقصود ؛ الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زمني قوله في الرعد : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: 2) الآية، ثم قال بعد : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتْهَارًا ﴾ (الرعد: 3) الآية . وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي، وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقتها ، ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زمني " ([436]).

وهكذا يستبين معنى آيات سورة فصلت التي قد ورد فيها الإشكال، فقد بدأ القرآن بالحديث عن خلق الأرض، لأنها القريب المباشر للإنسان، ثم انتقل للحديث عن البعيد ، وهو السموات ، من غير أن يكون ذلك مقتضياً خلق الأرض قبل السماء .

وهكذا، فهذان الوجهان المذكوران عند العلماء في القديم والجديد، قد أشار ابن جزيء في تفسيره إلى صحتها بقوله: " الجواب من وجهين: أحدهما: أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك ، فلا تعارض ، والآخر: تكون (ثم) لترتيب الأخبار " ([437]).

الوجه الثالث: أن الخلق على نوعين: خلق إيجاد، وخلق تقدير، فأما خلق الإيجاد فهو الخلق المعلوم، وأما خلق التقدير فكما في قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبع  
ض القوم يخلق ثم لا يفري

وضرب الرازي لهذه الحلقة مثلاً بقول الله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: 59)، إذ "لا يقال للشيء الذي وجد: كن ، بل الخلق عبارة عن التقدير، وهو

في حقه تعالى ؛ حكمه أن سيوجد ، وقضاؤه بذلك بمعنى خلق الأرض في يومين ، وقضاؤه بمجدوث كذا ، أي مدة كذا ، لا يقتضي حدوثه ذلك في الحال ، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء" [438].

فهذه أوجه ثلاثة من تدبرها استبان له المعنى، وعلم براءة القرآن من الاختلاف والتناقض، وعلم سعة لغة العرب وجهل أعاجم العرب المتحدثين بالسوء عن القرآن العظيم.

#### الإشكال الرابع: أحوال الناس في يوم القيامة

قالوا: تناقض القرآن وهو يقص أحوال الناس في يوم القيامة، فتارة يقول: إنهم لا ينطقون: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات: 35-36)، وتارة يذكر أنهم ينطقون ويعتذرون: ﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 23)، وأنهم يقولون: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ (النحل: 28).

والجواب: أن يوم القيامة يوم طويل ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: 4)، وفيه مواقف متباينة، لكل منها ما يخصه من الأحكام والأحوال، ففيه حذر وترقب، وفرح وبشارة، وفيه حزن وهلاك، وأمن وأمان، والناس يتنقلون بين هذه المواقف، بل لربما تنقل المرء فيه من حال إلى حال، ففي حديث عائشة أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟»، قالت: ذكرت النار فبكيْتُ، فهل

تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند

الميزان حتى يعلم: أيخف ميزانه أم يتقل؟ وعند الكتاب حين يقال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهٖ ﴾؛ حتى يعلم

أين يقع كتابه، أي يمينه أم في شماله؟ أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط: إذا وضع بين ظهري جهنم» [1]

[439]، فهذا لا يتعارض مع قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37)، فهذا الذهول لا

يستغرق يوم القيامة، بل هو متعلق ببعض مواقفه، وهو لكل مجسب عمله وتقواه.

وهكذا فما يذكر من اختلاف الأحوال لاختلاف المواقف، ولطول ذلك اليوم وعظم شأنه عبّر القرآن عن

كل واحد منها بكلمة «يوم» أو «يَوْمِئِذٍ»، من غير أن تعني استغراق الفعل لكل ذلك اليوم الطويل.

ويدل لذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ

وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَجُوهٌ يَوْمِئِذٍ

عَلِيهَا غَبْرَةٌ تَرَهُّقًا قَرَّةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (عبس: 33-42)، فذكرت الآيات في نفس

السياق حالين للمؤمنين (الخوف ثم الفرح) وحالين للكافرين (الخوف والكآبة)، وكل هذه الأحوال في يوم

القيامة، فالإشارة إلى حدوثها في يوم القيامة لا يعني دوام الحال الواحد واستغراقه لكل ذلك اليوم الطويل،

فقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37)، لا يستوعب كل يوم القيامة؛ لوجود أوقات

يأمن فيها المرء على نفسه، حين يعلم صلاح ماله ونجاته من النار، كما قال ﷺ في الحديث السالف: «أما

في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً»، مما يعني أن في غيرها من المواطن يتذكر المرء أحبابه وخلانه،

لأمنه فيها من العذاب.

وكذلك قوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي

﴾ (الفجر: 23-24)، ومن المعلوم أن مجيء النار وتذكر الإنسان لا يستغرق كل يوم القيامة، بل يكون في

جزء منه.

### الإشكال الخامس: هل يتساءل الناس يوم القيامة؟

قالوا: يخبر القرآن عن أهل النار أنهم يوم القيامة يتساءلون: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (الصفات: 27)، بينما يخبر في سورة (المؤمنون) أنهم لا يتساءلون: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: IOI)، وهذا - مجسب زعمهم - من التناقض الصريح الذي يمنع نسبة القرآن إلى الله العليم.

وفي الجواب ذكر العلماء وجهين صحيحين :

الأول: وهو ما ذكرناه في الإشكال السابق، ويتلخص في أنهم عند النفخة وقيام الأشهاد واضطراب الخلائق لا يتساءلون لهول المطلع ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: IOI)، فهذا الوقت عصيب، وهو وقت فرح وخوف ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (النمل: 87)، مثله في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: 1-2)، ثم يفيق العباد من هول المطلع فيكون بعد ذلك التلاوم والتساؤل.

الثاني: أن القرآن نزل بلسان العرب، موافقاً لما عهدوه في أساليبهم وطرائقهم في البيان، والعرب تعتبر الفعل الذي لا فائدة منه كالعدم، ولأجل هذا سمي القرآن المنافقين: ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة: I8)، وهم في الحقيقة يسمعون وينطقون ويبصرون ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ (الأحقاف: 29)، لكنهم صم عن سماع الحق، وعمي عن رؤيته ، وبكم عن النطق به ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: 179)، ويمثل هذا تقول: إن النظر مع عدم الإفادة منه هو كعدم النظر حكماً، فصاحبه أعمى ، وإن كان يرى ما يراه ذو العينين .

ولمثل هذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَخَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: 77)، فليس المقصود منه نفي نظر الله إليهم، فالله لا يغيب عنه أحد، وليس المقصود أنه تبارك وتعالى لن يكلمهم ، فكلامه لهم ثابت في عشرات الآيات التي تحكي عن توبيخ الله للمشركين وتقريعه لهم، لكن المقصود أنه لا يكلمهم كلاماً ينفعهم، لا يكلمهم بما فيه رحمة لهم، ولا ينظر إليهم نظرة تفيدهم وتنجيهم من عذابهم وخوفهم، فلما لم يكن لها فائدة كانت بمنزلة العدم.

ومثله قول الله تعالى عن الكافر: ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (طه: 74)، أي لا يحيى فيها حياة طيبة هائلة، وإلا فهو - على الحقيقة - حي فيها لا يموت أبداً .

ومثله كذلك قول النبي ﷺ لمن صلى على الحقيقة؛ غير أنه أساء في صلاته: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل»، فصلاته في حكم العدم لعدم إقامته ركوعها وسجودها ([440]).

ومثله قوله تعالى وهو يصف حال الناس في كربات يوم القيامة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: 101)، فليس معناه أنهم تنقطع الأنساب بينهم، فلا يكون الابن ابناً لأبيه،

فإن القرآن أثبت النسب بين الناس في يوم القيامة ونفى الانتفاع به ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 34-37)، فلما كان النسب لا ينفع يومئذ قال الله: ﴿فَلَا أُنسَبُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: IOI)، أي لا ينفعهم النسب حينذاك، كما لا ينفعهم التساؤل ([44I]).

والإفان التساؤل بينهم من غير منفعة واقع، وقد ذكره القرآن في غير آية ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَاتُونَآ عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ فَاغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الصفات: 27-33)، لكنه تساؤل التلاوم الذي لا فائدة فيه ولا نفع، فوجوده وعدمه بالنسبة لهم سواء، لذا قال الله: ﴿فَلَا أُنسَبُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

قال الشنقيطي: "المراد بنفي الأنساب انقطاع فوائدها وآثارها التي كانت مترتبة عليها في الدنيا؛ من العواطف والنفع والصلوات والتفاخر بالآباء، لا نفي حقيقتها".

### الإشكال السادس: هل يسأل الله عن الذنوب أم لا يسأل؟

قالوا: تناقض القرآن في مسألة السؤال عن ذنوب الجرمين، فنفاه في قوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: 78)، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: 39)، وأثبتته في مواضع أخرى فذكر أنه يسألهم: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: 6) فهذه

الآية تدل على سؤال الجميع يوم القيامة، ومثلها قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: 92-93).

وفي الجواب نقول: السؤال على أنواع، فبعضه للاستفسار والتعلم، وبعضه للتقريع والتوبيخ، وبين هذا وهذا بون شاسع، فالأول منتف في حق الله تعالى علام الغيوب، فهو لن يسأل أحداً عن ذنبه سؤال تعرف واستخبار، بل يعاقب الله تعالى العبد بما عرف من ذنوبه ومعاصيه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة: 6)، كما صنع مع قارون والجبارة من قبلهم؛ حين فجأهم ببأسه وإهلاكه ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: 78)، فالله لا يسأل الجرمين ولا يستفسر منهم عن ذنوبهم حين يريد عقوبتهم.

وكذلك فإن الملائكة حين تنزل بالعذاب فإنها لا تسأل الجرمين ولا تسأل عنهم، لأنها تعرفهم بسيماهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آءٍ رَبُّكُمَا تُكذَّبَانِ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن: 39-41).

قال الربيع بن أنس: "قوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: لا يسألون عن إحصائها، يقول: هاتوا فينبوها لنا، ولكن أعطوها في كتب فلم يشكوا الظلم يومئذ، ولكن شكوا الإحصاء" [443].

وقال الحلبي: "لا يسألون سؤال التعرف لتمييز المؤمن عن الكافر، أي إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة، فتقول: ما كان ذنبك، وما كنت تصنع في الدنيا حتى يتبين له بإخباره عن نفسه أنه

كان مؤمناً أو كافراً، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه مشروحي الصدور، والمشركون يكونون سود الوجوه زرقاً مكروبين ، فهم إذا كلفوا سوق الجرمين إلى النار، وتمييزهم في الموقف عن المؤمنين كفهم مناظرهم عن تعرف ذنوبهم".

وأما سؤال الحساب والتوبيخ والتقريع فهذا نوع آخر من السؤال، يسأله الله تبارك وتعالى الجرمين، بل ويسأل الأنبياء ليقرع الجرمين ويقيم عليهم الشهود ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: 6).

وقد ذكر القرآن في مواضع عديدة صوراً من هذه الأسئلة التقريعية التوبيخية التي سيسألها الله للمجرمين على سبيل التوبيخ، كما في قوله: ﴿ وَقَفُوهُمْ إِيَّهِمْ مَسْئُولُونَ ۚ مَا لَكُمْ لَّا تَنصُرُونَ ﴾ (الصفات: 25)، وكقوله: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور: 15)، وكقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ (الأنعام: 130)، وكقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك: 8)، فهذا كله مثبت معلوم.

### الإشكال السابع: ألف سنة أم خمسون ألف سنة؟

قالوا: تناقض القرآن في حديثه عن طول يوم القيامة، فذكر في موضع أنه ألف سنة ﴿ يُدَبَّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة: 5)، وذكر في آخر أنه خمسون ألف سنة ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: 4).

والجواب: إن القارئ للآيتين يدرك أن التباين بينهما مرده اختلاف موضوعهما، فالخمسون ألف سنة هي مقدار يوم القيامة، فقد نصت عليه الآيات بعدها ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۖ وَرَأَاهُ قَرِيباً ۖ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴾ (المعارج: 7-8)، وقد أكد النبي ﷺ هذا الطول ليوم القيامة ، وهو يحكي عن عذاب تارك



الزكاة: «كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؛ حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وأما الألف سنة فلا علاقة لها بيوم القيامة، وإنما وردت في سياق الحديث عن مدة نزول الأمر من الله ثم عروجه إليه [446]، وهو منطوق الآية وصريحها، لأن الله يقول: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: 5).

ومصادقه في قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمس مائة سنة»، فنزول الأمر ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ في خمسمائة عام، ومثلها في صعوده ﴿ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ﴾، فهذه الألف سنة.

قال ابن عباس: "المعنى ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره لو سِيرَ فيه السير المعروف من البشر ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء".

بقي لنا أن نهمس في آذان أصحاب هذه الشبهة، فنقول: الحديث في مسألة الزمن نسبي، فحين نتحدث عن أعمار البشر فإننا نتحدث عن أيام وسنين أرضية؛ لأن البشر يعيشون على الأرض، ولكن لو فرضنا أن مخلوقاً يعيش على القمر فإن حساب سني عمره يكون بالسنين القمرية لا الأرضية، فيختلف عمره القمري عن الأرضي باختلاف السنين القمرية عن الأرضية.

وهكذا يكون الحال حين نبتعد أكثر، فنحدث عن عروج الملائكة في السماوات أو نزولهم فيها، فأياهم ليست أياً أرضية، ولا قمرية، ولا شمسية، والألف منها باعتبار قد يعدل الألفين أو العشرة باعتبارات أخرى، فيكون الإخبار عن هذا كله صحيحاً رغم اختلاف الأرقام.

### الإشكال الثامن: هل تتبدل كلمات الله؟

قالوا: اختلف القرآن في مسألة تبديل كلام الله، فحين يكون المقصود فيه التوراة والإنجيل فإن المسلمين يقولون بوقوع التبديل والتحريف محتجين بقول القرآن: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: 79)، في حين أن آيات أخرى تذكر أن كلمات الله لا تتبدل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (يونس: 64)، وكذا قوله: ﴿وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (الأنعام: 34)، وكذا قوله: ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: 55)؛ إذ لا يقوى البشر على ذلك ﴿وَآتَلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الكهف: 27).

والجواب: أن اللبس إنما وقع لاجتزاء النصوص وإخراجها من مساقها، وتحويرها وتحريف معناها تدل على غير ما تحدث عنه، فإن القرآن ذكر تحريف أهل الكتاب لكتاب الله، وتلاعبهم به زيادة ونقصاً، وليس هذا موضع بسطه.

وفي مقابلة ذكر القرآن نوعين من كلمات الله لا تتبدل:

الأول : القرآن، وهو وإن كان من جنس ما نزل على أهل الكتاب؛ إلا أن الله خصه بالحفظ دون سائر كتبه ﴿وَأَنْتَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الكهف: 27)، فالكلام الذي لا يبدل هو ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، أي القرآن الذي قال الله عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۚ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 41-42) .

وأما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: 114-115)، فقد اختلف العلماء في المراد بـ ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ فقال بعضهم: هو القرآن، وقال بعضهم: المقصود نواميسه الكونية، والسياق محتمل للمعنيين، وكلا الأمرين لا يبدله أحد ، ولا يقدر على تبديله .

وقد جمع بين المعنيين أبو جعفر الطبري بقوله: "يقول تعالى ذكره: وكلمت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، يعني القرآن . . . ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، يقول: لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه ، وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (الفتح: 15)، فكانت إرادتهم تبديل كلام الله، مسألتهم نبي الله أن يتركهم يحضرون الحرب معه" [ ]

• ([449])

الثاني : موعود الله وقضاؤه، فالله لا يخلف الميعاد، ولا يقوى أحد على تغيير قضاؤه وموعوده تبارك وتعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كَذَّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى آتَاهُمْ

نَضْرًا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي الْمُرْسَلِينَ ﴿الأنعام: 34﴾، فما لا يتبدل هو موعود الله  
 لأنبيائه بالنصر، ومثله في موعود الله للمؤمنين بالجنة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ  
 الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿يونس: 63-64﴾، فالحديث في الآيات  
 المانعة من تبديل كلام الله يتعلق بالقرآن أو بموعود الله لعباده، ولا يتحدث عن الكتاب المقدس الذي توعده  
 الله محرفيه ومبدييه بالويل والثبور: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
 لِيُشْرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: 79).

### الإشكال التاسع: عربوة القرآن مع عجمة بعض كلماته

قالوا: تناقض القرآن في قوله بأنه نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: 195)، في حين أننا نجد فيه كلمات  
 أعجمية كأسماء بعض الأعلام (إبراهيم، إسماعيل، إسحاق)، أو أسماء بعض الأشياء مستعارة من  
 لغات أخرى كالسريانية والعبرية والنبطية، وأوصلوها إلى ما يقرب من أربعين كلمة، منها (القرآن -  
 سكيئة - زكاة - سرادق - الحور - مشكاة - إستبرق - السبت - زنجيل - سجيل).

والجواب: نزل القرآن بلسان عربي مبين، لذا لا يوجد في سطر من سطره جملة واحدة غير عربية، ولا  
 يوجد جملة واحدة مركبة بما يخالف أساليب العرب وطرائقها في البيان.

إن وجود كلمات فرنسية متفرقة في كتاب مكتوب بالإنجليزية، لن تجعل الكتاب فرنسياً، ولن تشكك في  
 إنجليزية الكتاب ولا الكاتب، وبخاصة حين تكون هذه الكلمات أسماء لأعاجم، فهذه الكلمات تنقل كما  
 هي من لغة إلى أخرى من غير ترجمة معانيها.

ثم إن كثيراً من هذه الكلمات - التي استعجموها - عربية في جذورها واشتقاقاتها، وجهل البعض بها لقلة استخدامها أو غيره لا يعني أعجميتها، ومن ذلك كلمة (قرآن - سكينه - حور)، فكلمة (قرآن) ليست من الكلمة العبرية (קרא) كرا، ولا من السريانية (قرا)، بل هي من الجذر العربي (قرا)، وهذا التشابه في جذور كلمات اللغات السامية كبير ومعروف عند علماء اللغات، وصوره أكثر من أن تحصى في اللغات السامية، وبسببه أخطأ البعض في نسبة بعض الكلمات العربية الأصيلة إلى لغات أخرى .

ولو ضربنا لذلك مثلاً بكلمة (قرآن)، فإننا نقول بأنها مشتقة عربية على وزن (فعلان) من (قرا ، قرآن)، ومثل هذا الاشتقاق كثير في لغة العرب (رحمن - فرقان - رضوان - حيوان - حيران - غضبان) .

وكلمة (قرآن) مصدر آخر من الفعل (قرا)، وهو يختلف في معناه عن المصدر (قراءة)، كما يفترق (رحمن عن رحيم، وفرقان عن فرق، ورضوان عن رضا، وحيوان عن حياة، وحيران عن حائر)، فالمصدر (فعلان) يفيد معنى زائداً ، فالقراءة في أي كتاب هي صورة للقراءة ، أما القرآن فهو حقيقة القراءة،

وكذلك (الحياة) تدل على أي صورة من صور الحياة، بينما (الحيوان) تدل على الحياة الحقيقية، لذلك قال الله عن الآخرة: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: 64)، وكذلك الفرق بين الرضى والرضوان، وبين الفرق والفرقان .

لكن العرب أيضاً استخدمت كلمات وفدت إلى العربية من لغات أخرى، وهي في غالبها تتعلق بمسميات وافدة على العرب، فاستوردها العرب في رحلاتهم إلى الشام وفارس مع أسمائها ك (سندس ، إستبرق ، زنجبيل)، فأصبحت عربية بالتعريب واستخدام العرب لها، ويشبه هذا استخدامنا اليوم لبعض الكلمات المتعلقة بمصنوعات وفدت إلينا من الغرب، ك (التلفزيون، الفيديو ، الراديو) .

واستعمال العرب ثم القرآن لأمثال هذه الكلمات لن يقلل من عروبة القرآن، فعروبة أساليبه وفصاحة كلماته لم ينكرهما حتى عرب الجاهلية، وهم من هم في الفصاحة والجزالة، وكذلك في الحرص على الوقوف على زلل في القرآن أو خطأ.

### ألفاظ قرآنية غير لائقة بزعمهم

قالوا: القرآن يستخدم كلمات لا تليق وتخدش الحياء، مثل كلمة (النكاح) أو (الغائط) أو (الفرج)، ومفهوم كلمة النكاح عندهم (الجماع)، وأما (الغائط) فأوه اسماً صريحاً لما يخرج في الخلاء، وكذلك الحال في (الفرج) الذي اعتبروه لفظاً صريحاً في الدلالة على محل الجماع.

والجواب: لعل من نافلة القول أن نقرر أن الباحث في كتب أهل الأديان اليوم لن يجد كتاباً مثل القرآن في عنايته بالآداب وانتقائه لأجود الكلمات والألفاظ، لأنه كتاب الرب الحكيم العليم، تعالى عن كل تقيصة ومثلية.

لكن الجماع والتبول والتبرز عمليات حيوية لا يخلو عن التطرق إليها كتاب يتناول توجيه المناشط الإنسانية ، بيد أن عظمة القرآن عرضت ما يتعلق بهذه المعاني في قالب أدبي رصين لا مثيل له، فذكرها بطريق الاستعارة والكناية استعلاءً وترفعاً عن اللفظ الصريح المستقبح.

ومن ذلك أنه تبارك وتعالى عبر بالماسية والملاسة عن الجماع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّ سَا ۖ (المجادلة: 3-4)، ومثله قوله: ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ۖ ﴾ (البقرة: 237)، وقوله: ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ۖ ﴾ (النساء: 43).

وفي مواضع أخرى استعاضت الآيات عن ذكر الجماع بألفاظ عامة كالرفث والإفشاء والمباشرة والاعتزال، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة: 187)، قال ابن عباس: "الرفث، الجماع، ولكن الله كريم يَكْفِي" ([452])، وأصل الرفث كما قال أبو عبيدة هو: "اللغا من الكلام، وأنشد:

ورب أسراب حجيج كظم  
عن اللغا ورفث التكلم" ([453])

وأما التكنية عن الجماع بالإفشاء، ففي قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ (النساء: 21)، وفي آية أخرى كَمَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِالْمُبَاشَرَةِ؛ لما فيه من التقاء البشريتين ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ (البقرة: 187).

وأما لفظة (النكاح) فهي في لغة العرب بمعنى الاختلاط والتضام، كما تستعمل العرب (النكاح) بمعنيين مجازيين: أولهما: للدلالة على عقد النكاح. والثاني: هو الجماع.

قال الفيومي: "تناكحت الأشجار إذا انضم بعضها إلى بعض، أو من نكح المطر الأرض إذا اختلط براها، وعلى هذا فيكون (التنكاح) مجازاً في العقد والوطء جميعاً، لأنه مأخوذ من غيره، فلا يستقيم

القول بأنه حقيقة، لا فيهما، ولا في أحدهما، ويؤيده أنه لا يفهم العقد إلا بقريئة نحو ( نَكَحَ ) في بني فلان ولا يفهم الوطاء إلا بقريئة نحو ( نَكَحَ ) زوجته، وذلك من علامات المجاز".

وحين استخدم القرآن هذه اللفظة (النكاح) أراد المعنى المجازي الأول (عقد النكاح) ، ولم يرد (الجماع)، وهذا يتبين لمن تأمل الآيات القرآنية، كمثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ (النور: 32)، فالمعنى: زوجوهم، ومثله في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب: 49)، فالآية صريحة في طلاق الزوجة بعد العقد عليها وقبل الدخول فيها ، فقوله: ﴿ نَكَحْتُمْ ﴾ أي عقدتم.

ومثله قوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع؛ لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [1455] أي تخطب المرأة ويطلب الزواج منها لهذه الأمور.

وكذلك كنى القرآن عن محل الجماع بالحرث والتغشي، فأما الحرث ففي قوله تعالى: ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ (البقرة: 223) ، والتغشي في قوله: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا ﴾ (الأعراف: 189).

وكذلك كنى القرآن عن مقدمات الجماع بالمرادة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ (يوسف: 23)، فهو كناية عما تطلب المرأة من الرجل وما يطلبه الرجل من المرأة.



وتمثل هذا الأدب كنى القرآن عن محل الجماع بـ (الفرج)، في قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (الأنبياء: 91)، وهو لفظ كناية، وليس بلفظ صريح، كما توهم الجهلة من أعاجم العربية، فالفرج عند العرب يراد به أصلاً فرج القميص، أي شقه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: 26)، والتعبير به عن موضع العفة من أطف الكنايات وأحسنها .

قال الجرجاني: "فرج بالسكون، والفرجة الشق بين الشيين، والفرج ما بين الرجلين . . وقال بعضهم أصله الشق، وكني به عن السواة، وكثر حتى صار كالصريح" .

وحين تحدث القرآن عن التبول والتغوط لم يصرح بهما، بل ذكر لآزمهما، وهو الطعام والشراب، فقال عن المسيح وأمه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ تَبَيَّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: 75) .

وأما لفظة (الغائط) فهي أيضاً من أفاظ الكناية، وهي صورة أخرى من صور الأدب القرآني، لأن الغائط في لغة العرب ليس اسماً للعذرة التي تخرج من الإنسان، بل هو المكان المنخفض من الأرض، ولما كانوا يقضون حوائجهم فيها؛ فقد استعملوه للدلالة على العذرة، لكراهية العرب للتصريح باسمها .

قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

فكم من غائط من دون سلمى      قليل الأنس ليس به كنيع

ومراده كثرة الوديان التي تفصله عن سلمى .

وفي مقابل هذا الأدب القرآني الجم؛ فإننا نذكر المردين لهذه الشبهة بعض ما في كتبهم مما تستقبح ذكره الطباع: فقد ورد ذكر (الخرء) في سفر حزقيال حين زعموا أن الله قال لنبيه حزقيال: "وتأكل كعكاً من الشعير، على الخرء الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم" (حزقيال 4/12).

ووردت المضاجعة صريحة في كتبهم في مواضع لا تحصى لكثرتها، بل ورد ذكر تفاصيل فاضحة عن العلاقة الجنسية، ومنه قول التوراة: "وزنتا بمصر في صباهما زنتا . هناك دغدغت ثديهما ، وهناك تزغزغت ترائب عذرتيها" (حزقيال 23/3)، ومثله في قولها: "حبيبي لي، بين ثديي بيت" (نشيد I/I5)، وأمثال هذا كثير، يطول المقام بتبعه.

وهكذا فإن أدب العبارة القرآنية لا يبارى ولا يجارى، لأنه كتاب الله وكلامه، وما وقع فيه الآخرون من اتهام القرآن بذكر القبيح؛ إنما كان لعدم فهم هذه الألفاظ، فقد فاتهم أنها ألفاظ كناية تستخدمها العرب لتوري بها عن الصريح المستقبح، فلما غلب استعمالها على ما أطلقت عليه كناية؛ ظنها الجاهلون بلغة العرب من ألفاظ الفحش والقباحة ومما لا يليق.

## الطعن السابع والعشرون

### المرأة في القرآن

قالوا: القرآن يمتن المرأة، ويحط من منزلتها بالعديد من تشريعاته التي قدمت الرجل على المرأة، فالقرآن جعل القوامة في الأسرة للرجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء:

(34)، وأصر على تقديم الرجل عليها بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَىٰهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: 228).

والجواب: إن المتقوه بمثل هذا جاهل بالتكريم الذي خص الله به النساء في شريعته وسنة نبيه.

ولعل من المناسب قبل الخوض في تفاصيله أن نلقي نظرة على وضع المرأة عند الأديان التي سبقت الإسلام، ففي سفر الجامعة، وهو من الأسفار المقدسة عند اليهود والنصارى نقراً: "فوجدت أمراً من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويدها قيود، الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطئ فيؤخذ بها... رجلاً واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد" (الجامعة: 7/26).

وفي سفر اللاويين حديث مسهب في غاية القسوة على المرأة حال حيضتها؛ حتى أن مجرد مسها ينجس الماس إلى المساء، كما ينجس كل من مس فراشها أو شيئاً من متاعها (انظر اللاويين I5).

وأما سفر الخروج فيجيز للأب بيع ابنته "وإذا باع رجل ابنته أمةً لا تخرج كما يخرج العبيد" (الخروج 21/7)، وطبق هذا الحكم بوعز في عهد القضاة؛ حين اشترى جميع أملاك أليمالك ومحلون، ومن ضمن ما اشتراه راعوث المؤابية امرأة محلون (انظر راعوث 4).

وفي المسيحية كانت المرأة على موعد مع إساءة أكبر، فقد حمل بولس المرأة خطيئة آدم، ولأجل ذلك يأمرها فيقول: "تتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم، ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن المرأة أغويت، فحصلت في التعدي" (تيموثاوس I) (I4-2/II)، فسبب هذه الإهانة وقوعها (حواء) في إغواء الشيطان.

وفي سفر حكمة يشوع بن سيراخ يؤكد على دور المرأة في خروج الجنس البشري من الجنة: "من المرأة نشأت الخطيئة، وبسببها نموت أجمعون" (ابن سيراخ 25/24).

وقد ترك هذا الاتهام للمرأة أثراً بالغاً في الحياة المسيحية، عبّر عنه الأب ترتليان في القرن الميلادي الثالث بقوله عن المرأة: "إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة لصورة الله (الرجل)".

ويقول أيضاً مخاطباً النساء بعد حديثه عن دور حواء في الخطيئة الأولى: "أستق تعلمن أن كل واحدة منكن هي حواء؟! . . . أنتن المدخل الذي يلججه الشيطان. لقد دمرتن الرجل صورة الله".

ويقول الأب سوستام عن المرأة: "إنها شر لا بد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مطلية ممهية".

وفي الغرب عقدت مؤتمرات غريبة لبحث أمر هذا الكائن (المرأة)، فعقد مؤتمر في مدينة ماكون الفرنسية 586م للنظر هل للمرأة روح أم لا؟ وقرر المؤتمر أن المرأة إنسان، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل، وأنها خلقت عن الروح الناجية، واستمرت هذه النظرة السلبية إلى المرأة حتى عهد قريب.

لكن أبشع ما تعرضت له المرأة من الاضطهاد حدث في ظل سيطرة الكنيسة على أوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر؛ حيث انعكست الصورة السوداوية التي تنظر بها الكنيسة إلى المرأة بظهور فكرة اجتاحت أوروبا، وهي وجود نساء متشيطنات، أي تلبسهن روح شيطانية، فهن يعادين الله، ويعادين المجتمع، تقول كارن ارمستريج في كتابها "إنجيل المرأة": "لقد كان تعقب المتشيطنات بدعة

مسيحية، وكان ينظر إليها على أنها واحدة من أخطر أنواع الهرطقات... ومن الصعب الآن معرفة عدد النساء اللاتي قتلن خلال الجنون الذي استمر مائتي عام، وإن كان بعض العلماء يؤكد أنه مات في موجات تعقب المشيطانات بقدر ما مات في جميع الحروب الأوربية حتى عام 1914م... يبدو أن الأعداد كانت كبيرة بدرجة مفرعة".

أما إذا عدنا إلى حال المرأة عند عرب الجاهلية؛ فإننا سنجد أن حالها لم يكن أفضل بكثير مما عند الأمم الأخرى، فقد انتشر في بعض قبائلهم وأد البنات ومنعهن من الميراث، ويصور لنا عمر بن الخطاب - بكلمات جامعة - حال المرأة عند العرب قبل الإسلام، فيقول: (والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً؛ حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم).

لقد قرر الإسلام تساوي الذكر بالأنثى في إنسانيتهما وكافة الأمور العبادية، ولم يميز بينهما في شيء إلا حال التعارض مع الطبيعة التكوينية والنفسية والوظيفية للذكر أو الأنثى.

فأما تساويهما في الإنسانية، فقد قرره النبي ﷺ بقوله: «إنما النساء شقائق الرجال»، كيف لا يتساويان وهما معاً أصل الجنس البشري ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ (الحجرات: 13)، ويشملهما جميعاً تكريم الله للجنس البشري ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: 70).

ويقرر القرآن أهلية المرأة للإيمان والتكليف والعبادة، ومن ثم المحاسبة والجزاء ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 97)، فهي

كالرجل سواء بسواء، وهذا التساوي يسري في المسؤولية الشرعية ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: 195)، حيث إن الله يساوي بين الرجال والنساء في ثواب وعقاب أفعال الإنسان، بلا تمييز لجنس أو لون ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: 35) .

وياً الإسلام من تفضيل الذكر على الأنثى، ويعد النبي ﷺ بالجنة من أكرمها ولم يفضل الذكور عليها: «من كانت له أنثى فلم يدها ولم يهتها ولم يؤثر ولده عليها؛ أدخله الله الجنة» .

وما زال ﷺ يوصي بحق المرأة ويحذر الرجل من الاغترار بقوته وظلمها، فيشهد الله على تأكيده على حقها: «اللهم إني أخرج (أي أشدد) حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»، فمثل هذا يتناقض مع القول بظلم الإسلام للمرأة .

ولسوف نعرض تفصيلاً لأهم ما يثار حول المرأة في الإسلام وما زعمه المبطلون من انتقاص الإسلام كرامتها وأنه ظلمها .

### أولاً: القوامة وظلم الزوجة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين جعل القوامة في المجتمع للرجل دون المرأة: ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء: 34) .

والجواب: إن نظرة سريعة إلى المنهج الإسلامي في التعامل مع المرأة ستكشف عن القدر العظيم للمرأة في الإسلام، فما زال النبي ﷺ يوصي بحسن عشرة النساء، ففي حجة الوداع وأمام جموع الصحابة وقف النبي ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم [أي مثل الأسيرات عندكم] . . ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهنّ عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» ([464]).

وأمر النبي ﷺ بحسن العشرة للنساء والصبر على ما يصدر منهن من أذى اللسان، فإن المرأة بحسب جِبَلَتِهَا تأخذ حقها بلسانها، فقد قال ﷺ: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

ولما كانت الأسرة كسائر المؤسسات المجتمعية والاقتصادية تحتاج إلى قائد يقودها؛ فإن القرآن جعل القوامة في الأسرة للرجل دون المرأة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: 34)، فالآية تحدد صاحب المسؤولية الأولى في الأسرة، وهو الرجل، إذ أي مجتمع إنساني - صغر أم كبر - لا يخلو من قيم مسؤول يقود من تحت ولايته بما يمتاز به عن الآخرين، ككبر سنه أو امتلاكه حصة أكبر في الأسهم أو خبرة وأقدمية في العمل، لكن - على كل حال - لا بد من وجود مدير أو مسؤول أول أو قائد لهذه المؤسسة.

وفي حالتنا هذه نحن أمام أحد خيارين: إما أن تكون المسؤولية الأولى للمرأة، أو أن تكون للرجل.

إن نظرة بسيطة تتفحص عالمنا - الذي ما قئى ينادي ويصرخ بالمساواة العمياء بين الرجل والمرأة -  
لتكشف لنا عن حقيقة تميز الرجل عنها في مختلف بلدان الداعين إلى المساواة، لذلك أسأل القارئ  
الكريم: كم نسبة الوزيرات إلى الوزراء في دول العالم الذي ينادي بالمساواة بين الجنسين؟ وكم نسبة الملوك  
والرؤساء من النساء في تلك البلاد؟ وكم نسبة نساء الدولة والبرلمان وقادة الأحزاب إلى الرجال في هذه  
الدول؟!

لا ريب أننا جميعاً متفقون على تقدم الرجل - في كل هذا - على المرأة وبفارق كبير، فكيف وقع هذا  
عند من يدعون المساواة؟.

إن الدول الإسكندنافية حققت أعلى الأرقام العالمية في تولية المرأة مناصب قيادية، لكنها لم تتجاوز نسبة  
30%، لماذا؟

القرآن يجيبنا: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾  
(النساء: 34)، نعم لقد خلق الله الرجال لغاية، وأعطاهم من الملكات والإمكانات ما يعينهم عليها، ومن  
ذلك مسؤولية القيادة في الأسرة والمجتمع، لأنه مسؤول عن رعاية البيت ونفقه، فالزوجة ذرة مصانة،  
ليس واجباً عليها ولا مطلوباً منها أن تكدر وتشتقى بالعمل لتضمن مكاناً لها في بيت الزوجية، فهذا ليس  
من واجباتها، ولا هو متناسب مع أنوثتها وطبيعتها الحانية العاطفية التي فطرها الله عليها لتناسب مهمتها  
السامية في إدارة بيتها وتربية أبنائها وإعطائهم حقهم من الحنو والرعاية «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن



رعيتة . . والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيتته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها» .

والمرأة مكفولة النفقة، أمّا كانت أو زوجة، أختاً كانت أو ابنة «يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك» [467]، فواجب الرجل الإنفاق على الأسرة عموماً ، وعلى الزوجة خصوصاً ، ولو كانت ذات مال ووظيفة، فقد أمر النبي ﷺ بذلك: «ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

والعلاقة الزوجية جملة متبادلة من الحقوق والواجبات، وهي قائمة على مبدأ الأخذ والعطاء ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة: 228) ، وهذه الدرجة (القوامة) ليست لتعود جنس النساء عن جنس الرجال، بل تفضيل متناسب مع ما أودعه الله في الرجل من استعدادات فطرية تلائم مهمته وتناسب مع إنفاقه على الأسرة .

وقوامة الرجل على المرأة والأسرة لا تعني تفرده بالقرار، فما هو ﷺ أكمل الرجال وسيدهم يستشير أم سلمة في مسألة تتعلق بالأمة، لا بالأسرة فحسب، فقد أمر أصحابه يوم الحديبية أن يحلقوا رؤوسهم ويحلوا من عمرتهم؛ ليعودوا إلى المدينة المنورة، فكرهوا ذلك ولم يبق منهم أحد، فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: (يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بؤنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بؤنه،

ودعا حالته فحلّقه، فلما رأوا ذلك قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يخلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً).

### ثانياً: الأمر بضرب الزوجة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين أجاز لزوجها أن يضربها: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ (النساء: 34).

والجواب: سبق لنا التعرف على منهج القرآن في التعامل مع المرأة، ورأينا ما فيه من التكريم والإجلال الذي عزّ أن نجد مثيله في كتب الآخرين، فهذا هو الأصل في معاملة المرأة، والنبي ﷺ كان نموذجاً لهذا الأصل «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» ([470])، وصفته أم المؤمنين عائشة: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل) ([471]).

وهكذا، فالأصل تكريم المرأة، لكن للقاعدة شواذ، فالإنسان مكرم، لكن اللص والجرم يهان، والأصل - في الإنسان - حفظ حياته، أما القاتل فيقتل، والأصل في المرأة تكريمها، لكن الناشز المستخفة برباط الزوجية تُضرب وتؤدب إذا لم تنفع معها وسائل الإصلاح، ولو قتلت تُقتل.

وقد أذن القرآن الكريم للزوج بتأديب زوجته، بل أوجب عليه ذلك، فلو كانت زوجة الواحد منا لا تصلي مثلاً أو امرأة ناشزاً؛ فإن الزوج يندب إلى وعظها، ثم هجرها إن أصرت على النشوز وتدبير الحياة الأسرية، فإن لم ترعوي فإن الله أذن له بضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح.

وهذا التأديب - كما سبق - ليس أصلاً في معاملة المرأة، بل هو خاص بالزوجة الناشز سيئة الخلق والدين، وهو نوع من الرحمة بها والوقاية لها من حساب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَاتِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُسُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنِ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴾ (النساء: 34)، فالضرب آخر وسائل الإصلاح، ويكون بعد الوعظ والهجر واستفراغ الجهد في التقويم والإصلاح.

وحين تحدث عن الضرب تدور في مخيلة البعض النماذج السيئة التي يئن العالم في شرقه وغربه منها ، فقد أصبح العنف مع النساء والقسوة معهن مرضاً عالمياً مزرياً بالإنسان اليوم، وهو بالطبع مما يحرمه القرآن الذي لا يأذن بالضرب المبرح، فالجائز في ضرب الناشز؛ الضرب غير المبرح، وقد مثلوا لها بضربها بالسواك، وهو عود صغير لو ضرب به طفل لما تأذى، وقد قال النبي ﷺ منبهاً على قدر الضرب المسموح به: «فانتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

أما الضرب المبرح الذي يترك أثراً على الجسد فهو حرام، وبخاصة إذا كان على الوجه، فقد لعن النبي ﷺ من ضرب الحيوان على وجهه، فما بالنساء بالزوجة: «أما بلغكم أنني قد لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها» .

لقد أوجب القرآن العشرة بالمعروف حال الحب والكراهية ﴿عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 19)، فإن وقع طلاق ثم انتهت عدتها؛

فإما أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بإحسان ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾  
(البقرة: 229) .

وهذه العشرة بالمعروف للزوجة تصبح ميزاناً للخيرية عند الله يستبق فيه المسلمون إلى محبة الله ورضاه،  
فقد قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وفي رواية: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم  
خلقاً وألطفهم بأهله» .

### ثالثاً: تعدد الزوجات

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين أباح للرجل أن يتزوج عليها، وفي هذا إضرار بمصلحتها .

والجواب: قبل التعرف على حكم الإسلام في المسألة تقرر أن الإسلام لم يكن أول من شرع هذه الشرعة  
التي شرعتها الأمم والملل قبل الإسلام، فقد عرفت الأمم جميعاً التعدد، لكنها ترددت بين نوعيه: تعدد  
الزوجات وتعدد الخليلات، فقد أجاز الإسلام الأول منهما، وحرّم الثاني لما فيه من إضرار بالمرأة وظلم  
فادح لها ، فهو يجردها من جميع الحقوق الزوجية، فالعشيق لا يلتزم للخليلة بما يلتزم به الزوج لزوجاته من  
نفقة وسكن ورعاية للزوجات ولأبنائهن من غير تفريق بينهم .

والرسالات السماوية قبل الإسلام أباحت تعدد الزوجات، ويكفي في إثبات ذلك أن نذكر أن العهد القديم  
الذي يؤمن به اليهود والنصارى يقر بأن إبراهيم كان متزوجاً من ثلاث زوجات (سارة وهاجر وقطورة)،  
وأما يعقوب فكان متزوجاً من الأختين (ليئة وراحيل)، والأمتين (زلفة وبلهة)، (انظر التكوين 29)، ويذكر  
الكتاب المقدس أن داود كان له سبع زوجات، وأن ابنه سليمان النبي: "كانت له سبع مائة من النساء

السيدات، وثلاث مائة من السراري" (سفر الملوك (I) 3/II)، فالتعدد مشروع في شرائع التوراة ومن غير ضوابط ولا شروط.

وأما المسيحية فهي تحرم تعدد الزوجات رغم أنه لم يرد عن المسيح ما يبطل هذه الشريعة التوراتية، فالمسيح يقول: "ما جئت لنقض الناموس أو الأنبياء، بل لأكمل" (متى 5/17).

بل إن العهد الجديد يشير إلى مشروعية التعدد، حيث يقول بولس في (تيموثاوس (I) 3/12): "فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة . . . ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة"، ويفهم منه منع تعدد الزوجات للشماس، وجوازه لغيره.

وقد بقيت قضية تعدد الزوجات صحيحة تنادي بها فرق مسيحية شتى مثل اللامعديانيين "الأناثا بابتيست" في ألمانيا في أواسط القرن السادس عشر للميلاد، وكان القس فونستير (1531م) يقول: من يريد أن يكون مسيحياً حقيقياً فعليه أن يتزوج عدة زوجات.

ومثله نادت فرقة المورمون في مطلع القرن التاسع عشر، ولم يتخلوا عنه إلا بضغط السلطات المدنية في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد بلغت الدعوة إلى إباحة تعدد الزوجات مبلغاً عظيماً عند مفكري الغرب وعلمائهم؛ وبخاصة بعد أن عانت أوروبا من نقص شديد في عدد الرجال نتيجة للحربين العالميتين التي قتل فيهما أكثر من 48 مليون رجل، وكذلك لانتشار الفواحش والزنا وزيادة عدد اللقطاء.

ولو عدنا للحديث عن عرب الجاهلية لرأينا أن التعدد شائع عندهم من غير ضوابط، فكان لبعضهم عشر زوجات، فقد أسلم غيلان بن سلمة الثقفي، وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً» ([48I])، وأما عميرة الأسدي فيقول: أسلمت وعندني ثماني نسوة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً».

وهكذا فالتعدد موجود قبل الإسلام، ومن غير ضوابط، وذلك لواقعية هذه الشرعة، وحاجة بعض الأزواج إلى الزواج بغير زوجته لمرضها أو لعدم قدرتها على الإنجاب أو توقفها، أو لغير ذلك من الأسباب، ولولا تعدد الزوجات لما تزوجت الكثير من العوانس والمطلقات وذوات الأمراض. لقد كان الإسلام واقعياً حين أقر شريعة التعدد، فتزوج الزوج بأخرى أولى من طلاق الأولى، وأولى من العلاقة المحرمة، فالتعدد المشروع يغلق الباب أمام تعدد العشيقات غير المشروع الذي يجتاح المجتمعات الإنسانية التي ترفض التعدد.

جاء في إحصائية عن الخيانة الزوجية منشورة في مايو 1980م أن 75% من الأزواج في أوروبا يخونون زوجاتهم، وأفادت إحصائية أخرى أن مليون امرأة تقريباً عملن في البغاء بأمريكا خلال الفترة من (1980م إلى 1990م)، والإحصائيات الأحدث أسوأ وأفظع، فما هو السبب في كل هذا البلاء؟.

ولنسمع إلى المصلح الشهير مارتن لوثر مؤسس فرقة البرتستانات وهو يجيب: "إن نبضة الجنس قوية لدرجة أنه لا يقدر على العفة إلا القليل . . من أجل ذلك الرجل المتزوج أكثر عفة من الراهب . . . بل إن الزواج بمرأتين قد يسمح به أيضاً، كعلاج لاقتراف الإثم، كبديل عن الاتصال الجنسي غير المشروع".

إن البشرية لا غناء لها عن تعدد الزوجات إذا شاءت أن تحيا حياة العفة والطهر، وهذا ما ستقودنا إليه دراسة بسيطة للإحصاءات العالمية التي تشير إلى زيادة مطردة لنسبة النساء، فإذا كان عدد الإناث في الولايات المتحدة الأمريكية يزيد على عدد الذكور بأربعة ملايين امرأة، فإن المجتمع الأمريكي محير بين القبول بأربعة ملايين بغي أو بأربعة ملايين أسرة شرعية تتعدد فيها الزوجات.

وهكذا فإن إباحة القرآن لتعدد الزوجات صورة من حكمة الله الحكيم، إذ واقع الأرض لا يصلح إلا بمثل هذا التشريع، فعدد نساء البشر اليوم يربو على رجالها بأربعمائة مليون امرأة، مما يجعل تعدد الزوجات ضرورة ملحة لكل مجتمع يخشى الفساد ويحذر الانحلال، لذلك تقول الكاتبة الإيطالية "لورافيشيا فاغليري": "إنه لم يُقَمِّ الدليل حتى الآن بأي طريقة مُطلَقة على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التّقدم . . . وفي استطاعتنا أيضا أن نُصرّ على أنه في بعض مراحل التّطور الاجتماعي عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يُقتل عدد من الذكور ضخم إلى حدّ استثنائي في الحرب مثلاً؛ يُصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية".

لكن واقعية الإسلام في إباحة التعدد لم تخلُ بمثلته في التشريع، فقد حدده بأربع زوجات فقط؛ حتى يقدر الرجل على الوفاء بحقوقهن، كما سيّج الإسلام هذه الشرعة وزانها بجملة من الآداب والضوابط، التي تلزم المنصف ببراءة القرآن من مسؤولية الممارسات الخاطئة التي يقع بها بعض المعددين الذين لم يتأدبوا بآدابه، ولم يفقهوا أن تعدد الزوجات ليس شهوة عابرة، بل هو مزيد من المسؤوليات التي يجب على الزوج القيام بها والوفاء بكل متطلباتها المالية والاجتماعية والإنسانية.

ومن آداب الإسلام في هذا الخصوص أنه كتب على الزوج العدل بين نسائه أو الامتناع عن التعدد: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء: 3) ، والعدل يشمل السكن والنفقة وغيرها من مستحقات الزوجية .

وحذر النبي ﷺ من صورة كثيراً ما نراها عند المعددين، وهي الميل إلى إحدى الزوجتين ، فهذا النوع من الظلم توعد الله فاعله بعقوبة خاصة يوم القيامة: «من كان له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط» .

ولو عدنا إلى قول القائلين أن تعدد الزوجات فيه ظلم للزوجة الأولى وإهانة لكرامتها، فجوابه: فإن التعدد فيه مصلحة للزوجة الأخرى وإكرام لها، فكيف تفوت هذه المصلحة؟

ثم إن الزوجة الثانية ستغدو شريكة الأولى بمباركة أسرتها من الرجال والنساء الذين رأوا أن تزوجها من متزوج بغيرها خير لها من أن تكون بلا زوج، وهو صيانة لها ، ويؤهلها لتكون زوجة فاضلة بدلاً من أن تكون خلية أو عشيقة بلا حقوق ولا كرامة، ثم لا تلبث أن تصير إلى الشارع .

ولذلك يرى الكاتب الإيرلندي "برناردشو" أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج لمشاكل الغرب ، فيقول:

"إن أوروبا لو أخذت بهذا النظام لوفرت على شعوبها كثيراً من أسباب الانحلال والسقوط الخلقي والتفكك العائلي" .



ويقول المستشرق الشهير "هك فارلين" : "إذا نظرنا إلى تعدد الزوجات في الإسلام من الناحية الاجتماعية أو الأخلاقية أو المذهبية، فهو لا يعد مخالفاً -مجال من الأحوال - لأرقى أسلوب من أساليب الحضارة والمدنية، بل هو علاج عملي لمشاكل النساء البائسات والبغاء، واتخاذ المحظيات، ونمو عدد العوانس المطرد في المدينة الغربية بأوروبا وأمريكا".

#### رابعاً: حقوق المرأة والميراث

قالوا: القرآن يغبن المرأة حين يجعل لها من الميراث نصف ما للرجل، وفي ذلك انتقاص من أهلية المرأة، ومعاملتها على أنها نصف إنسان! . . .

والجواب: سبق بيان صور التساوي بين الجنسين في الإنسانية، ورأينا تساويهما في المنزلة عند الله وجزائه وعقابه، واستقر لدينا أن التفاضل بينهما إنما هو لدواعٍ مادية مجتة، فالأصل في المسألة قوله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال» .

وقبل أن نقف على سبب اختلاف الذكور عن الإناث في الموارث أود تذكير الطاعنين على القرآن بأن كتبهم المقدسة تحرم المرأة من الميراث كلية حال وجود أشقاء لها "فكلم الرب موسى قائلاً . . . أيما رجل مات وليس له ابن؛ تنقلون ملكه إلى ابنته" (العدد 27/8)، ويفهم من السياق التوراتي - الذي يؤمن به اليهود والنصارى - أن وجود الابن يمنع توريث الابنة (وانظر يشوع 17/I-3).

وحيث جاء الإسلام كان عرب الجاهلية يحرمون المرأة من الميراث، يقول عمر: (والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً؛ حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم)، فالغى الإسلام شرعة الجاهلية، وأحل بدلاً عنه نظام الإرث الإسلامي المبني وفق قواعد ثلاثة:

أولاً: مراعاة درجة القرابة بين الميت والوارث، فكلما اقتربت الصلة بالميت زاد النصيب في الميراث، وكلما ضعفت الصلة قل النصيب في الميراث، ودونما اعتبار لجنس الوارثين، فابنة المتوفى تأخذ أكثر من والد المتوفى أو جده أو أخيه، وهي تنال نصف التركة لو ورثت مع الأب والأم.

ثانياً: مراعاة موقع الجيل الوارث من التابع الزمني للأجيال، فالأجيال الناشئة تقدم على الأجيال الكبيرة، لأنها تستقبل الأعباء والنفقات من دراسة وزواج وإنفاق على الأبناء، بعكس الكبار الذين غالباً ما تخف نفقاتهم، ومرة أخرى لا أثر للذكورة والأنوثة، فبنت المتوفى ترث (النصف) أي أكثر من أم المتوفى وأبيه، وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن.

ثالثاً: مراعاة العبء المالي الذي سيتحمله الوارث، وفق قاعدة الغنم بالغرم، فكلما كانت الأعباء عليه أكثر فإنه يرث أكثر، وبسبب هذا يتفاوت الذكر والأنثى، لأن الأعباء المالية على الذكر أكثر، فالذكر مكلف بإعالة الأنثى؛ زوجة كانت أم أختاً أم بنتاً، فهي ترث من أبيها، ويرعاها أخوها وزوجها وابنتها. ولو شئنا أن نضرب مثلاً بأخت وورثا عن أبيهما، فلو ورث الذكر عن أبيه 100 ألف والأنثى 50 ألفاً، فالأخ مطلوب منه أن ينفق على عائلته كساء وغذاء وسكناً، بينما أخته مكفولة النفقة في بيت زوجها، وإذا كان الأخ يدفع مهراً، فإن الأخت تأخذ مهراً، علاوة على النفقات الأخرى التي يختص بها

الرجال دون النساء، كتحمل دفع دية قتل الخطأ مع العصبية والأقارب، فهذا وأمثاله واجب على الأخ دون أخته الوارثة لنصف ما ورث.

وهكذا، حين جعل الله للذكر مثل حظ أنثيين من الميراث لم يقض بذلك لهوان النساء أو ظلمهن، بل قسم المال ووزعه تقسيماً مادياً مجتاً يتناسب والمسؤوليات المنوطة بكل منهما في المجتمع والأسرة.

ثم إن الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل لا تعدو ثلاث حالات :

أ) أولاد المتوفى ، فالذكور يرثون ضعف الإناث، لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: II) .

ب) التوارث بين الزوجين ، حيث يرث الزوج من زوجته ضعف ما ترثه هي منه، لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: I2) .

ج) يأخذ أبو المتوفى ضعف زوجته (أم المتوفى) إذا لم يكن لابنهما وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث .

وفي مقابل هذه الحالات الثلاث فإن الأنثى ترث مثل الذكر في حالات، كما في مسألة الكلالة ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ (النساء: I2) .

كما قد قضى عمر بالتساوي بين الأخوة لأم ذكوراً وإناثاً، قال الزهري: "ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ، وهذه الآية التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ (النساء: 12)".

ومرة أخرى ساوى القرآن بين الوالدين في إرثهما من ولدهما؛ إذا كان له ولد ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء: 12).

وهناك أحوال كثيرة ترث الأنثى فيها أكثر من الرجل، فتقدم الابنة مثلاً على الأب والأخ والعم والخال، بل قد ترث هي، ولا يرثون.

وهكذا فالتفاوت في قسم الميراث بين الذكور والإناث ليس مطرداً، وهو متعلق بمنظومة الإسلام الاجتماعية ومقتضياتها في توزيع المسؤوليات والنفقات، ووفق هذه الالتزامات يتوزع الإرث بين الذكور والإناث.

ونحنم الرد على هذه الأبطولة بشهادة المستشرق غوستاف لوبون، حيث يقول: "والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضها، خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية".

ويقول: "وتعد مبادئ الميراث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف. . . ويظهر من مقابليتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقاً في الميراث لا نجد مثلها في قوانيننا".

## خامساً: شهادة المرأة

قالوا: جعل القرآن شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل في قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (البقرة: 282)، فزعموا أن في ذلك انتقاصاً للمرأة، واستهانة بها .

والجواب: الأمر الوارد في الآية ليس موجهاً إلى القاضي والحاكم، كما يظن الكثيرون، إنما هو لصاحب المال الذي يداين آخر، فأمره الله بكتابة الدين لحفظه؛ فإن عجز عن ذلك، فليستشهد عليه شهيدان من الرجال، أو رجلاً وامرأتين، حتى لا يضيع حقه بنسيان المرأة الواحدة لمثل هذا الأمر، الذي لا تضبطه النساء عادة.

وقد عللت الآية السبب الذي لأجله طلب الله من صاحب الدين الاستيثاق لماله بشهادة امرأتين أو رجل واحد ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (البقرة: 282)، أي خوف نسيانها فحسب، لأن المسائل المالية مما لا تضبطه النساء ولا تعنى به عادة. وضلالها وخطؤها ينشأ من أسباب مادية مجتة، لعل أهمها قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد، مما قد يجعلها غير حافظة لكل دقائقه وملابساته. لكن هذا لا يعني أن شهادة المرأة في المحاكم والقضاء بنصف شهادة الرجل، فالقاضي يقضي بما يتيسر له من الأدلة، عملاً بقوله ﷺ: «البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه»، وقد يقضي القاضي بشهادة رجل واحد أو بشهادة امرأة واحدة، أو بأقل من ذلك، كما يوضحه ابن القيم بقوله: "إن البينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة

شاهدين، وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نكولاً [امتناعاً عن اليمين] . . فقله ﷺ: «البينة على

المدعي» ، أي عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حكم له".

ويقول وهو يرد هذه الشبهة: "فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين،

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه

أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدرُوا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها . . وهو سبحانه لم يذكر ما

يحكم به الحاكم، وإنما أرشدنا إلى ما يُحفظ به الحق، وطرق الحكم أوسع من الطرق التي تُحفظ بها

الحقوق".

ويقول مبيناً علة التمييز بين شهادة الرجل والمرأة: " والمرأة العدل كالرجل في الصدق والأمانة والديانة إلا

أنها لما خيف عليها السهو والنسيان قويت بمثلها، وذلك قد يجعلها أقوى من الرجل الواحد أو مثله، ولا

ريب أن الظن المستفاد من شهادة مثل أم الدرداء وأم عطية أقوى من الظن المستفاد من رجل واحد

دونهما ودون أمثالهما".

ومما يشهد لصحة هذا الفهم أن مجمل الشهادات تتساوى فيها شهادة الذكر والأنثى ، ففي شهادات

اللعان بين الأزواج تتساوى شهادة الرجل وزوجته، فشهادتها الأربع في اللعان تعدل شهادات زوجها

الأربع، وذلك مقرر في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

وَيَذُرُّا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ

كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩-٦﴾ (النور: 6-9) .

ولن يفوتنا التنبيه إلى أمر مهم، وهو تساوي شهادة المرأة بالرجل في أهم الشهادات التي لا مدخل فيها للعاطفة الغالبة على المرأة أو قلة الخبرة، أي حين يكون الاعتماد على مجرد الذكاء والحفظ، وذلك في الأمور الدينية، فتقبل رواية المرأة للحديث كالرجل تماماً، ومثله في سائر العلوم.

وقد جعل الشارع شهادة المرأة معتبرة في بعض المسائل التي قد لا يقبل فيها شهادة الرجال، كالأمور النسائية التي لا يطالع عليها الرجال عادة، كإثبات الولادة وحیضة المطلقة وطهرها في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّنَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ﴾ (البقرة: 228).

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قبل شهادة امرأة واحدة في الرضاع، ففي حديث عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمة سوداء، فقالت: قد أرضعتكما. فذكر ذلك للنبي ﷺ، ففرق بينهما.

إن التشريع القرآني الذي جعل شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل في مسائل الدين وأمثالها لم يصنعه إجحافاً بحقها أو استهانة بمقامها وإنسانيتها، وإنما هو مراعاة لقدراتها ومواهبها، وإلا فإن أهليتها كأهلية الرجل تماماً في كثير من المعاملات كالبيع والشفعة والإجارة والوكالة والشركة والوقف والعتق...

### سادساً: طلاق المرأة

قالوا: القرآن ظلم المرأة حين أذن بالطلاق بين الزوجين، والمفروض أن تكون الحياة الزوجية على التأييد، وقالوا بأنه ظلم المرأة حين جعل الطلاق بيد الرجل، دون المرأة.

والجواب: أن الطلاق شرعة موجودة عند كل الأمم بلا استثناء، وما من أمة ولا شرعة إلا وأباحت الطلاق ولجأت إليه كحل لا مفر منه في إنهاء الخلافات المستعصية بين الأزواج، فالعهد القديم يبيح الطلاق، والعهد الجديد كذلك يبيح الطلاق بعلّة الزنا، وإن حرمه فيما عدا ذلك، لكن هذا التحريم أدى إلى مفسدة عظيمة، فكان سبباً في انتشار الزنا والعلاقات المحرمة بدون زواج، حيث يعيش الرجل مع المرأة سنين طويلة قبل أن يتزوجا، ولا يمنعهما عن الزواج إلا خشية وقوع الفراق، فلا يتزوجان إلا بعد أن ينجبا عدداً من الأبناء، ويتأكد من ديمومة زواجهما واستغنائهما عن الانفصال.

إن الطلاق ضرورة اجتماعية معروفة في الشرائع قبل الإسلام، وهي مقررة اليوم في كافة القوانين المدنية، فكيف يطالب المرء بإمساك زوجته لا يطيقها، وقد قيل: "إن من أعظم البليات مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك".

ويقرر الإسلام أن الأصل في الحياة الزوجية الديمومة التي تحرسها المودة والرحمة التي يجعلها الله بين الزوجين ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21)، فقد رغب القرآن في ديمومة النكاح، وحثّ الزوج في الإبقاء على العلاقة الزوجية حتى حال الكراهية بين الزوجين ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19).

كما أوصى النبي ﷺ الزوج بحسن تبعل المرأة، وجعل ذلك ميزاناً لخيريته بين المؤمنين: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» ([498])، وأوصاه بالمحافظة على رباط الزوجية وإن وجد في زوجته ما يكره، فليأنس بغيره مما يجب: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر».



وكره الإسلام الطلاق ففي المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق» ، ورغم ضعف إسناده فمعناه صحيح، وهو أمر لا يخفى على من تدبر الآية التي جعلت التفريق بين الزوجين بعض كيد السحرة والشياطين: ﴿فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرَّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: 102)، فلا يليق بالمسلم أن يوافق مراده مراد الشياطين بلا حاجة ماسة لذلك .

ولحماية الأسرة من الوصول إلى الفراق بالطلاق أوجب الإسلام حسن العشرة بين الزوجين حتى في حال الكراهية ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19)، وخير الزوج بعد طلقتين بين المعروف والإحسان ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: 229) .

وشرع القرآن للزوجين إصلاح ما يفسد بينهما من علاقة، وحثهما على وأد الشقاق والنفور بكل طريق يؤدي إلى الصلح ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: 128)، فإذا لم يستطع الزوجان أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ولم يحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة؛ فإن الله يأمرهما بعرض الأمر على مجلس عائلي يتكون من حكّامين، أحدهما من أهله، والآخر من أهلها، ليبحثا أسباب الشقاق، ويسعيا لإحلال الصفاء والوثام محل النفور والخصام: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء: 35) .

فإن استحالت الحياة بين الزوجين فإن الإسلام أذن للزوج بطلاق المرأة مرتين من غير أن يخرجها من بيتها قبل انتهاء عدتها، وأن يكون طلاقه لها في طهر لم يجامعها فيه ، فهذا الشرط يمنع الطلاق حال الحيض

وامتناع العشرة الزوجية، وهو شرط لا يتحقق في الحياة الزوجية إلا مع الثفرة الشديدة المانعة لديمومة الحياة الأسرية.

ويضع القرآن للمطلقة حقاً على زوجها، وهو المتعة ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَمِّينَ﴾ (البقرة: 241)، وهو مبلغ من المال يجبر فيه خاطرها ولم يحدد القرآن مقداره، بل قال: ﴿وَمَعْوَهْنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 263).

وقد وضع الإسلام - كما الشرائع السابقة - الطلاق بيد الرجل لحكم لا تخفى:

أولاً: عاطفية المرأة تؤدي إلى تسرعها في الأمور، بينما الرجل بعقليته الغالبة أقدر على تحمل مثل هذا القرار والتروي في اتخاذه.

ثانياً: الطلاق يحمل الزوج تبعات مالية كخسارة ما دفعه من مهر مقدم، وما يلزمه من مهر مؤجل ونفقة العدة وأجرة الرضاعة والحضانة إن كان له طفل أو أطفال من زوجته المطلقة، وهذا كله مما يحمل الزوج على التأني وعدم العجلة في تطليق زوجته، وربما تزول أسباب طلاقها في حالة تأنيه وعدم عجلته، إضافة إلى أن الخسائر المالية ستلحق به بسبب قراره، لا بسبب قرار يتخذه غيره.

ويحفظ الإسلام للمرأة حقوقها المالية حين الطلاق، فلا يميز للزوج أن يأخذ شيئاً مما أعطها إياه؛ ولو كان كثيراً ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: 20).

وإذا كان القرآن يعطي الزوج قرار الطلاق فإنه يجيز للمرأة أن تطلب من القاضي أن يطلقها من زوجها بعد أن تبدي الأسباب الموجبة لذلك ، كما يجيز فقهاء الإسلام لها أن تشتري في عقدها حقها في طلاق نفسها إن شاءت، فإذا رضي الزوج بهذا الشرط وانعقد العقد بهذا الشرط؛ صار لها حق تطليق نفسها؛ بإرادتها .

كما يعطيها القرآن فرصة معادلة للطلاق للتخلص من رباط الزوجية، وهي الخلع الذي ترد فيه بعضاً مما دفعه الزوج، وتحصل على طلاقها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (البقرة: 229)، فهذا يحفظ للزوج حقه المالي، ويحفظ لها حقها في فسخ النكاح الذي ترى أنها تتضرر به .

وفي كل ما سبق ما يبرئ ساحة شريعة القرآن من غبن النساء الذي ألحقه الزاعمون به، ويؤكد واقعية هذه الشريعة ومثاليته في آن واحد .

## الطعن الثامن والعشرون

### الرق والاسترقاق في القرآن الكريم

قالوا: شرع القرآن الرق واستعباد البشر للبشر، وأجاز هذه الشرعة رغم ما يكتنفها من ظلم للإنسان وامتهان له وحجر على حريته .

وفي الجواب يؤكد أن الرق قديم في المجتمعات الإنسانية، وتقره جميع الشرائع السابقة على الإسلام، ففي أسفار العهد القديم والجديد - التي يؤمن بقدسيته اليهود والنصارى - أوامر صريحة بتبيح الاسترقاق وتأمر به، ومن ذلك ما جاء في سفر اللاويين: " وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقنون عبيداً وإماء، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقنون، ومن

عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك، تستعبدونهم إلى الدهر" (اللاويين 44/25-46).

وطوال تاريخ الإنسانية - وحتى منتصف القرن الميلادي العشرين - امتلأ العالم بالعبيد، الذين كانوا يستعبدون لأنفهم الأسباب، كالعجز عن سداد دين أو خسارة مال في قمار.

وفي بعض المجتمعات كان عدد العبيد أكثر من عدد الأحرار، ففي حين كان عدد سكان أثينا 20 ألفاً من الأحرار؛ فإنه كان فيها 400 ألف رقيق، وحين قررت بريطانيا في العصر الحديث إلغاء الرق عام 1823م تم تحرير ما يربو على 800 ألف من رقيقها [502]، ولعل القارئ يكتفي بهاتين الصورتين ليدرك حجم الاسترقاق في التاريخ الإنساني قبل الإسلام وبعده.

إن الحديث عن الرقيق يذكر العالم دائماً بواقع مرير مليء بالاضطهاد والظلم، لكن الإسلام غير مسؤول عن هذا الواقع، لأنه بريء منه، فلم يقتل المسلمون العبيد في حلقات المصارعة الرومانية حتى يتسلى السادة بموتهم بين أنياب الوحوش، ولا منعوهم من دخول كنائس السادة البيض، فحال العبيد عند المسلمين كما سنرى تفصيله يختلف عن الواقع الإنساني القائم قبل وبعد الإسلام.

ونسوق قبل هذا التفصيل شهادة غوستاف لوبون: "إن الذي أراه صادقاً هو أن الرق عند العرب [أي المسلمين] خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا، وأنهم يكونون جزءاً من الأسرة" [503]، فهيهات بين من يعتبر العبد جزءاً من الأسرة وبين من يستمتع برؤيته بين أنياب الأسود.

إن الباحث في نصوص القرآن والسنة لن يجد فيهما نصاً واحداً يبحث على الاسترقاق أو يأمر به، بل على العكس من ذلك جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تأمر وتحث على إعتاق الرقاب، وتجعله من فاضل العبادات، وتقرنه بالإيمان بالله وصالح الأعمال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالتَّبِيعِينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالتَّسَائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (البقرة: 177)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (النساء: 36)، وقوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد: 13-11).

ومن رحمة الإسلام بالعبيد وحرصه على فكاهم أن القرآن جعل عتاق الرقيق مصرفاً من مصارف الزكاة المفروضة على المسلمين ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالتَّسَاكِينِ وَالتَّعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالتَّوَالِفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالتَّغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 60)، فقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أي في إعتاقهم.

كما حث النبي ﷺ على العتاق حين جعله سبباً في فكاك المعتق من النار: «من أعتق رقبة؛ أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار؛ حتى فرجه بفرجه».

ولحرص الإسلام على تجفيف منابع الرق جعل فكاك الرقاب وسيلة في التطهير والتكفير عن خطايا معينة، كقتل الخطأ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ ﴾ (النساء: 92)، والحنث في اليمين ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴿ المائدة: 89 ﴾،  
وظهار الزوجة ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ  
تَوْعظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: 3) .

والإسلام حين أبقى على الرق، فإنه جفف ينابيعه بمنع وسائل الاسترقاق المتعددة، وقصرها على وسيلة  
واحدة، وهي الأسر في الحرب، واعتبر ما سواها من الظلم المتوقع عليه بخصوصية النبي ﷺ يوم القيامة  
القائل: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كت خصمه خصمته يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر،  
ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً، فاستوفى منه ولم يوفه أجره» .

ومسألة جواز الاسترقاق بالحرب ليست أمراً لازماً بالضرورة؛ إذ لم يأمر بها القرآن الكريم، لكنها حالة  
أذن الإسلام فيها للإمام أن يسترق أو يعفو أو يأخذ الفداء، وهذا الخيار يتيح للإمام المسلم أن يواجه  
معاملة الأمم الأخرى لأسرى المسلمين بمثله، فالأمم التي تسترق المسلمين في حروبها يسترق المسلمون  
أسراها .

لقد أبقى الإسلام على الرق؛ لأن إلغاءه المفاجئ إضراراً بالسيادة والعبيد على السواء، فأما العبيد  
فسيخسرون موارد رزقهم وكفالة مواليتهم لهم، وهذا يذكرنا بثورة العبيد على الرئيس الأمريكي إبراهيم  
لنكون حين أصدر أمره بتحرير العبيد، فثاروا عليه لما فقدوا الرعاية والغذاء والسكن، فالاجتماع لم يكن  
مؤهلاً لمثل هذا التغيير الاجتماعي الكبير.

وأما السادة فتحرير العبيد يفقدتهم أموالهم، إذ العبيد - يومذاك - مال قد لا يملك السيد غيره، كما في حديث عمران بن حصين عن الرجل الذي (أعتق ستة أعبد عند موته؛ ولم يكن له مال غيرهم)؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فلام فعله [507]؛ لما فيه من إضرار بورثته.

وقد تنبأ الإسلام بنهاية الرق حين جعل لعنق الرقيق بدلاً في العقوبات التي شرع فيها العتاق، كما في قوله: ﴿فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُّتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 92)، ومثله في قوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ (المائدة: 89)، فقد تنبأ القرآن بنهاية الاسترقاق والرقيق بفضل شرائعه التي لا نجد لها مثيلاً عند الأمم الأخرى.

ومن هذه الشرائع أن الأمة إذا ولدت لسيدها عتقت بعده، وأن أولادها منه أحرار كأبيهم، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن خلفاء بني العباس كانوا جميعاً من أبناء الإمام إلا أبا العباس السفاح والمهدي والأمين .

يقول غوستاف لوبون: "لا يكاد المسلمون ينظرون إلى الرق بعين الاحتقار، فأمهات سلاطين آل عثمان - وهم زعماء الإسلام المحترمون - من الإمام، ولا يرون في ذلك ما يحبط من قدرهم" [509].

وحين أبقى الإسلام الرق فإنه ضمن للرقيق ما لا تجده في حضارة أخرى أو دين آخر، ومن ذلك أن أمر السيد بمساواة رقيقه بنفسه في مطعمه ومشربه، وأن يؤمن له حاجاته الضرورية، فامتلاكه للرقيق مسؤولية وغرم قبل أن يكون غنماً، وإذا شئنا أن ندلل على هذه المسألة فلنقف على بعض مظاهر هذه المأثرة الحضارية الفريدة عند المسلمين.

إن عظمة النبي ﷺ في معاملة رقيقه زيد بن ثابت جعلت زيدا يختار البقاء على العبودية عند النبي ﷺ على المضي حراً مع والديه؛ فكافأه النبي ﷺ بتبنيه، فكان يسمى زيد بن محمد إلى أن ألغى القرآن الكريم التبني، فصار ينسب لأبيه حارثة.

ونعود للقول: إن الإسلام صان الرقيق عن كثير مما يتلبس الرق - عند الأمم الأخرى - من الظلم والمهانة، فالعبد إنسان له من الحقوق على سيده ما يسأل عنه الله يوم القيامة.

فالعبد لا يجوز قتله ولا تعذيبه «من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه، ومن أخصاه أخصيناه» [513]، كما لا يجوز اتهامه والطعن في حقوقه الذاتية كسائر الأحرار «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال».

وضرب الرقيق - ولو لطمه واحدة - كاف لضمان عتاقه من سيده عند من يخاف الله ويرجو ثوابه، فقد أعتق ابن عمر مملوكاً له، ثم أخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال: ما فيه [أي إعتاقي للعبد] من الأجر ما يسوى هذا [أي العود] إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ: «يقول من لطم مملوكه أو ضربه؛ فكفارته أن يعتقه».

وهذا المعنى النبيل أكده النبي ﷺ في قصة أبي مسعود البدري حين طلع عليه رسول الله ، وهو يضرب غلامه بالسوط فقال: «اعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه» فقال أبو مسعود: يا رسول الله، هو حر لوجه الله. فقال ﷺ: «أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار» [516].



ونهى ﷺ عن تعذيب العبيد وتكليفهم ما لا يطيقونه: «من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون، واكسوه مما تلبسون، ومن لم يلائمكم منهم فبيعه، ولا تعذبوا خلق الله».

وأوصى النبي ﷺ بحسن معاملة الرقيق حتى حال إساءتهم، فقد قعد بين يديه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني؛ وأستهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل».

فتنحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف لما يعلم من حاله مع مملوكيه، فقال رسول الله ﷺ: «أما تقرأ كتاب الله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: 47)».

فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم [519].

كما حذر النبي ﷺ وتوعد الذين يسيئون معاملة الرقيق بالحرمان من الجنة، وهي أعلى مطلوب ومرغوب، فقال: «لا يدخل الجنة مجيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة، وأول من يقرع باب الجنة المملوكون إذا أحسنوا فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين مواليتهم».

وما زال النبي ﷺ يوصي بالعبيد لضعفهم، ولم ينس الوصاية بهم حتى وهو على فراش الموت، في اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ، يقول أنس بن مالك: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم» حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه]] . [522]

ولئن كانت الأديان الأخرى تغلظ للعبد في عقوبته على الذنب ما لا تغلظه على السيد ؛ فإن الإسلام يخفف عقوبة العبد ويجعلها دون عقوبة الحر ؛ مراعاة لحاله وضعفه الذي قد يوقعه بالمعصية، ومن ذلك تخفيف عقوبة الزنا إلى النصف من عقوبة الحر ﴿ فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَثِينَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (النساء: 25) .

وأخيراً فإن الحضارة الإسلامية قدمت نموذجاً فريداً في معاملة العبيد، فكان منهم العلماء، كسالم t مولى أبي حذيفة ، والأمراء كسلمان الفارسي أمير المدائن، وزيد بن حارثة قائد جيش المسلمين في مؤتة، وبلال خازن بيت المال الذي يقول عنه الخليفة عمر بن الخطاب: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا) أي بالألأ .

وهكذا وبعد هذه الجولة يتبين للقارئ المنصف جملة أمور:

\* أن القرآن كلام الله تعالى المحفوظ بحفظ الله والمتقول إلينا بتواتر الحفاظ جيلاً بعد جيل .

\* أن الهجوم على القرآن يهدف إلى تشكيك المسلم بقرآنه وإبعاده عن هديه وتأثيره الذي جعل من المسلم مشعل هداية ونبراس حق ودليل إيمان وقوة لا تقهر .

\* أن الأباطيل المثارة عن القرآن تشهد -بضعفها - لهذا القرآن أنه كتاب الله الذي أعجز الطاعين مع حرصهم على الكيد وتصيد النقائص فيه .

\* أن هذه الأباطيل تكشف عن جهل فاضح لقائلها بلغة العرب ومعاني النصوص القرآنية، ولعلها تكشف أيضاً عن تدليس وتلبيس ومجانبة للموضوعية العلمية .

\* أن الطاعين في القرآن لو أنصفوا لعلموا براءة القرآن من أباطيلهم ، ولو أعادوا النظر في كتبهم لوجدوها تطفح برزايا ثابتة واضحة من جنس ما ادعوه زوراً على القرآن الكريم، وكان الأولى بهم أن يعتذروا للقرآن بما اعتذروا فيه لكتبهم .

\* أن الأباطيل المطعون بها عن القرآن قديمة ما فتى المستشرقون يرددونها بجهل أو خبث، وأن الهجمة الجديدة ما هي إلا صدى لهذه الهجمة الاستشراقية .

\* أن جهل المسلمين بلغة العرب اليوم ، وجهلهم بعلوم القرآن وتفسيره سبب رئيس لتحول هذه الأباطيل إلى شبهات تشبه على عوام المسلمين، فالواجب على المسلم أن يتحصن من هذه الشبهات بمعرفة دينه والإلمام بعلومه إذا لم يقدر على التمكن منها .

\* أن قوة الإيمان سبب في دفع الشبهة ، وأن مرض القلب وضعف الإيمان سبب في استحكامها، وقد قال ابن القيم: "القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقوى على

دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته، وبالجملة فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف؛ ما لم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه".

### ما هي التهم الموجهة للإسلام والقرآن في وقتنا الحالي؟

هناك نوعان من التهم فمنها ما يتعلق بالقرآن الكريم والسنة مثل تعرض القرآن والسنة للعديد من الانتقادات، من بينها:

احتواء كثيرة من النصوص القرآنية على آيات تحض على قتال الكفار والمشركين وكذلك الكثير من الأحاديث التي تدعو للجهاد والقتال .

انتقادهم لبعض الأحكام الشرعية التي وردت في القرآن والسنة، مثل حد الردة والجزاء بالقطع في بعض الجرائم اعتراضهم على الأحداث التي وردت في السنة مثل بعض الأحداث التي يرويها البخاري والمسلم في كتبهما .

وهناك اتهامات موجهة للإسلام والمسلمين و من بينها التطرف والإرهاب والتخلف والتعصب والعنف .

ومعظم هذه التهم لا تتمتع بأي أساس من الصحة، فالإسلام هو دين سلمي يدعو إلى المحبة والسلام

والتسامح لكن العقل الديني الإسلامي خلق للمسلمين مذاهب وملل وطوائف تفرخ منها الكثير من

الفتاوي والاجتهادات والتفاسير التي شكلت في عموميتها اسلاما معاديا لكل شيء بما في ذلك النصوص

المقدسة وللتحديث ولكل شيء عصري فهذا الإسلام المتشكل يعادي كل ما من شأنه دفع عقل المسلم للانفتاح والوعي وكان من نتائج هذا كله هذه الاتهامات الموجهة ضد الكتاب والدين والمسلمين فممارسات الجماعات التكفيرية والجهادية لم تفهم لدى الآخر على أنها شاذة عن قيم الدين وخروجاً عنه بل أعتبرت بشكل أو آخر نابعة من الدين أو تنفذ ما تتطلبه التعاليم الدينية منها ولا فرق في تصورهم بين الدين وأتباعه هؤلاء الموصوفون بتهمة الإرهاب هم أراهابيون لأن دينهم وعقيدتهم إرهابية وعنفية وسلفية وأصولية وغير ذلك من التهم .

### هل ظلمنا بهذه التهم وبعبارة أخرى هل نحن أبرياء مما نسب اليينا ؟

لا نستطيع الرد بشكل مباشر على هذه الاتهامات لأن الرد المباشر الوحيد يحتوي إجابة مزدوج نعم ولا نحن مظلومون من جهة ولكننا لسنا أبرياء مما نسب اليينا من جهة ثانية لذلك ان هذا البحث كله مخصص للإجابة على هذا السؤال الحير والصعب علينا أن نحلل بدقة وموضوعية وجرأة الأسباب التي جعلتنا عرضة لهذه التهم المختلفة وكما يقول المثل اذا عرف السبب بطل العجب .

ان يقيننا ثابت لا يتزعزع بصدق وسلامة ومنطقية النصوص القرآنية لذلك نقول ان الكتاب الذي يدعو الى السلام وعمل الخير والمعروف ويدعو الناس كافة لعبادة الله وحده ويدعو الى خلاصهم وسلامتهم ويدعو الى حرية العبادة والرأي ولا يحق كائن من كان التدخل في اختيارهم لأنهم خلقوا على أساس هم أحرار مختارين فكيف لهذا الكتاب أن يدعو الى الإرهاب والعنف والقتل وقطع الرؤوس اذن هناك إشكالية معقدة ومتشابكة كانت سبباً في قول ما قال قيل عن الكتاب والإسلام وأتباعه وهذه الأشكالية تقوم على أمور ثلاث وهي :

أولاً : التأويل والتفسير الخاطيء للنص القرآني ومن خلاله ابتدع العقل الديني المؤول والمفسر دينا مختلفا يعمل في الظل وفي العن وفق الرؤية والتصور والمنهج الذي استوحاه من النصوص بشكل يخدم فلسفته وسياسته وقناعته وأهدافه الخطيرة وهذا تسبب عبر التراكمات الزمنية والتاريخية لأن يأخذ هذا الدين المصنوع وفلسفته وتصوراته على أساس انه هو أصل دين الله بل أنه هو الدين ذاته فالله يقول اليوم أكملت لكم دينكم وهم قالوا بل خذوا دينكم منا فنحن من فهم الدين وفسره وأخرجه لكم .

ثانيا : التضارب الكبير والخطير في الأحاديث النبوية المروية عن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ولقد تسبب ذلك في زعزعة مائة الدين وصلابته فالقرآن خالي تماما من التناقض بل يدعو الناس قراءته وفهمه لأيجاد أي تناقض يقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 82] اذن من أين جاء هذا الاختلاف الذي تحول الى اختلاف عقائدي وفكري ومن ثم صار طائفي ومذهبي وغير ذلك ان هذا الخلاف سببه الأول هو ما ذكرناه أعلاه والثاني هو التناقض والاختلاف الرهيب بين الأحاديث المروية ليس هذا فحسب ذلك ان هذه الاحاديث هي أقرب للاساطير والخرافات ومست الدين وضربته في مقاتل عديدة بل تطاولت كثيرا على حياة الرسول وسيرته الخاصة به .

ثالثا : اختراع ما يسمى بعلم أصول الفقه وهو أيضا من انتاج العقل الديني الإسلامي وأصول الفقه تعني مصطلحا وكما فهمناه هي الأسس التي يقوم عليها الشرع والتشريع والمنهج وقد تم حصرها في ثلاث رئيسيات : القرآن والسنة والقياس ثم أضيف لها فيما بعد الاجتهاد والاجماع والمصالح المرسلة ورأي الفقيه المجتهد .

هذه العقيدة الأصولية الفقهية التي وضعها العقل الديني قد ألحقت بالكتاب والدين وبالتالي بالآسلام  
والمسلمين ضررا بالغا فهي قد وضعت حدودا لما أراد الله منا من حيث التفكير والتدبر والفهم بل  
حاصرت عقولنا وأفكارنا ومعرفتنا كلها في قالب صنعه منذ اثني عشر قرنا وان أغلب التيارات  
الفكرية السلفية والأصولية بما فيها طبعها الأصولية والسلفية الجهادية قد نهلت ورضعت من هذا  
الدستور الموضوع لذلك فلا عجب ولا غرابة أن يتوقف اليوم عقل بعض المتفكرين وأتباعهم ومريديهم عن  
العمل ويعيش ككائن تاريخي ماضوي سلفي .

### مرة أخرى وأخيرة هل نحن مظلومون فيما نسب اليينا ؟

نحن كأمة مظلومين تاريخيا وحاضرا ومنذ اللحظة التي جر بها جرا المسلمين أتباع علي بن أبي طالب  
ومعاوية بن أبي سفيان الى معركة صفين ولم يكن لأحد ناقة أو جمل فيها سوى الطامعين بالسلطة  
وهما علي ومعاوية تلك المعركة التي لازلنا ندفع ثمن نتائجها الى يومنا هذا .

وهكذا استمرت الحالة الى اللحظة التي نعيش فيها أنظروا مثلا كيف جر ابن لادن الدين والإسلام  
والمسلمين كلهم معه لحرب الكفار وأنظروا الى نتائجها فالمسؤول عن حرب صفين بالماضي والمسؤول عن  
حرب ابن لادن في عصرنا هو واحد هو العقل الجاهل الديني المتخلف الذي بني على العصبية القبلية  
والعقلية والفكرية

لذلك فنحن وقرآنا وديننا وأسلامنا ومسلمينا كلنا مظلومون اما الذي ظلمنا كما قلت هو العقل الجاهل  
الذي تقمص الدين فهو الظالم وينبغي للأخرين أن يحاكموه وليس نحن ونحن هنا تعني الأغلبية المسلمة

المقهورة التي تعيش عصرها وزمانها ولا تدري ماهو قرآنها ودينها واسلامها الحق فلقد اختلطت عليها  
الأمر كثيرا وكثيرا جدا .

لذلك المطلوب منا اليوم لكي نرد هذه التهم عنا ونخلص عبادة الأرهاب والعنف التي ألبسوها للقرآن والدين  
والإسلام والمسلمين المطلوب هو محاسبة ومحكمة هذا الفكر الرجعي السلفي الأصوي وقلع جذوره  
وكتبه وفتاويه وتفاسيره وأفكاره اذا علينا أن نفعل ذلك لأفساح المجال لخلق مولود عقلي ديني جديد ولا  
يمكن لهكذا مولود أن يخلق من حاضنة لازال يعيش فيها الجهل والتخلف .

ان هذه الدعوى لبناء تصور عقلي ديني جديد لبناء اسلام جديد ومسلمين جدد لا تعني بأي شكل من  
الأشكال اختراع او صناعة او ابتكار ديني جديد من لا شيء او على أساس الهدم كليا وإعادة  
التأسيس لا أبدا ان ما نعنيه هنا البدء من الأساس ووهنا هو كتاب الله هو منهجنا ودليلنا نحو ذلك  
والمطلوب إعادة قراءته قراءة جماعية متخصصة وخاصة بمجموعة من العلماء حقا والفقهاء حقا  
المتورين والذين يخافون الله ويتقوه فيمكن لهذه الفئة ان تصالحت وتعاقدت على فعل ذلك بهدف تجديد  
القيم والمفاهيم والتفاسير والفتاوى وبشكل عام تجديد وتنوير العقل الديني يمكن وقتها أن ننشر ورقة  
نعوى نترحم فيها على ماضينا الأصوي السلفي المؤدج .





قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى وَالْكِتَابِ هُوَ اسْمٌ جَنَسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ، الَّذِي أَنْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ ، وَأَشْمَلُ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنَسَخَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اضْطِلَاحًا هُوَ "كلام الله المنزل على نبيه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ، الْمُعْجَزِ بِلَفْظِهِ ، الْمُتَعَبَّدِ بِتِلَاوَتِهِ ، الْمَفْتَحِ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَالْمُنْتَهَى بِسُورَةِ النَّاسِ ، الْمَكْتُوبِ فِي الْمَصَاحِفِ ، وَالْمُنْقُولِ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ" .

وَذَكَرَ لَفْظَ الْقُرْآنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ 68 مَرَّةً كَرَّرَ لَفْظَ "أُمِّ الْكِتَابِ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (٣)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 7]

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : 39]

﴿ وَإِنَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : 4]

مَا الْفَرْقُ بَيْنَ دَلَالَةِ كَلِمَةِ الْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ ؟

وَمَا دَلَالَةُ اسْتِحْدَامِ ذَلِكَ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ (الم (I) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) البقرة) وَلَمْ تَأْتِ هَذَا الْكِتَابِ أَوْ هَذَا الْقُرْآنَ أَوْ ذَلِكَ الْقُرْآنَ ؟

كَلِمَةٌ قُرْآنٌ هِيَ فِي الْأَصْلِ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ الْفِعْلِ قَرَأَ مِثْلَ غُفْرَانَ وَعُدْوَانَ : (فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿

I8 ﴿ القيامة) ثُمَّ أُسْتُعْمِلَتْ عَلِمًا لِلْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (القرآن) .

أَمَّا الْكِتَابُ فَهِيَ مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَأَحْيَانًا يُسَمَّى كِتَابًا ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ مُتَعَلِّقٌ بِالْخَطِّ ، وَأَحْيَانًا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَإِنْ لَمْ يُخَطَّ (أُنزِلَ الْكِتَابُ) لَمْ يُنَزَّلْ مَكْتُوبًا ، وَإِنَّمَا أُنزِلَ مَقْرُوءًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ( صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ) .

هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ اللُّغَةِ ، أَمَّا مِنْ نَاحِيَةِ الِاسْتِعْمَالِ ، فَيُلاحِظُ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَبْدَأُ بِالْكِتَابِ يَتَرَدَّدُ فِي السُّورَةِ ذَكَرَ الْكِتَابَ أَكْثَرَ بِكثِيرٍ مِمَّا يَتَرَدَّدُ ذِكْرُ الْقُرْآنِ ، أَوْ قَدْ لَمْ يَذْكُرْ كَلِمَةَ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا فِي السُّورَةِ . أَمَّا عِنْدَمَا يَبْدَأُ بِالْقُرْآنِ فَيَتَرَدَّدُ فِي السُّورَةِ ذَكَرَ كَلِمَةَ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنَ الْكِتَابِ ، أَوْ قَدْ لَمْ يَرِدْ ذِكْرُ الْكِتَابِ مُطْلَقًا فِي السُّورَةِ ، وَإِذَا اجْتَمَعَ الْقُرْآنُ وَالْكِتَابُ يَتَرَدَّدَانِ فِي السُّورَةِ بِشَكْلِ مُتَسَاوٍ تَقْرِيْبًا وَنَأْخُذُ بَعْضَ الْأُمْتِلَةِ :

فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَدَأَ بِالْكِتَابِ (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ 2 ﴾ ) وَذَكَرَ الْكِتَابَ فِي السُّورَةِ 47 مَرَّةً ، وَالْقُرْآنَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي آيَةِ الصِّيَامِ (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ) .

فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بَدَأَ السُّورَةَ بِالْكِتَابِ (نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ 3 ﴾ ) وَوَرَدَ الْكِتَابُ 33 مَرَّةً فِي السُّورَةِ ، وَلَمْ تُرَدِّ كَلِمَةُ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا فِي السُّورَةِ كُلِّهَا .

فِي سُورَةِ طه : بَدَأَ السُّورَةَ بِالْقُرْآنِ (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ 2 ﴾ ) وَوَرَدَ الْقُرْآنُ فِيهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَالْكِتَابُ مَرَّةً وَاحِدَةً .

فِي سُورَةِ قِ بَدَأَ بِالْقُرْآنِ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿ I ﴾ ) وَوَرَدَ الْقُرْآنُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي السُّورَةِ بَيْنَمَا وَرَدَ الْكِتَابَ مَرَّةً وَاحِدَةً .

فِي سُورَةِ صِ تَسَاوَى ذِكْرَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ .

فِي سُورَةِ الْحَجْرِ بَدَأَ (الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿ I ﴾ ) وَوَرَدَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَالْكِتَابَ مَرَّتَيْنِ .

فِي سُورَةِ التَّمَلُّ بَدَأَ (طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿ I ﴾ ) وَوَرَدَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَالْكِتَابَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ .

### أُمُّ الْكِتَابِ وَاللُّوحُ الْمَحْفُوظُ

لَقَدْ وَرَدَتْ صِيغَةُ أُمِّ الْكِتَابِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 7]

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : 39]

﴿ وَإِنَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : 4]

وَمَعْنَى أُمِّ الْكِتَابِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ وَاحِدُ الْمُرَادِ بِهِ أَصْلُ الْكِتَابِ وَهُوَ الْكَائِنُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا سُورَةَ الْبُرُوجِ وَتَعَالَى مِنْ هَذَا الْأَصْلِ التَّوْرَةَ وَخَصَّهَا لِلنَّبِيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْإِنْجِيلَ وَخَصَّه  
لِلنَّبِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَيُّ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِمَا خَصَّهُمْ مِنْهُ فَدِينَهُمْ  
وَتَعَالِيمَهُمْ هِيَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

وَالسُّؤَالُ الَّذِي سَنَبِّحُ عَنْهُ هُوَ هَلِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ يُضَمُّ غَيْرَ هَذِهِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ  
وَجَعَلَ كِتَابَهُ الْأَخِيرَ مُهَيِّمًا عَلَيْهَا شَامِلًا عَامًّا مُصَدِّقًا ؟

لَقَدْ وَرَدَ اسْمُ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي آيَةِ الْبُرُوجِ

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 22]

وَمَفْهُومُ هَذِهِ الْآيَةِ وَاضِحٌ حَيْثُ تُشِيرُ صَرَاحَةً أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ هُوَ مُوجُودٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

مَعْنَى أُمِّ الْكِتَابِ وَاللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي التَّفَاسِيرِ

( وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ) أَيُّ : أَصْلُ الْكِتَابِ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ

ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هُمَا كِتَابَانِ : كِتَابٌ سِوَى أُمِّ الْكِتَابِ يَمْحُو مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ، وَأُمُّ

الْكِتَابِ الَّذِي لَا يُغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَعَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى لَوْحًا مَحْفُوظًا مَسِيرَةَ

خَمْسِمِائَةِ عَامٍ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ لَهَا دَقَّتَانِ مِنْ يَاقُوتِ لَهِّ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِيهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ لِحْظَةً يَمْحُو اللَّهُ مَا

يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ . وَسَأَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا عَنْ أُمِّ الْكِتَابِ فَقَالَ : عَلِمَ اللَّهُ مَا هُوَ خَالِقٌ وَمَا خَلَقَهُ عَامِلُونَ .

فُسِّرَتْ كُلُّ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَدُونِ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ إِذْ أَنْ اللَّهَ وَضَعَ كُلَّ سُنَنِ وَمَجْرِيَاتِ الْحَيَاةِ وَمَا سَيَحْدُثُ فِي الْكُونِ مُنْذُ خَلَقَهُ لِلْكَوْنِ وَحَتَّى نَهَائِهِ وَحِفْظِهَا بِشَكْلِ غَيْرِ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ . ( وَاخْتَلَفَ حَوْلَ نَوْعِيهِ وَشَكْلِ اللَّوْحِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ لَوْحٌ مَكْتُوبٌ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ عَلَى جِبْهَةِ إِسْرَافِيلِ ) .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ بَعْضَ التَّفَاسِيرِ لَيْسَ لَهَا أَيْ آسَاسٌ تَسْتَدِ عَلَيْهِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ قَبِيلِ التَّأْوِيلِ وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ فَفَمَنْ الَّذِي أَعْلَمُهُمْ بِأَشْكَالِ وَحُجْمِ وَأَنْوَاعِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَمَنْ قَالَ لَهُمْ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى جِبْهَةِ إِسْرَافِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ التَّهْيِئَاتِ وَالتَّوَقُّعَاتِ .

التَّيْجَةُ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَفِيهِ عِلْمُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَفَضَّلَ فِيهِ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ تَفْصِيلًا وَفِيهِ أَصْلُ الْكِتَابِ أَيْ أُمُّ الْكِتَابِ هِيَ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْمُنْزَلَةُ .

### الْكِتَابُ الْهَدَايَةُ الرَّسَالَةُ وَالْحِكْمَةُ

إِنَّ أَفْضَلَ مَا يَقْدَرُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْعَبْدِ هُوَ الْهُدَى ؛ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَالْعَطَايَا ، وَأَعْظَمُ مَا يَبْتَلِيهِ بِهِ وَيَقْدَرُهُ عَلَيْهِ هُوَ الضَّلَالُ ، وَقَدْ اتَّفَقَتْ رُسُلُ اللَّهِ جَمِيعًا ، وَكَذَلِكَ كَتَبَهُ الْمُنْزَلَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، فَالْهُدَى وَالضَّلَالُ بِيَدِهِ ، وَطَلَبُ الْهَدَايَةِ وَالسَّعْيُ إِلَيْهَا مِنْ طَلَبِ الْعَبْدِ وَكَسْبِهِ .

وتتلخص مراتب الهداية في كتاب الله عز وجل بأربعة مراتب ، وهي :

## I - الهداية العامة :

هي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه ، وهي أعم المراتب ، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى : " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى " (طه : 50) . وهذه الهداية نعم جميع المخلوقات ، ونعم سائر أمور المعاش من نكاح ، وطعام وشراب ، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخرن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى .

## 2- هداية الإرشاد والدعوة والبيان :

هي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق ، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم ، وهي حجة الله على خلقه ، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب . قال تعالى : "رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء : 165) . وقال تعالى : "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (يونس : 147) . وقال تعالى : "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد : 10) . وقال تعالى : "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا" (الإسراء : 15) .

## 3 - هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل :

لا يقدر على هذه الهداية إلا الله سبحانه وتعالى ، فمن شاء هدايته اهتدى ، ومن شاء ضلّاه ضلّ ، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين ، وهي حتمية الوقوع وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله في قوله تعالى : "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص : 56) . وَقَالَ تَعَالَى : "مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"  
(الأنعام : 39) . وَقَالَ تَعَالَى : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ  
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (إبراهيم : 4) . وَقَالَ تَعَالَى : "وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً  
فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (يونس : 19) . وَقَالَ تَعَالَى : "وَاللَّهُ  
يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (يونس : 25) . وَقَالَ تَعَالَى : "كَذَلِكَ حَقَّتْ  
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (يونس : 33) .

وَالْوَاقِعَ أَنْ اسْتَقْرَأَ التُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ يَكْشِفُ أَنَّ هَذِهِ الْهَدَايَةَ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الضَّلَالِ لَيْسَتْ فِي الْإِنْسَانِ  
ابْتِدَاءً وَخُلُقَهُ ، بَلْ هُمَا نَتَائِجٌ لِمَقْدَمَاتٍ ، وَمُسَبِّبَاتٍ لِأَسْبَابٍ ، فَكَمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّعَامَ سَبَبًا فِي  
الْغِذَاءِ وَالْمَاءَ سَبَبًا لِلرِّيِّ ، وَالسَّكِينَ يُنْجِعُ عَنْهُ الْقَطْعَ وَالنَّارَ تَسَبَّبَ الْحَرِيقُ ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ أَسْبَابًا تَوْصَلَ  
إِلَى الْهَدَايَةِ وَأَسْبَابًا تَقُودُ إِلَى الضَّلَالِ . فَالْهَدَايَةُ إِنَّمَا هِيَ ثَمَارُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَالضَّلَالُ إِنَّمَا هُوَ نَتَاجُ عَمَلٍ  
فَبِيحٍ وَإِسْنَادِ الْهَدَايَةِ لِلَّهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَضَعَ نِظَامَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ لَا أَنَّهُ أُجْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى الضَّلَالِ  
وَالْهَدَايَةِ وَهَذَا الْمَعْنَى وَاضِحٌ جَدًّا فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِثْلُ : قَوْلِهِ تَعَالَى : "وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ"  
(الرعد : 27) . وَقَوْلِهِ تَعَالَى : "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" (محمد : 17) . فَهَدَايَةُ اللَّهِ  
لِلنَّاسِ بِمَعْنَى لُطْفِهِ بِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ إِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةٌ جِهَادٍ لِلنَّفْسِ ، وَإِنَابَةٌ إِلَى اللَّهِ وَاسْتِمْسَاكٌ  
بِإِرْشَادِهِ وَوَحْيِهِ .

### أَمَّا الْحِكْمَةُ فِي الْكِتَابِ

تَعْرِيفُ الْحِكْمَةِ لُغَوِيًّا وَاصْطِلَاحًا :



مَعْنَى الْحِكْمَةِ لَفَةً :

الْحِكْمَةُ : مَا أَحَاطَ بِجَنَاحِي الْفَرَسِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَمَنُّعُهُ مِنَ الْجُرْيِ الشَّدِيدِ ، وَتُذَلِّكِ الدَّابَّةَ لِرَاكِبِهَا ، حَتَّى تَمَنُّعَهَا مِنَ الْجِمَاحِ ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الْحِكْمَةِ ؛ لِأَنَّهَا تَمَنُّعُ صَاحِبِهَا مِنْ أَخْلَاقِ الْأَرَادِلِ .  
وَأَحْكَمُ الْأَمْرِ : أَيِ اتَّقَنَهُ فَاسْتَحْكَمَ ، وَمَمْنَعُهُ عَنِ الْفَسَادِ ، أَوْ مَمْنَعُهُ مِنَ الْخُرُوجِ عَمَّا يُرِيدُ

مَعْنَى الْحِكْمَةِ اصْطِلَاحًا :

قَالَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيُّ : (الْحِكْمَةُ اسْمٌ لِأَحْكَامٍ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ)

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ : (الْحِكْمَةُ : فَعَلَ مَا يَنْبَغِي ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي)

وَقَالَ التَّوَوِيُّ : (الْحِكْمَةُ ، عِبَارَةٌ عَنِ الْعِلْمِ الْمُتَّصِفِ بِالْأَحْكَامِ ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، الْمُصْحُوبِ بِنَفَازِ الْبَصِيرَةِ ، وَتَهْذِيبِ النَّفْسِ ، وَتَحْقِيقِ الْحَقِّ ، وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَالصَّدْعِ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْبَاطِلِ ، وَالْحَكِيمِ مَنْ لَهُ ذَلِكَ)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ كَمَا دَرَجَتْ فِيهِمُ فِي الْإِتْفَاقِ عَلَى مَفْهُومٍ وَاحِدٍ لَهَا

فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ السَّابِقُونَ مَعْنَى " الْحِكْمَةِ " بِأَنَّهَا سُنَّةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَلْ هُنَالِكَ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَكَيْفَ فَسَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحِكْمَةَ ، وَهَلْ هُنَالِكَ حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . فَأَنَا أَرَى أَنَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ الْآتِيَةَ تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي مُخْتَلِفَةٍ عَنِ تِلْكَ الَّتِي جَاءَ بِهَا عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ :

- فَبِئْسَ سُورَةَ " الْبَقَرَةِ " - الْآيَةُ : 231 : ( وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

وَالْحِكْمَةِ يَعْظُمُكُمْ بِهِ ) فَأَنَّ " الْحِكْمَةَ " هِيَ نَفْسُهَا " الْكِتَابِ " - الْكِتَابِ فِي هَذَا الْآيَةِ هُوَ الْقُرْآنُ -

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ كَلِمَةُ ( بِهِ ) فِي آخِرِ آيَةِ ، الَّتِي جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ مَعْنَى  
 الْكِتَابِ الْقُرْآنِ ، وَمَعْنَى الْحِكْمَةِ : حِكْمَةُ اللَّهِ . - وَفِي سُورَةِ " الْمَائِدَةِ " - آيَةِ : 110 ( إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا  
 عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا .  
 وَإِذِ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ) لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى " الْحِكْمَةِ " هُنَا بِأَنَّهَا سُنَّةُ  
 الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَتَى بَعْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَمَا الْمَقْصُودُ بِالْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ آيَةِ  
 فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ هُنَا فِي أَيْضًا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَهُوَ الْإِنْجِيلُ .

- وَأَيْضًا فِي سُورَةِ " الْبَقَرَةِ " - آيَةِ : 129 : ( رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ  
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) فَكُلُّ نَصٍّ يَذْكُرُ فِيهِ الْكِتَابُ وَيَأْتِي بَعْدَهُ الْحِكْمَةُ  
 فَيَنْطَبِقُ عَلَى قَوْلِنَا إِنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ .

أَمَّا مَعْنَى الْحِكْمَةِ فِي سُورَةِ " الْبَقَرَةِ " - آيَةِ : 269 : ( يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ  
 أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ) فَهُوَ عَطَاءٌ خَاصٌّ لِغَيْرِ نَبِيِّ كَمَا أَعْطَاهَا اللَّهُ الْحِكْمَةَ لِلْقِمَانِ  
 ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : 12] .

وَالْخُلَاصَةُ : الْحِكْمَةُ كَلِمَةٌ مُشْتَرَكَةٌ ، تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، تُطْلَقُ عَلَى التُّبُوَّةِ ، وَعَلَى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ فِي  
 الدِّينِ ، وَعَلَى الْعَقْلِ ، وَعَلَى الْوَرَعِ ، وَعَلَى أَشْيَاءٍ أُخْرَى ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ كَمَا قَالَ الشُّوْكَانِيُّ الْأَمْرُ  
 الَّذِي يَمْنَعُ عَنِ السَّفَهَةِ ، هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ . وَالْمَعْنَى : أَنْ كُلَّ كَلِمَةٍ ، وَكُلُّ مَقَالَةٍ تَرُدُّكَ عَنِ السَّفَهَةِ ،

وتزجرك عن الباطل ، فهي حُكْمُهُ . وهكذا كلُّ مقالٍ واضحٍ صريحٍ ، صحيحٍ في نفسه ، فهو حُكْمُهُ ،  
فَالآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ أَوْلَىٰ بِأَنْ تُسَمَّى حُكْمَهُ ، وَهَكَذَا السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ أَوْلَىٰ بِأَنْ تُسَمَّى حُكْمَهُ بَعْدَ كِتَابِ  
اللَّهِ ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللَّهُ حُكْمَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ( وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ )  
يُعْنِي السُّنَّةَ ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ( يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا  
كَثِيرًا ) .

### مَعْنَى الرِّسَالَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ رِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ مَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* وَلَتَعْلَمَنَّ بِنَاؤُهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿  
(سورة : ص ، آيات 86 : 88) .

فَالْقُرْآنُ بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ رِسَالَةُ الْخَالِقِ إِلَى خَلْقِهِ ، رِسَالَةُ الْإِلَهِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَى عِبَادِهِ أَجْمَعِينَ ،

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : 79]

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : 30]

فَهَذَا النَّصُّ الْكَرِيمُ يُوضِّحُ تَمَامًا أَرْكَانَ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ

فَكَلَّمَهُ أَرْسَلْنَا تُشِيرُ إِلَى الْمُرْسَلِ وَهُنَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْكَافُ تُشِيرُ لِلْمُخَاطَبِ وَالَّذِي هُوَ

الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ وَبِتَعْيِيرِ آخِرِ هُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ كَلِمَةُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَتَتَضَمَّنُ الْوَاسِطَةَ وَهُوَ جِبْرِيلُ

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرِّسَالَةُ هِيَ كِتَابُ اللَّهِ .

فَعَلَى مَنْ رَامَ الْحَقَّ وَطَلَبَ الْهِدَايَةَ وَالسَّعَادَةَ أَنْ يُقْرَأَ رِسَالَةَ اللَّهِ لَهُ ، وَإِنْ تَفَكَّرَ فِيهَا ، وَإِنْ يَتَدَبَّرَ مَعَانِيهَا ،  
وَإِنْ يَتَعَطَّى وَيَتَذَكَّرُ بِمَا فِيهَا ، وَإِنْ يُؤْمِنُ بِهَا ، وَأَنْ يُعْمَلَ بِمَا أَمَرَنَا اللَّهُ فِيهَا ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ ، وَهَذِهِ هِيَ  
خَرِيطَةُ النَّبِيِّ أَرْسَلَهَا اللَّهُ لِخَلْقِهِ لِيَهْتَدُوا بِهَدَايَا وَيَسِيرُوا فِي إِرْشَادِهَا ، وَ الْمُؤَقَّقُ هُوَ مَنْ يَأْخُذُ عَنِ اللَّهِ  
بِإِخْلَاصٍ وَجَدَ ، بَعْدَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ قَلْبِهِ حَظَّ الدُّنْيَا وَهَوَى النَّفْسِ ، مُتَّبِعًا لِلخَطَوَاتِ السَّيِّئَةِ مِنْ غَيْرِ  
نَقْصٍ ، حَتَّى لَا يَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿ (سورة الرُّوم ، آية : 7) .

### كِتَابِ اللَّهِ مَعْرِفَةٌ وَتَشْرِيعٌ

#### مَعْرِفَةٌ

النَّظَرُ إِلَى مَوَارِدِ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، نَجِدُ أَنَّهَا تَشْمَلُ مَعْنَى وَقُوعِ شَيْءٍ عَلَى نَحْوِ مُطَابِقِ لِسَابِقِ  
عَلِمَ بِهِ ، حَيْثُ تَطْرُدُ هَذِهِ الدَّلَالَةُ فِي جَمِيعِ الاسْتِعْمَالَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَصْطَلَحِ الْمَعْرِفَةِ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ  
تَعَالَى :

- وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا  
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (البقرة 86) .

- وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا  
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (المائدة 83) .

فَمَعْرِفَةُ الْيَهُودِ فِي آيَةِ الْأُولَى وَالتَّصَارِي فِي آيَةِ الثَّانِيَةِ ، ائْتَتْ عَلَى عِلْمٍ سَابِقٍ مِنَ الْكُتَابِينَ بِالْحَقِّ  
الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ وَبِذَلِكَ تَمَيَّزَتِ الْمَعْرِفَةُ عَنِ الْعِلْمِ بِاعْتِبَارِهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى عِلْمٍ سَابِقٍ ، وَيَتَّضِحُ  
هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة 146) .

فَهُمْ لِمَا كَتَمُوا الْحَقَّ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهِ ، لَمْ تَشْرُ الْآيَةُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ ، بَلْ قُرِنَتِ الْكَيْفَانُ بِالْعِلْمِ ، مَعَ أَنَّهَا أَشَارَتْ  
فِي بَدَائِئِهَا إِلَى أَنَّ عِلْمَ بَعْضِهِمْ أَصْبَحَ مَعْرِفَةً فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، لَكِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ تَوَقَّفُوا بِهِ فِي حُدُودِ  
الْعِلْمِ ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوا بِهِ .

وَقَالَ الرَّاعِبُ : « الْمَعْرِفَةُ وَالْعِرْفَانُ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ لِأَثَرِهِ وَهُوَ أَخْصُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَيُضَادُّهُ  
الْإِنْكَارُ ، وَيُقَالُ فُلَانٌ يَعْرِفُ اللَّهَ وَلَا يُقَالُ يَعْلَمُ اللَّهُ مُتَعَدِّيًا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ لِمَا كَانَ مَعْرِفَةُ الْبَشَرِ لِلَّهِ هِيَ  
بِتَدَبُّرِ آثَارِهِ دُونَ إِدْرَاكِ ذَاتِهِ ، وَيُقَالُ اللَّهُ يَعْلَمُ كَذَا وَلَا يُقَالُ يَعْرِفُ كَذَا ، لَمَّا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي  
الْعِلْمِ الْقَاصِرِ الْمُتَوَصِّلِ بِهِ بِتَفَكُّرٍ ، وَأَصْلُهُ مِنْ عُرِفْتُ أَيَّ أَصَبْتُ عَرَفَةً أَيَّ رَأَيْتُهَا » .

وَقَالَ الْمُصْطَفَوِيُّ عَنِ الْمَعْرِفَةِ فِي كِتَابِهِ « التَّحْقِيقُ فِي كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ » : « وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْأَصْلَ الْوَاحِدَ  
فِي الْمَادَّةِ هُوَ أَطْلَاعٌ عَلَى شَيْءٍ وَعِلْمٌ بِمَجْهُودَاتِهِ وَإِثَارَةٍ ، وَهُوَ أَخْصُ مِنَ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَمَيَّزَتْ  
الشَّيْءِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَعِلْمٌ بِمَجْهُودَاتِهِ ، فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ وَلَا عَكْسَ »

يَسْتَنْجِبُ مِنَ التَّعَارِيفِ اللَّغَوِيَّةِ السَّابِقَةِ بِخُصُوصِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ ، أَنَّهُمَا وَإِنْ  
اسْتُعْمِلَا أحيانًا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، إِلَّا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ أَخْصُ مِنَ الْعِلْمِ ، فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ وَلَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ مَعْرِفَةً .

وَجَاءَتِ الْمَعْرِفَةُ فِي مَجْمُوعِهِ مِنْ آيَاتِ الْكَرِيمَةِ بِمَعْنَى التَّحْقُقِ مِنَ الشَّيْءِ عَنْ طَرِيقِ مَا يَرَى مِنْ عَلَامَاتِهِ  
الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ :

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّةً وَاحِدَةً هِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف  
. (I99

فَهَهُنَا نَقْفٌ عَلَى حَقِيقَةِ مُفَادِهَا أَنَّ تَكَرُّرَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْفِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ تَعْنِي الِارْتِفَاعَ بِفِكْرِ  
الْمُسْلِمِ مَتَى ارْتَبَطَ هَذَا الْفِكْرُ بِالْعَمَلِ ، إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي تَسْمَحُ لَهُ بِنَوْعِ قَدْرِهِ تَشْرِيعِيَّةً ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا  
يَصِيرُ الْعُرْفُ أَوْ الْمَعْرُوفُ مَأْمُورًا بِهِ لِتَعَارِفِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ عَلَيْهِ ، مِمَّا قَدْ يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْمَعْرُوفُ يَدْخُلُ  
ضِمْنَ دَائِرَةِ الْمُشْرَكَ الْإِنْسَانِي .

### التَّشْرِيعُ فِي كِتَابِ اللَّهِ

#### تَعْرِيفُ لَفْظِ التَّشْرِيعِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا

التَّشْرِيعُ لُغَةً مَصْدَرُ شَرَعَ ، أَي وَضَعَ قَانُونًا وَقَوَاعِدَ .

وَفِي الْإِصْطِلَاحِ هُوَ خِطَابُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَعَلِّقُ بِالْعِبَادِ طَلَبًا أَوْ تَخْيِيرًا أَوْ وَضْعًا .

وَمِنْ هُنَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا حَقَّ فِي التَّشْرِيعِ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ  
رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام :

[57

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ - كَاتِبًا مِنْ كَانَ - أَنْ يَشْرَعَ حُكْمًا ، سِوَاءَ مَا يَتَّصِلُ بِحُقُوقِ اللَّهِ أَوْ حُقُوقِ الْعِبَادِ ؛ لِأَنَّ هَذَا افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ ، وَسَلْبٌ لِمَا اخْتَصَّ بِهِ نَفْسُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ عُلُوِّ مَكَانَتِهِ - لَيْسَ لَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ وَإِنَّمَا لَهُ حَقُّ الْبَيَانِ ، وَعَلَيْهِ وَاجِبُ التَّبْلِيغِ : “ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ” وَيَقُولُ تَعَالَى : “ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ” وَكَوَلَّهُ تَعَالَى : “ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ”

وَهَذَا مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ قَاطِبَةً ، بَلْ أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ السَّمَاوِيَّةُ كُلُّهَا ، وَلَمْ يَشُدَّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الَّذِينَ رَفَضُوا الْإِنْصِياعَ إِلَى شَرَائِعِ اللَّهِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا .

هَلْ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ الْحَقُّ فِي التَّشْرِيعِ

شَرَعَ اللَّهُ الدِّينَ : سَنَّهُ وَبَيَّنَّهُ ، أَوْضَحَهُ وَأَظْهَرَهُ

الشَّرِيعَةُ : مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

مَعْنَى الشَّرْعِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا

لَفْظُ الشَّرْعِ هُوَ مَصْدَرُ شَرَعَ لِلنَّاسِ كَذَا ؛ أَي سَنَّ لَهُمْ كَذَا ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْمَشْرُوعِ ، فَيُقَالُ : هَذَا شَرَعُ اللَّهِ ؛ أَي مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَسَنَّهُ لِعِبَادِهِ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : “ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ”

وَالشَّرْعُ فِي اصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ : هُوَ مَا سَنَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ أَحْكَامٍ عَقَائِدِيَّةٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ أَوْ حُلُقِيَّةٍ .

وَبِهَذَا يَبِينُ لَنَا أَنَّ لَفْظَ « شَرَعَ » مُرَادِفٌ لِلْفِظِي الدِّينِ وَالْفِقْهِ بِالْإِعْتِبَارِ السَّابِقِ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ « شَرَعَ »  
وَدِينٍ « يُعْتَبَرَانِ لَفْظَيْنِ عَامَّيْنِ بِالتَّسْبِيبَةِ لِلْمَعْنَى الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ رَأْيُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ .

تَعْرِيفٌ وَ مَعْنَى شَرَعَ قَانُونًا جَدِيدًا فِي مُعْجَمِ الْمَعَانِي الْجَامِعِ - مُعْجَمِ عَرَبِيَّ عَرَبِيٍّ  
شَرَعَ قَانُونًا جَدِيدًا :

سَنَّهُ ، أَيَّ جَعَلَهُ مَشْرُوعًا مَسْنُونًا . شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا [قرآن] .

أَنَّ الْمَفْهُومَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الْمَشْرَعَ فِي الدِّينِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ الْمَالِكُ لَهُ وَالْخَاصُّ بِهِ دُونَ سِوَاهُ  
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذِمِّ وَاضِحٍ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَشْرَعُوا فِي الدِّينِ

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : 21]

أَيُّ إِنَّ هَذَا الدِّينَ تَشْرِيْعٌ إِلَهِيٌّ لِذَلِكَ نَقُولُ جَوَازًا إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ دَسْتُورُنَا وَهُوَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَانُونِيَّةِ هُوَ  
كَذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الْوَحِيدُ لِلدِّينِ كَمَا قُلْتُ لِذَلِكَ فَإِنَّ الدُّسْتُورَ الْوَضْعِيَّ حَضَرَ حَقًّا .

التَّشْرِيْعُ بِيَدِ الشَّعْبِ أَوْ مُمَثِّلِيَّةٍ وَهُمْ التُّوَابِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ هُمْ كَهَيْئَةِ اِعْتِبَارِيَّةٍ وَاحِدَةٌ وَخَدَهُمْ مَنْ  
يَمْلِكُ الْحَقَّ فِي إِقْرَارِ شُؤْنِ حَيَاتِهِمِ الْمَدِينِيَّةِ وَالْمَعِيشِيَّةِ .

لِهَذَا فَالْتَّصَّ التَّالِيُّ يُوَضِّحُ حَضَرَ التَّشْرِيْعِ الدِّينِيِّ بِاللَّهِ وَخَدَهُ فِي مُنْذُ زَمَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ  
آدَمَ وَحَتَّى آخِرِهِمْ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ خَاتَمِ التَّبِيِّينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .



﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : 13]

أَمَّا الْأَحْكَامُ النَّازِمَةُ لِهَذَا التَّشْرِيعِ وَالْمَفْصَلَةُ وَالْمُفَسَّرَةُ وَالْمَوْضُحَةُ لَهَا فَهِيَ مِنْ حَقِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَمِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ شَرِيحَةٌ أَنْ يَجِدُوا صِيغَةً تَمَثِيلِيَّةً لَهُمْ تَكُونُ بِمَثَابَةِ أَهْلِ التَّشْرِيعِ .

تَضَارَبَتْ آرَاءُ الْفُقَهَاءِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ فِي حَقِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ فِي التَّشْرِيعِ الْمُسْتَقِلِّ سِنَعَطِي مِثَالًا لِهَذَا الْأَخْتِافِ لِفُتُوَى حَدِيثِهِ يَسْأَلُ فِيهَا أَحَدُهُمْ عَنْ أَحَقِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ فِي التَّشْرِيعِ الْمُسْتَقِلِّ وَسُنِّبَتْ الْفُتُوَى كَمَا وَرَدَتْ :

السُّؤَالُ : قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرُهُمْ بِالسُّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ .  
فَعَلَى حَدِّ عِلْمِي إِنْ الْحَدِيثُ صَحِيحٌ ، وَصَحَّحَهُ . أَيْضًا . الشَّيْخُ : مُصْطَفَى الْعَدَوِيِّ حَفِظَهُ اللَّهُ .

فَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشْرَعُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ؟ لِأَنَّ الْمُبَادِرَ إِلَى ذَهْنِي إِنْ الْمَعْنَى : لَوْلَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ شَأْقًا عَلَى الْأُمَّةِ لِأَمْرِهِ بِهِ وَجُوبًا .

أَرْجُوا الْإِفَادَةَ .

الإجابة

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، أَمَّا بَعْدُ :

فَحَدِيثُ : لَوْلَا أَنِ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي . أَوْ عَلَى النَّاسِ . لِأَمْرِنَهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ ،  
بَلْ مِنْ أَصْحَحِ الْأَحَادِيثِ ، فَقَدْ انْفَقَ عَلَى رِوَايَةِ الشَّيْخَانِ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي التَّلْخِيصِ : قَالَ ابْنُ  
مُنْدَهَ : وَإِسْنَادُهُ مُجْمَعٌ عَلَى صِحَّتِهِ . هـ .

وَفِيمَا إِذَا كَانَ مَعْنَى هَذَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشْرِعُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، فَالْجَوَابُ : أَنْ نَعَمْ .  
لِأَنَّ اللَّهَ عِزَّمَةً مِنَ الْخَطَا فِي التَّبْلِيغِ ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى وَأَمْرًا بِطَاعَتِهِ . مُطْلَقًا . فَدَلَّ هَذَا  
عَلَى أَنَّهُ لَا يُشْرِعُ إِلَّا مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا  
حَرَّمَ اللَّهُ . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ ، وَصَحَّحَهُ الألباني .

وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

قَالَ الشَّيْخُ الأِسْلَامُ : لَا نِزَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْصُومٌ فِيمَا بَلَّغَهُ عَنِ اللَّهِ  
تَعَالَى ، فَهُوَ مَعْصُومٌ فِيمَا شَرَعَهُ لِلْأُمَّةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ . هـ .

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ فِي الشِّفَاءِ : أَنَّ الأُمَّةَ أَجْمَعَتْ فِيمَا طَرِيقُهُ البَلَاغُ أَنَّهُ مَعْصُومٌ فِيهِ مِنَ الأَخْبَارِ عَنْ  
شَيْءٍ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ . لَا قَصْدًا وَلَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا وَلَا غَلْطًا . هـ .

قَالَ الشَّيْخُ عَطِيَّةُ سَالِمٍ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . فِي شَرْحِ بُلُوغِ المَرَامِ عِنْدَ شَرْحِهِ لِحَدِيثِ : لَوْلَا أَنِ أَشَقُّ :  
وَهَلْ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالأَحْكَامِ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيَسْئَلُ عَلَى النَّاسِ أَوْ يُخَفِّفُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، لَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ  
مُسْتَقِلًا ، وَهُوَ كَمَا وَصَفَهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : بِالْمُؤْمِنِينَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ . ﴿ التَّوْبَةُ : 128 ﴾ .

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ فِي تَشْرِيْعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ : حِينَمَا بَيْنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُحَرَّمَاتِ فِي النِّكَاحِ فَقَالَ : وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ . ﴿ النِّسَاءُ : 23 ﴾ . فَأَضَافَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَا تُنْكَحِ الْمَرْأَةُ مَعَ عَمَّتِهَا وَلَا مَعَ خَالَتِهَا . فَالْقُرْآنُ مَا جَاءَ بِهَذَا ، وَلَكِنْ جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَلِذَا قَالَ تَعَالَى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي . ﴿ آلِ عِمْرَانَ : 31 ﴾ . فَاللَّهُ أَعْطَاهُ حَقَّ التَّشْرِيعِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ . ﴿ الْحَشْرِ : 7 ﴾ . وَسِوَاءِ آتَانَا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَوْ آتَانَا بِهِ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . ﴿ التَّجْمِ : 3 ﴾ . ه .

وَأَنْظُرِ لِلْفَائِدَةِ الْفَتَوَيْنِ رُقْمًا : 3879 ، وَرُقْمًا : 4588 .

أَنَّ هَذِهِ الْفُتُوَى تُخَلِّطُ الْأُمُورَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ لِتَصِلَ إِلَى النَّبِيْجَةِ الَّتِي تَهْوَاهَا فَالتَّشْرِيعُ شَيْءٌ وَاسْتِحْدَاثُ أَحْكَامٍ جَدِيْدَةٍ لِحَالَاتٍ جَدِيْدَةٍ شَيْءٌ آخَرَ فَالتَّشْرِيعُ هُنَا بِمَثَابَةِ الدُّسُورِ وَالَّذِي يُضَمُّ الْمَبَادِي وَالْأُسُسَ الْعَامَّةَ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الدِّينُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ وَهَذَا قَطْعًا لَا يَجُوزُ تَعْدِيلُهَا أَوْ تَبْدِيلُهَا أَوْ التَّشْرِيعَ فِيهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ هِيَ ثَابِتَةٌ وَفِيهَا مَصْلَحَةٌ مُحَقَّقَةٌ وَصَالِحَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ

أَمَّا حَدِيثٌ : لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي . أَوْ عَلَيَّ النَّاسَ . لَأَمَرْتُهُمْ بِالسُّوْكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ

فَهَذَا لَا يَتَعَلَّقُ بِقَاعِدَةِ شَرْعِيَّةِ دُسُورِيَّةِ بَلْ بِأَمْرِ تَعْبُدِيٍّ مِثْلِهِ مِثْلُ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَةِ .

فَمَا الْمَانِعُ الشَّرْعِيُّ أَنْ يَقُولَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مَا أَرَادَ وَأَنْ قَوْلُهُ لَا يُعَدُّ بِمَثَابَةِ التَّشْرِيعِ

أَمَّا حَدِيثٌ لَا تُنْكَحِ الْمَرْأَةُ مَعَ عَمَّتِهَا وَلَا مَعَ خَالَتِهَا وَعَلَى فَرَضِ قَبُولِهِ مِنْ حَيْثُ نُسِبَ ثُبُوتُ قَوْلِهِ لِرَسُولِ

اللَّهِ فَهَذَا الْحَدِيثُ لَا يُفِيدُ مَعْنَى التَّحْرِيمِ بَلْ بِمَعْنَى أَنْ فِيهِ ضَرَرٌ لِمَا يُفْضِي إِلَيْهِ الْجَمْعُ مِنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ

القريبة بما يقع بين الضرائر من الشنآن والشُرور بسبب الغيرة فالجمع هنا وإن كان حلالاً لأنه لم يذكر لفي المحرمات الدائمة والمؤقتة والتي أحل الله ما وراء ذلك فهو مكروه كقوله تعالى أن أبغض الحلال عند الله الطلاق . والغريب في الأمر هناك من يبرر ذلك بقوله وهذا الحديث يخص عموم قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم ) وهذا يعني إبطال هذه الآية أو إدخال تعديلات عليها فهل يجوز القول بذلك بل يعمموا قاعدتهم هذه بقولهم وهو دليل على جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الأحاد . وهذا بتصوري أخطر مدخل لتحريف النصوص القرآنية وتزويرها على الطريقة اليهودية .

ما يثير الدهشة والغرابة هو حديث صحيح على الترمذي والنسائي يعتبرونه تشريعاً وهو :

روى الترمذي (I2) والنسائي (29) عن عائشة ، قالت : من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول قائلماً فلا تصدقوه ، ما كان يقول إلا قاعداً وصححه الترمذي والنسائي .

### مصادر التشريع الإسلامي

الشرع هو : « ما شرعه الله على لسان نبيه من أحكام » والمصدر الأساسي للشرع الإسلامي هو ما جاء من عند الله تعالى عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن والحديث ، فهما الوحيان والمصدران اللذان يعتمد عليهما ما عداهما من الأدلة الشرعية . لكن هناك أحكام شرعية مذكورة في القرآن والحديث على وجه الأجمال أو بصورة كلية ، وهذا يستلزم وجود أدلة لاستنباط الأحكام الشرعية ، بطريق الاجتهاد وتسمى هذه الأدلة أصول الأحكام ، وهي التي يبحث فيها علم أصول الفقه

الأدلة الشرعية

الدليل لغة المرشد والهادي .

الأدلة الشرعية هي : أدلة الفقه الإجمالية ، التي يستنبج منها الأحكام الشرعية . وعند علماء أصول

الفقه هي : ما يوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري

الأدلة الشرعية المتفق عليها بين جمهور الأمة

القرآن

السنة (الحديث النبوي) .

الإجماع

القياس

الأدلة المختلف عليها

الاستحسان

العرف

الاستصحاب

المصلحة المرسلة

سد الذرائع

شَرْعٌ مِّنْ قَبْلِنَا

قَوْلُ الصَّحَابِيِّ

وَذَلِكَ بِشُرُوطِهَا وَضَوَابِطِهَا الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ أُصُولِ الْفِقْهِ .

مَصَادِرُ التَّشْرِيعِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ

الْقُرْآنُ

السُّنَّةُ : وَهِيَ قَوْلُ النَّبِيِّ وَفَعْلُهُ وَتَقْرِيرُهُ .

العقل : وَهُوَ الدَّلِيلُ الْعُقْلِيُّ الْقَطْعِيُّ وَكُلُّ مَا يُبَيِّنُ بِالْقُرْآنِ أَوْ سُنَّةٍ فَهُوَ ثَابِتٌ بِالدَّلِيلِ الْعُقْلِيِّ .

الإجماع : وَهُوَ وَسِيلَةٌ إِثْبَاتٍ بِاتِّفَاقِ آرَاءِ الْفُقَهَاءِ فِي مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ وَهُوَ كَاشِفٌ عَنِ الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ، وَلَيْسَ الْإِجْمَاعُ كَاشِفًا عَنِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ مُبَاشَرَةً وَيَجِبُ أَنْ يَسْتَدَّ إِلَى رَأْيِ النَّبِيِّ وَالْأُمَّةِ .

مَصْدَرُ التَّشْرِيعِ عِنْدَ الْقُرَّانِيِّينَ

يَرَى الْقُرَّانِيُّونَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمَصْدَرُ الْوَحِيدُ لِلتَّشْرِيعِ .

**الحقوق المطلقة لله تعالى**

من خلال هذا الموجز للتعريف بكتاب الله نستطيع ان نحدد بعض الضوابط الإلهية التي لا يجوز لأحد كائن من كان بعد وفاة الرسول الكريم باعتباره الرسول المعنى بالرسالة و باعتباره نصا مقدسا لايجوز لأحد التعدي على قداسة الكتاب بأحدى الطرق والوسائل التالية :

أولا : حق التاويل والخروج عن المعنى الظاهري لأن علم تأويله عند الله وحده لقوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : 7]

ثانيا : حق التشريع :كذلك لا يمكن لأحد مهما كان أن يدعي بأن التشريع القرآني لغير الله ان ما ذكرته كتب الفقهاء حول مصادر التشريع او أصول الفقه يفيد بأعطاء صفة التشريع لغير الله وهذا لا يجوز اطلاقا .

ثالثا : حق الحكم والتملك : وهو حق مطلق أيضا فلا يجوز لأحد كائن من كان أن يمنح حق الحكم لغير الله سواء أكان سلطانا او أميرا للمؤمنين أو غير ذلك ولا يجوز لفئة او جماعة أن تدعي انها مفوضة عن الله للحكم او تحكم باسمه أو بأمره أو بكتابه وغير ذلك من الصفات المملوغة والخبثية .